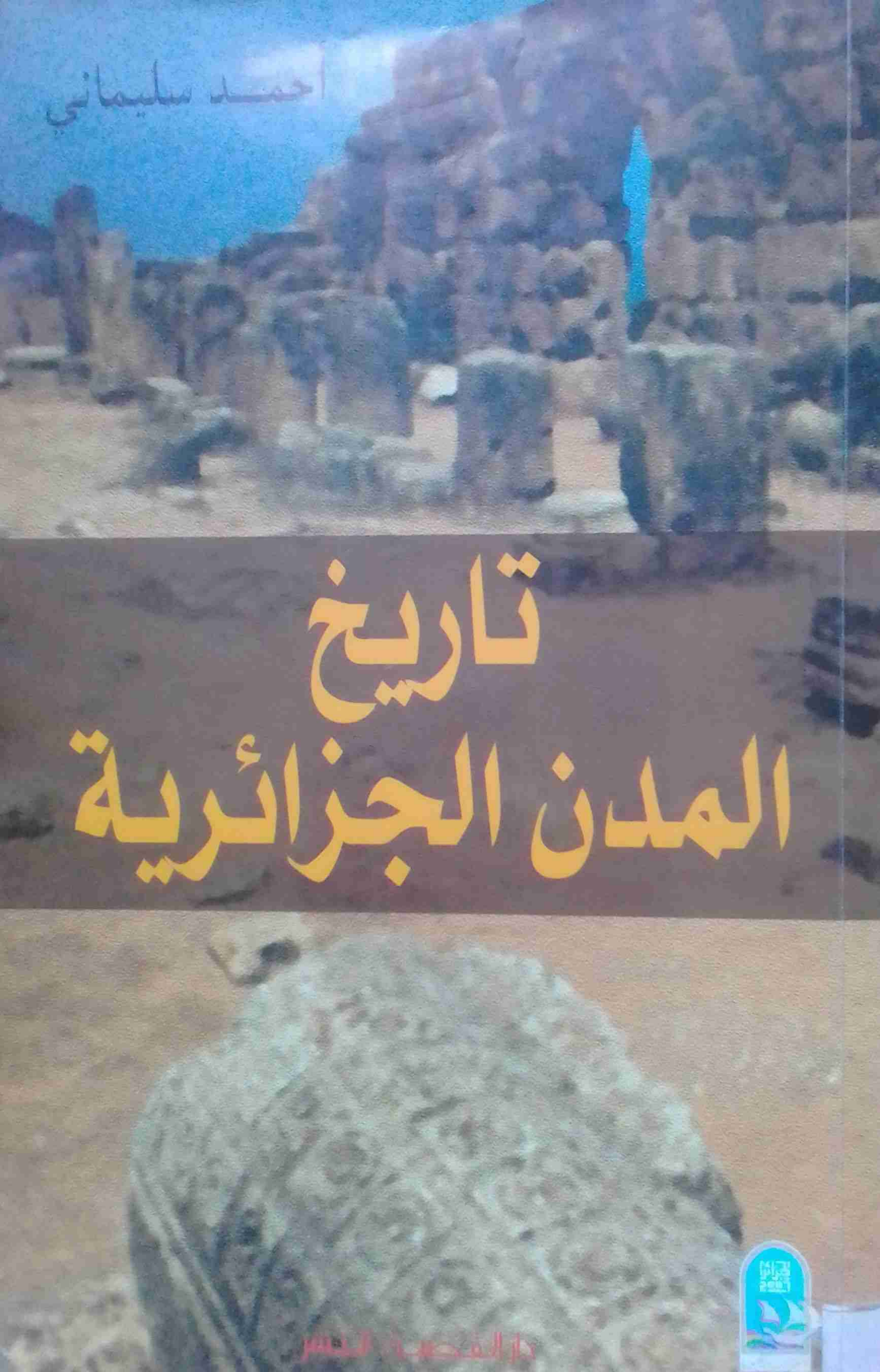


أحمد سليماني
تاريخ
المدن الجزائرية
دار القصبة للنشر

تاريخ المدن الجزائرية

أحمــد سليماني

تاريخ المدن الجزائرية



دار القصبة للنشر
فيلا 6، حي سعيد حمدين – 16012، الجزائر

تدمك : 3 – 682 – 64 – 9961 – 978

الإيداع القانوني 3695 – 2007

تقديم الطبعة الجديدة

إن هذا الكتاب الجديد الذي أنجزته قبل سنوات خلت ومازالت أذكر أنيّ بدأته بجموعة مقالات في يومية الشعب وكانت لي مصاعب مع بعض المثقفين المسؤولين بسبب نشرها أنذاك.

طلبت مني الإذاعة الجزائرية تقديم برنامج مدن و تاريخ فقضيت مدة في ربوع الإذاعة وكان يشرف على البرمجة الإذاعية السيد محمد الطيب ناجح، والاستاذ محمد الدحاوي، وأفادوني كثيرا في التعود والتعلم والتمرن على الكتابة الصحفية و لكن بقيت متشبثا بعملي كأستاذ جامعي وتشاء الأقدار أن تفتح لي دار القصبة العامرة أبوابها لنشر كتابي تاريخ المدن الجزئرية بمناسبة الجزئر عاصمة الثقافة العربية اختير هذا الكتاب من جملة الألف كتاب ويعد بمثابة مفخرة وإعتزاز كبير إليّ فتحية وتقدير وإكبار لدار القصبة المضيافة التي لم تبخل بنشر مؤلفات الأقلام الحرة في الجزائر.

وبسبب ضيق الوقت أتمنى أني أنشر في طبعة لاحقة بعض المدن التي لم أذكرها في كتابي وهي المسيلة، وخنشلة، وسطيف، وورقلة، وتقرت، والبيض سيدي الشيخ وهذا ليس تقصيرا بل مشكلة الوقت المحدود.

أحمد السليماني.

الجزائر في 2007/11/14

طليعة الكتاب

حضرت يوما الى محاضرة ألقاها الأديب الجزائري رشيد بوجدرة حول الأدب والسياسة، في دار الثقافة بالمدية، وأعجبتني كلمة قالها تعبر أصدق تعبير عن رأيه حول الكتابة الأدبية فقال: "ربما الذي يدفعني نحو الكتابة يكمن في اللاوعي"، وأجد نفسي أشاطر الأستاذ بوجدرة فيما ذهب اليه في بعض الوجوه فالدافع الى الكتابة التاريخية لدي يكمن في أعماق الوعي "وليس اللاوعي".

والكتابة مهما كان نوعها أكانت تاريخية أو أدبية أو فلسفية أو دينية، لا بد أن تكون نابعة من الذات والفكر والعقل وإلا لن تكون، وهناك عامل الدافع النفسي الدي يجعلنا نكتب ما نريد من أفكار ولا داعي لتحديد النوعية والأسباب والوسائل التي تؤدي إلى إخراج عمل فكري إلى حيز الوجود، حتى يصبح جاهزا وصالحا لنشره وايصاله إلى القراء، وعلى كل حال فالكتابة بلوى يبتلى بها المرء.

وعندما فكرت في الكتابة عن مدينة الجزائر والمدن الأخرى كان يحذوني دافع نفسي، فعزمت على الأمر لأن كتابنا المعاصرين لم يراعوا تاريخنا، ولا حضارتها ولا ثقافتها خلال العصور الماضية وأستثني بعض الأعمال التاريخية التي تخص المدن وهي محدودة نسبيا.

وهكذا عقدت العزم على أن أكتب حول تاريخها، لأنصافها وارجاع حقها المسلوب، وأتمنى بعملي هذا أني اصبت مرادي ومناي.

وفي عهد الجزائر المستقلة فإن المؤرخين والكتاب الجزائريين أهملوا ميدان تاريخ المدن الجزائرية ولم يحض هذا الميدان بما يستحق من الإهتمام والرعاية، فلم يجندوا اقلامهم للكتابة عن تاريخ مدينة الجزائر وتاريخ مدينة تلمسان وتاريخ

قسنطينة وتاريخ مدينة ندرومة وتاريخ مدينة تيميمون وتاريخ مدينة المدية عاصمة مقاطعة التيطري في عهد البايات التي لم ننصفها بعد... مما يعد تقصيرا. هذا مع العلم أن كل مدينة جزائرية لها حضارتها وأمجادها التي تستحق التدوين.

ولقد كتب الأستاذ إسماعيل العربي كتابا حول المدن المغربية وفيه ذكر للمدن الواقعة في تونس والجزائر والمغرب الأقصى إبان العصر الوسيط من خلال مؤلفات المؤرخين والرحالة العرب الذين عرجوا على المدن المغربية فوصفوها وذكروا شيئا عن أهلها ومدنيتها، وقرأت هذا الكتاب بشوق وكنت أعتقد أني أجد ما أريد من أخبار عن المدن الجزائرية موضوع كتابي، ولكن عثرت على معلومات ضئيلة لا تشفي الغليل، ولا أدري لماذا لم يخصص أخبارا غزيرة ووفيرة حول هذه المدن التي كان لها شأن في العصر الوسيط، ولاسيما أنه إعتمد على المؤرخين المغاربة الذين عاشوا في العصر الإسلامي، فتوسعوا بشكل معتبر حول حياة مدبنة الجزائر، وغيرها من المدن وأقصد أن التوثيق حولها متوفر فلم هذا التقصير...؟

وأعود الى موضوعي، وهو أنني ترددت في أول وهلة عندما أردت الكتابة في تاريخ المدن الجزائرية، ولكن بعدما فكرت مليا في الأمرحتى النهاية، فبحثت عن المصادر والمراجع فوجدت منها الخير الوفير، فشمرت عن ساعدي وبدأت أقرأ كل ما يصل بين يدي حول تاريخ المدن منذ القديم حتى العهد العثماني وبداية الإحتلال الفرنسي، فوجدت أن لدي مادة هامة تخص أحوال المدن في مختلف العصور.

وإذا عدنا إلى المؤرخين والرحالة والجغرافيين والأدباء العرب نجدهم اولوا مدينة الجزائر والمدن الأخرى عنايتهم ورعايتهم خلال كتابتهم، فكتب عنها إبن حوقل، وإبن خلدون والحسن الوزان صاحب وصف إفريقيا، والإدريسي صاحب نزهة المشتاق وخالد بن عيسى البلوي صاحب تاج المفرق الذي جرى تحقيقه أخيرا تحت إشراف لجنة مشتركة لنشر التراث بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربيه بمطبعة فضالة في المحمدية بالمغرب الأقصى.

وعندما نتمعن في تاريخ مدينة الجزائر نجدها قد عرفت حضارة مزدهرة في العصر الإسلامي، وخاصة في الفترة العثمانية لأنها أصبحت عاصمة الديار الجزائرية، فركزت على العهد العثماني لأني وجدت كثيرا من الوثائق التي تتحدث عن هذه الفترة.

وكما ذكرت سالفا فإن المؤرخين والرحالة العرب كتبوا عن أخبار المدن وأحوال أهلها وحضارتها وأنماط عيش ذويها.

واعتمدت ايضا على ما قرأته في كتب الرحالة والأسرى والأجانب الذين عاشوا في مدن الجزائر العامرة، من ألمان وأمريكيين وأنجليزوفرنسيين، وقام الدكتور أبو العيد دودو بمجهود كبير من أجل نقل أعمال ومذكرات هؤلاء إلى اللغة العربية، فترجم مذكرات هاينرش فون مالتسان وهو رحالة ألماني قام بزيارة لمدينة الجزائر بعد الإحتلال بقليل واعتمدت ايضا على ما دون لنا من معلومات، سيمون بفايفر الأسير الألماني الذي إشتغل في بلاط الداي حسين، وعاصر فترة احتلال مدينة الجزائر من قبل الفرنسيين فوصف أحوال المدينة وصفا دقيقا ولم ينس أن يذكر لنا هذا الأسير مآسي الجرحى الجزائريين بعد المعارك الشديدة التي دارت بين الجيش الجزائري والجيش الفرنسي في اسطاوالي ولا سيما أن سيمون بفايفر اشتغل كطبيب أنيطت به مهام إسعاف الجرحى الجزائريين.

وترجم الأستاذ إسماعيل العربي مذكرات وليام شالر قنصل امريكا في الجزائر (1816-1824) وهذا الكتاب عبارة عن يوميات قنصل وترجم كذلك مذكرات القنصل الأمريكي كاثكارت وكل ذلك أثرى أعمالنا.

ولقد توسع هؤلاء الرحالة الأجانب في وصف مدن الجزائروعادات وتقاليد أهلها وحضارتها التي تجمع بين أنفة وشهامة أهل المغرب ورقة وجود أهل المشرق، وذكروا لنا ما يجري في قصور البايات والدايات من ولائم ومجالس أنس ومسرات وتشريفات واستقبالات ومكائد ومؤامرات إلخ...

أما عن تاريخ مدينة الجزائر فيبدو أن عدة دول وأسر بسطت نفوذها السياسي على المدينة فتوالى على حكمها المرابطون الذين أسسوا مسجدا بها مازال قائما حتى اليوم ثم الموحدون والحفصيون والزيانيون وأصبحت بعد ذلك كجمهورية على نمط جمهوريات المدن إبان عصر النهضة في إيطاليا خلال القرن الثامن عشر الميلادي.

وجاء بعدهم العثمانيون الذين دام حكمهم لمدينة الجزائر ثلاثة قرون، ولقد توسعت في الكتابة عن تاريخ المدينة وحضارتها وثقافتها في العهد العثماني من خلال مشاهير علمائها، مثل عبد الرحمن الثعالبي وابن حمادوش وهو جزائري المولد والمنشأ.

أما فيما يخص المؤرخين والكتاب الجزائريين المعاصرين فنجدهم بدأوا الكتابة في تاريخ الجزائر في العهد العثماني بفضل ظهور المختصين في هذه الفترة الذين تخرجوا من جامعة الجزائر أو غيرها من الجامعات، وقد أثروا بأعمالهم المكتبة الجزائرية، ويمكن أن نضرب مثلا على ذلك السيد ناصر الدين سعيدوني الذي ألف كتابا هاما حول

النظام المالي في العهد العثماني وهو يصور الحياة الإقتصادية والمالية والنظام المعمول به في ميدان المعاملات التجارية ودور العملة وقيمتها وأصنافها إلخ...ثم كتب مؤلفا بالإشتراك مع الشيخ المهدي بوعبدلي،حول الجزائر (ويقصد القطر لا المدينة) في العهد العثماني، وقد تحدثعن مدينة الجزائر السيد أبو القاسم سعد الله، صاحب كتاب تاريخ الجزائر الثقافي، ويحتوي على جزئين.

وحقق الأستاذ محمد بن عبد الكريم التحفة المرضية في الدولة البكداشية لمحمد بن ميمون الجزائري وكان هذا الكاتب معاصرا للداي محمد بكداش في القرن الثاني عشر الهجري، الموافق للثامن عشر الميلادي، ويصورلنا الكاتب حروب الجزائريين ضد الإسبان وفتح مدينة وهران بعد تحريرها من براثن الإستعمار الإسباني في القرن الثاني عشر الهجري إبان العهد العثماني. ولا أنس أن أذكر أهمية مذكرات الجزائريين الذين عاشوا في العهد العثماني بعده مثل نقيب الأشراف أحمد الشريف الزهار و مذكرات الرحالة الجزائريين وكل ذلك له أهمية من الناحية التاريخية . على كل حال نستطيع أن نكون منفائلين فيما يتعلق بأحوال الدراسات التاريخية التي تخص العهد العثماني، وهذا بفضل ظهور نخبة المختصين الجامعيين الجزائريين الذين ذكرتهم من قبل وآخرون في الطريق، وأملي كبير، أن هذا الكتاب عن مدن الجزائر سيعمل على تبسيط المعلومات المتعلقة بتاريخ المدن وحضارتها وجعلها في متناول القارئ الجزائري والعربي، فأنا أريد أن أزيل ذلك الإبهام والغموض الذي يتعلق بأحوال مدن الجزائر ثقافيا وتاريخيا وحضاريا وإجتماعيا .

أحمد حسين السليماني

المدية في *8*أفريل *1996*

الفصل الأول

أدب الرحلات كمنهل لتدوين تاريخ المدن الجزائرية

إن أدب الرحلات يعد مادة رئيسية لتدوين التاريخ الجزائري على مدى قرون عديدة ومنها على الخصوص السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر، ونعني بأدب الرحلات ماكتبه الرحالة الأوروبيون الذين عرجوا على الجزائر (مدينة وقطرا) فكتبوا عنها أمورا خاصة لانجدها في مصادر أخرى، وهناك أمريكيون أيضا كتبوا عن الجزائرسأذكر أشهرهم في مقالي هذا.

ووفد على الجزائر أولئك الأوروبيون الذين يحبون الشعر وفي أعماقهم شغف شديد بكل غريب وافد من بلدنا، وذلك لما يحمله من العجائب تجذب إليها النفوس، مع التعلق بكل ما يمت للخيال الرومانسي المستجلب، وكان من بين الرحالة الكتاب والعلماء والشعراء، والأمراء، والفنانون الذين رسموا لوحات زيتية تعكس مدى ولعهم بجمال طبيعة الجزائر الفاتن، وصوروا المجتمع الجزائري وكان للمرأة الجزائرية مكانة سامية في هذه اللوحات الفنية وحتى ولو أنه يطبعها الطابع الخيالي المحض يتجلى هذا في لوحات تيسيي على سبيل المثال في أواسط القرن التاسع عشر، وتأثر الرحالة الأوروبيون وحتى المغاربة بالجزائر فدونوا ما عرفوه عن هذه البلاد (وغيرها من بلدان المغرب العربي) في رحلات ومذكرات ولا ننسى صلة أدب الرحلات بالأنتوجرافيا التي تعني الدراسة الوصفية لإسلوب الحياة ومجموعة التقاليد،

والعادات والقيم، والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين خلال فترة زمنية، وفي مقابل هذا المصطلح نجد مصطلحا آخر وهو الإثنولوجيا هذا العلم الذي يهتم بالدراسة التحليلية والمقارنة للمادة الأثنوجرافية بهدف الوصول إلى تصورات نظرية، أو تعميمات تخص مختلف النظم الإجتماعية الإنسانية من حيث أصولها وتنوعها وبهذا تشكل المادة الثنوجرافية قاعدة أساسية للبحث التنولوجي، فالإثنوجرافيا والإتنولوجيا مرتبطتان وتكمل إحداهما الأخرى، وهما تشكلان مجالين دراسيين هامين في إطار مجالات الدراسات العامة للأنثروبولوجيا التي يقصد بها ذلك النسق المعرفي والمنهجي لدراسة الإنسان طبيعيا وإجتماعيا وحضاريا.

ان الرحلات تشكل أكثر المدارس تثقيفا للإنسان، فالإختلاط والحياة مع الشعوب المختلفة إضافة ألى الإجتهاد في دراسة أخلاقهم وطباعهم، والتحقيق في ديانتهم ونظم حكمها غالبا ما تضع أمام الفرد مجالا طيبا للمقارنة كما تساعده على تقييم نظم وتقاليد بلده وموطنه، والرحلة هي عين الجغرافيا المبصرة.

وكانت مواضيع أدب الرحلات تشمل التجارب الشخصية للرحالين في الجزائر وعلاقاتهم وذكروا لنا مواقفهم من قضايا دينية وتاريخية وسياسية وإجتماعية وثقافية وحضارية، ووصفوا أساليب الحياة والعادات في المدن والقرى الجزائرية .

وتزخر المكتبات الأوروبية والأمريكية والواقعة في المغرب العربي بهذه الكتب المتعلقة بأدب الرحلات كمادة خام ومصدر رئيسي لتاريخ الجزائر الحديث قبل 1830وما بعده حتى نهاية القرن التاسع عشر، وهذه الكتب تختلف قيمتها بين كتاب وآخر .وفيما يتعلق بالأوروبيين فقد دونوا هذه الكتب كدليل لمن أراد من مواطنيهم الهجرةإلى الجزائر لإنشاء المستعمرات والإقامة بها بصفة دائمة تحت ظل الإحتلال، الأجنبي وحماية حكومته فنجد ارتباط مصالحهم بمصالح الغزاة.

وإعتمدت في دراستي للمدن على أدب الرحلات للأوروبيين والأمريكيين الذين ترجمت أعمالهم إلى اللغة العربية على يد مترجمين جزائريين، وقمت بالتعريج على بعض الرحلات المغربية والجزائرية للديار الجزائرية وغيرها.

ويجب ألا يثق المرء ثقة عمياء فيما يورد هؤلاء الرحالة من معلومات فهناك أخطاء إرتكبوها فيما قدموه من أفكار وأحداث وهذا يعود إلى جهلهم باللغة العربية أحيانا وقلة إطلاعهم على الأحداث الوطنية إطلاعا مباشرا أو تسرعا في الحكم دون تحري الحقائق التاريخية ويمكن أن نقدم مثلا بسيطا على هذا بما ذكره فانتوردوبارادي

حول تاريخ تأسيس مدينة الجزائر حيث لا يذكر في مذكراته تاريخ المدينة في القديم ولا إسمها القديم في العهد الروماني ولا تاريخها في العهد الإسلامي رغم أن فانتوردوبارادي مكث في الجزائر مدة عامين كاملين ويجيد اللغة العربية والتركية لأنه تعلمها في معهد اللغات الشرقية في باريز، ولكن رغم هذا فإن المعلومات التاريخية التي قدمها فانتوردوبارادي حول النظام السياسي والمالي للدايات يعد مصدرا تاريخيا لا يستهان به تخص القرن الثامن عشر في الجزائر.

وقد ساهم الأدباء والمفكرون الجزائريون في ترجمة أعمال تخص أدب الرحلات الأوربية منهم على الخصوص د. أبو العيد دودو، ود. إسماعيل العربي ود. عبد القادر زبادية ولاسيما أن هذه المادة ضرورية للباحث الجزائري الذي في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر وتاريخ مدينة الجزائر بلغة الضاد. ويمكن إعتبار أعمال الرحالة الأوربيين في بعض الأحيان أكثر عمقا ودقة وغزارة من ناحية المادة التارخية

والسياسية مما كتبه الرحالة المغاربة أو المشارقة حول المغرب وبخاصة فترة الأتراك في الجزائر ونظامهم السياسي وكذا سقوط مدينة الجزائر في 1830.

وعلى كل حال فإن إعتمادنا على أدب الرحلات الأوربية لا يعني الإستهانة بما كتبه الرحالة المغاربة والعرب حول الجزائر مثل العياشي والزياني وإبن زاكور الفاسي صاحب كتاب نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان الذي حققه في طبعة جديدة السيد عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة المغربية وهو ان أصل جزائري وهناك أعمال جادة دقيقة من المصادر العربية الجزائرية الموثوقة التي هي لاغنى للباحث عنها مثل كتاب المرآة لحمدان بن عثمان خوجة ولكن لايعد من كتب الرحلات والزياني صاحب دليل الحيران في أخبار مدينة وهران الذي حققه الشيخ المهدي بوعبدلي رحمه الله ومذكرات الشريف الزهار التي تعد مصادر تاريخية هامة لا غنى للمؤرخ الجزائري عنها بسبب أهميتها وغزارتها ودقتها في معالجة الجوانب السياسية والإجتماعية والدينية للجزائر في القرن الثامن عشر والتاسع عشر.

وقد كانت هناك نهضة مباركة عرفها أدب الرحلة في العالم العربي خلال القرن التاسع عشر فقد إستطاع هذا اللون من الأدب أن يجدد مضمونه في الثقافة العربية على يد الشيخ رفاعة الطهطاوي الذي جعل من تخليص الأبريز في تخليص باريز.

رحلة لإستكشاف باريز ومعرفة أسس النهضة الأوروبية وتقديم النموذج لمجاوزة الكبوة والشروع في تشييد نهضة عربية إسلامية ملائمة لروح العصر والتاريخ. ولا

ننسى في المغرب العربي دور الفقيد محمد الفاسي رحمه الله من المغرب الأقصى الذي اهتم بأدب الرحلات تحقيقا ودراسة وذلك من خلال المقدمات القيمة التي صدر بها العديد من كتب الرحلات التي سهر على نشرها واذاعتها في أوساط القراء الباحثين منها رحلة العبدري الشهيرة.

وإهتم الدكتور أبو القاسم سعد الله أستاذ التاريخ الحديث في جامعة الجزائر بأدب الرحلات وما تحقيقه لرحلة إبن حمادوش إلا دليلا على إهتمامه بهذا الصنف الأدبي التاريخي الهام. ونشر كتابا عنوانه : تجارب في الأدب والرحلة تعرض فيه إلى رحلاته العديدة في المشرق والمغر ب وبلدان الغرب وقد حرره في الولايات المتحدة الأمريكية ويتعرض فيه إلى قضايا أدبية وشعرية بحتة كان قد نشرها في مقالات أدبية بجرائد جزائرية. ويتعرض في كتاب تجارب في الأدب والرحلة ص 23 إلى أحد الأمراء الألمان الذي قام برحلة إلى عنابة وهي مترجمة من الإنجليزية في القرن التاسع عشر بعد إحتلال الفرنسيين للجزائر. وكان الأمير موسكاو رو مانطيقيا، له إهتمام شديد بالآثار الرومانية. وقام بإصطياد الخنزير البري في بونة أي عنابة.

وهناك ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس جرت في القرن الماضي أولها رحلة سليمان صيام لباريز في 1856. والثانية هى الرحلة القادمة في مدح فرنسة وتبصير أهل البادية والثالثة رحلة الوفد الجزائري من رؤساء العرب. ورحلتهم إلى محروسة باريس 1902.

وهذه الرحلات جاءت بعد الإحتلال الفرنسي للجزائر ونجد أصحاب الرسائل هذه يمدحون الفرنسيين وينبهرون بالحضارة الفرنسية إنبهارا ولا سيما عندما شاهدوا القطار البخاري وتطور الصناعات النسيجية والآلات الصناعية وقصور الملوك وإنخدعوا بالمجاملات التي وجدوها عند إستقبالهم في باريز وغيرها من المدن الفرنسية.

ومن أهم الرحلات العربية الجزائرية رحلة إبن حمادوش المسماة : لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، من تحقيق وتعليق د. أبو القاسم سعد الله ويذكر فيها رحلته إلى تطوان وفاس وغيرها بإختصار كبير ومما ذكره فيها عادة المكس بتطوان ولقاؤه بالشيخ البناني الفاسي.

وإذا عدنا إلى أدب الرحلات كمادة تاريخية وأعني بهذا ما كتبه الرحالة والأسرى الألمان والأمريكان والفرنسيين فأشهرهم سيمون بفايفر الذي شهد سقوط مدينة الجزائر فوصف ذلك وصفاحيا وهو صاحب كتاب مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر وهو مترجم إلى العربية، من تقديم وتعريب د. أبو العيد دودو، وقد عاش سيمون بفايفر

مدة خمس سنوات في مدينة الجزائر قضاها كلها في قصر الخزناجي أفندي، حيث إشتغل سنتين في مطبخه يقوم بمختلف الأعمال المنزلية، ثم أصبح طبيبه الخاص، وعاصر أحداث الحملة الفرنسية على الجزائر والمعركة البحرية ويعد بفايفر مع حمدان خوجة صاحب المرآة مصدران رئيسيان وشاهد عيان لسقوط مدينة الجزائر.

ولد سيمون بفايفر بمنطقة راينهينسن في 1810 وفقد والديه عندما بلغ عمره ستة أعوام، فكلفه بعض أقاربه وعندما بلغ الثالثة عشرة أقبل على تعلم فن الجراحة وإتجه ألى هولندا حيث تعرف على بعض المعارف الذي أرسله إلى أزمير البحر الذي وجهه نحو أسطول بحري لحماية السفن التجارية من هجمات القراصنة وتوجه ألى أزمير فإعتقله الإنكشاريون وكادوا أن يقتلوه وبعثوه في باخرة جزائرية مع مجموعة من العبيد اليونانيين إلى الجزائر وفي هذه المدينة الآمنة قدر لبفايفر أن يعمل بقصر الخزناجي كطباخ وجاء الوزير إليه فتعرف عليه بفايفر وبعد بضعة أسابيع مرض الخزناجي فنجح بفايفر في معالجته فأصبح طبيبه الخاص، وبقي في هذا المنصب إلى أن أطلق سراحه قبل دخول الفرنسيين إلى الجزائر بمدة قصيرة.

وإتصل بعد ذلك بباي تيطري مصطفى بومرزاق في المدية بناء على دعوة وجهها إليه، وأصبح خازندار مدة أسبوعين، وحينما عزم بومرزاق على محاربة فرنسا، قرر بفايفر أن يتخلى عن منصبه ويعود إلى بلاده في 16 سبتمبر 1930 وعاد إلى ألمانيا، وطلب منه العالم اللغوي الألماني شميتهنزكتابة مذكرات عن السنوات الست الماضية ففعل ذلك.

ومن الرحالة الألمان فيلهلم 1830-1878 الذي زار الجزائر في ديسمبر 1830 وأقام بها عشرة أشهر، وكتب عن جار جزائري في قصبة مدينة الجزائر فوصف حرارة إستقبال الزوجة الجزائرية لزوجها فذكر كيف ترحب الزوجة بزوجها معانقة إياه مقبلة وتجلسه قربها فوق الأريكة وتحدثه ويحدثها ويسرع الأطفال كذلك إلى أبيهم فرحين، فيضمهم إلى صدره في حنان وحب ويأخذ في مداعبتهم وقد أورد هذا في كتابه الذي عنوانه : رحلة فيلهلم شيمبر إلى الجزائر في سنتي 1831-1832 ثم طبعه في مدينة شتوتغارت عام 1834 وهو باللغة الألمانية، ويتطرق شيمبر إلى الحديث عن التربية والتعليم، فيذكر أن الأطفال يذهبون إلى المدارس. وهي موجودة بكثرة ويشرعون في الدراسة عند بلوغهم السادسة من عمرهم، ويتعلمون القراءة والكتابة والحساب، وحفظ القرآن، ثم يواصلون تعليمهم عند العلماء والفقهاء ويسافر الكثير منهم فيما بعد إلى تونس والقاهرة والإسكندرية والقاهرة لإتمام دراستهم أو لتعلم الحرف وفنون التجارة.

ولم يجد شيمبر ولو عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة، وبعد إحتلال الجزائر يرى شيمبر أن الصناعات اليدوية والتجارة عرفت كسادا فالأغنياء الجزائريون الذين كانوا يشجعون هذه الصناعات قد طردوا من قبل الفرنسيين. ومن لم يطرد منهم فضل أن يغادر وطنه من تلقاء نفسه سخطا على الأوضاع الجديدة، ورفضا للحياة في ظل نظام أجنبي. ويرى أن التجارة أصبحت بيد الأوربيين. والتاجر العربي الجزائري الصغير مضطر إلى أخذ بضائعه منهم وهم ماهم عليه من طمع وجشع، ويعتقد شيمبر أن الشعب الجزائري يجتمع فيه الخير والشر مثل جميع الشعوب حوض البحر المتوسط ولكنه يفضل الجزائريين لأنهم أكثر تدينا وثقافة، ومتعلمون ويحبون النظافة وحتى أن معاشرتهم لا تخلوفي البداية من برود إلا أن الإنسان سرعان ما يكشف طبيعتهم ولطفهم وأخلاقهم النبيلة وفضائلهم الحميدة.

ويذكر شيمبرالمعاملة القاسية المتسمة بالوحشية التي تعرض إليها الجزائيون بعد إحتلال الجزائر في 1830 ويذكر القتل الجماعي لقبيلة العوفية حيث قطع الجنود رؤوس القتلى وشدوها بالحبال فوق أكتفاهم.

ويسرد شيمبر حكاية مأساوية ذكرها له أحد الجنود الفرنسيين بكبرياء فقال : كان هناك طفل واقفا في مؤخرة الخيمة، فصحت به : أخرج يا حقير وإلا سوف أطلق رصاصة في فمك . ولكن البهيمة لم يفهمني (قالها بكل تبجح) وعندما ضغطت على الزناد طار نصف رأسه وتعلق بكتان الخيمة.

وهناك كاتب ألماني آخر قام برحلة إلى الجزائر ونشر كتيبا ويدعى المؤلف فرديناند فينكلمان وعنوان كتابه : تاريخ إحتلال الجزائر من طرف الفرنسيين 1830 نشره بمدينة ايملنا عام 1832.

أما هرمان هاوف فقد أصدركتابا بمشاركة إدوارد فيدرمان، وهو كتاب صغير الحجم، طبع في مدينة شتوتغارت عنوانه : الجزائر كما هي.

ويتحدث عن أسباب إحتلال مدينة الجزائر، وحاول مناقشة الأسباب التي أدت إلى إحتلال الجزائر وآثار قضية المروحة دون أن يجعلها سببا فيما حدث بعدها، ومن الرحالة الذين سبروا أغوار المجتمع الجزائري المتحضر في مدينة الجزائر ووصف العادات المتبعة وحياة الناس في المدينة نجد موريتس فاغنر وهو عالم طبيعي ورحالة ألماني (1813-1887)، وقد شارك في الحملة الفرنسية المشؤومة على قسنطينة والبليدة، ورغاية، وبعد توقيع الهدنة زار معسكر تحت حماية الأمير عبد القادر ومما

يجب ذكره أن فاغنر كان عضوا في المجمع العلمي بمونشن، وقد ألف كتابا عن الجزائر عنوانه : " رحلات في ولاية الجزائر في سنوات 1836-1837-1838، وقد صدر في مدينة لبايستيغ سنة 1841، ويتكون كتابه من ثلاثة أجزاء، وصف في الأول مدينة الجزائر والمدن الأخرى التي شاهدها، وتحدث في الثاني عن تاريخ الإحتلال والمعارك التي حضرها، أما الجزء الثالث فقد خص به الفونة أو المجموعة الحيوانية الجزائرية ووضع هذا الجزء بمشاركة أخيه رودولف .

وهناك مؤلف نمساوي قام بزيارة إلى الجزائر وهو أدولف شترال، ألف كتابا نشره في فيينا في 1842 عنوانه "صور شمسية جزائرية" يروي فيه قصة وحكايات عن الجزائر، ويذكر قبر الرومية الموجود قرب تيبازة.

وهناك رحالة ألماني يدعى لودفيغ بوفري ألف كتابا سماه مستقبل الجزائر في ظل السيادة الفرنسية ونشره في 1855 ببرلين، وكان المؤلف عضوا في نادي الهجرة وشؤون المستعمرات بألمانيا ويقارن في كتابه بطولة الأمير عبد القادر ببطولة يوغرطة الملك الجزائري النوميدي القديم الذي مجده المؤورخ الروماني سالوست.

بالنسبة للوثائق الأجنبية المتعلقة بتاريخ العلاقات الجزئرية الأمريكية هناك ما كتبه من مذكرات كاثكارت وهي تدخل في بعض الجوانب من أدب الرحلات لأنه يذكر فيها ما عاناه إبان سنوات الأسر بعد رحلة في سفينة أمريكية أدت به إلى الإعتقال في مدينة الجزائر تفوق عشرة أعوام.

وتعد مذكرات كاثكارت التي حققها الأستاذ إسماعيل العربي تحت عنوان مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب (نشر ديوان المطبوعات الجامعية 320 صفحة) هي المرجع الأول إلى اللغة العربية من الأنجليزية في ميدان العلاقات الجزائرية الأمريكية في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وفي الكتاب وصف دقيق لجميع المؤسسات العمومية التي كانت موجودة في الجزائرإبان عهد كاثكارت وحدثنا أيضا عن انطباعاته الشخصية من خلال إتصالاته ومعاملاته مع عدد من الشخصيات السياسية والإدارية نذكر على سبيل المثال سكجولدر براند قنصل السويد، والقنصل الأمريكي والأب جوزيف من قساوسة البعثة الفرنسية التي تدعى "الرحمة" وقنصل بريطانيا، لوجي وأصبح كاثكارت مدير مكتب الداي حسن فهنا أهمية المادة التاريخية لهذه المذكرات.

وعند إعتقال كاثكارت في البداية، يذكر لنا كيف كان الداي ورياس البحر يعاملونه وأصحابه كأسرى حرب حيث كانت تقدم لهم المأكولات العربية البسيطة، ثم إختار الداي

في قصره خمسة من ملاحي سفينة كاثكارت للخدمة في القصر الملكي، وأما الباقي، فقد قادوهم إلى سجن العبيد، حيث يذكر كاثكارت أن (الايالة) ويقصد أن الدولة الجزائرية إشترت جميع هؤلاء الأسرى بإستثناء أربعة أو خمسة من المسنين الذين جرى بيعهم في السوق وإمرأة أرسلت فور وصولها إلى المستشفى الإسباني حيث بقيت هناك حتى تدفع فديتها وقد اشترتها السلطة الجزائرية فيما بعد. وتحدث كاثكارت في مذكراته أن إثنان من الأسرى عينا في منصب رؤساء الخدم. وأحدهم عين في قصر الداي، اما هو اي كاثكارت فكان عمله ينحصر في العناية باسدين ونمرين وظبيين.

وعانى الأمرين كاثكارت في وضعيته الصعبة كاسير، وتساءل لماذا لم تقم أمريكا بلده الأصلي بتحريره من الأسرى مقابل45.000 دولارا (خمسة وأربعون ألف دولارا) وهو مجموعة التي كانت تتكون من 25 فردا قضى على عدد هام منها الوباء خلال ثماني أعوام من الأسر فتقلص عددهم إلى إثنى عشرا فردا، فأصبح ثمن العتق هو 25.000 دولارا فقط.

ويذكر كاثكارت كيف أصبح مديرا لديوان الداي ثم قنصلا عاما فيما بعد في الجزائر وتونس وطرابلس لأمريكا. وتقدم مذكراته وصفا مميزا لدور اليهود في قصر الداي، ولا سيما دور كوهين بكري الذي كان له دور دبلوماسي في علاقه الداي الأجنبية كأمريكا وبريطانيا وفرنسا، حيث كان بكري يقدم ويقرأ الإقتراحات الأمريكية من أجل الحصول على معاهدات السلام عن طريق دفع أموال وهدايا وسفن وعتاد حربي لشراء السلام مع الجزائر وهذا مايؤكد ما كان لليهود من دور سياسي مرموق ونفوذ في الدولة الجزائرية الذي يحاول البعض سامحهم الله تقزيم هذا الدور في عهد الأتراك. فدور كوهين بكري كان خطيرا عند الداي قبل أن يقيم "أمبراطورية القمح" المعروفة في أوائل القرن السابع عشر والذي كان من الوسائل الرئيسية التي جلبت ويلات الإستعمار الفرنسي على الجزائر.

ولا ننسى في الأخير أهمية ما كتبه عن الجزائر فانتو ردوبارادي في القرن الثامن عشر خلال زيارته إلى الجزائر التي دامت عامين فوصف مدينة الجزائر والداي وديوانه وصلاحيات الخزناجي، وإدارة الدولة والقايد والقاضي والمفتي المكلف بالشرطة.

دور المدينة في التواصل الثقافي بالمغرب العربي عبر التاريخ

في بادئ ذي بدء ماهو الدور الذي لعبه المثقفون في مد الجسور الثقافية في المغرب العربي عبر التاريخ...؟ سؤال يطرح نفسه هذه الأيام التي تعرف حركة غير عادية من النشاط السياسي الهام الرامي إلى لم الشمل وتوحيد المشارب وتكوين إتحاد المغرب العربي من طرابلس مرورا بتونس، والجزائر والرباط، ونواقشط، والصحراء الغربية، والتاريخ يشهد أن المثقفين في المغرب العربي من طلاب علم وعلماء وأدباء ومؤرخين وشعراء كانوا خير معين وهمزة وصل وسفراء علم ودنيا بين مدن وأقطار المغرب العربي وأود تسليط الأضواء والكشف على مساهمة المثقفين في الوحدة المغربية تاريخيا كمعطيات تاريخية لابد منها لمعرفة ما يجب فعله من أجل إنجاح فكرة الوحدة عمليا اليوم وغدا،

وستنجح وحدة المغرب العربي لأن هناك أسس متينة يبنى عليها صرح الوحدة وتتمثل في الرابط الديني فكل المغاربة يدينون بالإسلام، والأغلبية الساحقة من الجمهور متعلقة بالمذهب المالكي، وتجمعنا لغة واحدة هي اللغة العربية رغم وجود لهجات توحد هي أيضا أهالي المغرب كالبربرية التي يتحدث بها أناس في الجزائر والمغرب الأقصى وأهل الطوارق في ليبيا، والجزائر ولكن العربية هي لغة التواصل الغالبة بين أبناء المغرب العربي. وكانت الجزائر فيما مضى تدعى المغرب الأوسط، وسمح موقعها الجغرافي الممتاز ذات بعد إستراتيجي بأن تكون همزة وصل وعامل وحدة بين أجزاء المغرب عبر التاريخ.

والتاريخ يشهد أن الأشقاء المغاربة من طرابلس إلى آسفي مدوا يد العون إلى إخوانهم الجزائريين خلال الإحتلال الفرنسي البغيض، وكان لثورة الجزائر أثر بالغ في قلوب ومشاعر شعوب وزعماء المغرب العربي، فالزعيم التونسي صالح بن يوسف كانت له قناعة كبيرة أن وضع السلاح في تونس بدون استقلال الجزائر يعد خيانة كبرى ولهذا رفض فكرة الإستقلال الذاتي التي عرضتها فرنسا على رجال المقاومة في تونس، وموقف المناضل التونسي هذا يعبر عن مصداقيته وتآزره مع الجزائر، وبعده النظري في وحدة المصير لأبناء المغرب العربي.

علاقات الوحدة في القديم

في العصر القديم إنتهج زعماء إفريقيا الشمالية سياسة فريدة من نوعها، حيث نلاحظ تفتحهم على الثقافات العالمية وإقامة روابط ودية بعضهم مع بعض في شمال إفريقيا، فالبطل الجزائري يوغرطة كانت له روابط صداقة ومودة مع الملك المغربي بوخوس دامت طويلا، ولكن أفسدتها روما بتدخلاتها المشينة.

مع العلم أن ماسينيسا كانت تحذوه فكرة وحدة إفريقيا المالية كلية في دولة واحدة في وطن واحد.

أما يوبا الثاني الذي جعل من يول (شرشال) عاصمة ملكه فقد كانت تختلجه في الأعماق آمال وأماني توحيد إفريقيا بأسرها، وتتجسد هذه الفكرة في زواجه بكليوبترا سليني إبنة الملكة الفرعونية الإغريقية الأصل، وإننا نتسائل هل كان يوبا الثاني يرمي وراء هذا الزواج إلى تطلعات لها صبغة عالمية...؟

وعلى كل حال فقد جعل يوبا الثاني من قصره منتدى الأدباء والموسيقيين والمفكرين والفنانين الذي أتوا من المشرق والمغرب، وميزة هذا الملك العالم أنه كان ذوي ثقافة رفيعة وقد أفاد في ذلك معرفته باللغات القديمة المعروفة في عصره وهي الإغريقية واللاتينية والليبية.

إن التواصل الثقافي بين أبناء إفريقيا الشمالية لم ينقطع إطلاقا عبر التاريخ القديم، أو في العصر الإسلامي المجيد، وهو عصر توطيد العرى والأواصر بين أهالي المغرب العربي، والإسلام كان عاملا فعالا في تعميق التواصل بين المغاربة م بنغازي إلى الجزائر ويمتد التفاعل إلى فاس، ومراكش، والعيون، ونواقشط، ولم تكن هنالك حدودا قائمة بين بلدان المغاربة.

وساهمت الجزائر بمد جسور الوحدة، بصفتها الوسيط الأمين للتقارب، وشد الوصال بين المغاربة مشرقا ومغربا، وانطلقت من الجزائر دعوات دينية لها طابع سياسي مثل الدعوة الموحدية التي دعى إليها المهدي بن تومرت وعبد المؤمن بن علي الأكومي الندرومي حيث كانت الإنطلاقة الأولى لهما وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من منطقة بجاية وامتدت وانتشرت الدعوة هذه إلى أن شملت كل بلدان المغرب العربي، وأقاموا الدولة الموحدية المشهورة.

التواصل في بلدان المغرب العربي

التواصل الثقافي الذي كان قائما في إفريقيا الشمالية في العصر الإسلامي أدى إلى وحدة التصور وبمعنى أصح أدى إلى وحدة فكرية، فأهل المغرب العربي كلهم مالكيون (ما عدا قلة قليلة) في الفقه وأشعريون في العقيدة علاوة على أمور أخرى تجمعهم، ولم يتأثر العلماء وطلبة العلم بالتغيرات التي كانت تقع بين الحين والآخر في ربوع المغرب العربي سياسيا في عهود مختلفة، فاستمر العلماء ينتقلون ويتزاورون من بلد إلى بلد بحرية تامة بلا قيد ولا شرط، ويتطارحون القضايا الفكرية، ويقيمون المناظرات المفيدة، وكان الطلاب من فاس ومن مدينة الجزائر، ومراكش، وتلمسان، وبجاية، وتونس وطرابلس يتوافدون على مراكز الإشعاع الثقافي يتشرفون خير العلوم من مناهلها. وبرزت مدارس وجامعات مشهورة ذاع صيتها في مشارق الأرض ومغاربها كجامعة القرويين بفاس، وجامعة الزيتونة، وجامعة سيدي التواتي ببجاية، ومدرسة مازونة ومدارس تلمسان ومعسكر والقيروان، وتيهرت، وتونس.

دور العلماء في مد الجسور

وتحقق التواصل الثقافي عن طريق التراسل سواء كان في المغرب أو في الجزائر أو في تونس والحصول عاى الإجازات على يد كبار العلماء في المغرب العربي وتبادل المعلومات، مع العلم أن إنتشار الكتب بين أقطار المغرب وأقطار المشرق كان رائجا حيث أن الوراقين والنساخين وتجار الكتب نفذت بضاعتهم بسبب الإقبال الشديد عليهم من عامة الناس، وكان لهم مكانة خاصة عند الملوك والأمراء. وكان العلماء المحازين من بلد مغربي يهرعون إلى عالم آخر في بلد من نفس المنطقة المغربية لينالوا شرف الإجازة منه.

ونشأ تبادل ثقافي عميق الجذور بين المدارس العلمية وأعلامها في المغرب العربي والعالم الإسلامي وهي سمة من الوحدة الثقافية، علاوة على امتزاج الطرق والأساليب المتعددة في البيئات العلمية، ويعد هذا عاملا هاما لتوحيد المناهج العلمية.

دور الصوفية في الوحدة الفكرية

ومن سمات الوحدة الفكرية التي عمدت المغرب العربي انتشارا الصوفية (وهي رياضة روحية سامية) منها الصوفية الطاهرة كتصوف أبي حامد الغزالي وتصوف ممقوت كصوفية الدراويش مثل عساوة ودرقاوة والهبرية من اتباع بن عليوة في الجزائر والمغرب العربي، وقد انتشرت صوفية لأقطاب مغاربة من بلد معين نحو كل بلدان المغرب ومر التصوف في المغرب العربي بظروف عصيبة جعلته ينحرف عن جادته، وهذا ما وقع لتصوف الصالح سيدي احمد بن يوسف الملياني، وكان وليا صالحا يكنى أبا العباس، أخذ من أعلام تلمسان وعن أبي العباس أحمد زروق، وأخذ عنه أحمد بن موسى الجزولي الرجل الصالح المشهور بالسوس الأقصى.

وعن إنحراف الطريقة اليوسفية أذكر هذه الحادثة، فقد كان ينسب إلى الملياني الطائفة اليوسفية بالمغرب الأقصى وحاشاه أن يقول بمقالاتهم، إذ هم أحلوا ماحرم الله تعالى وقد اختلقوا بدعتهم من ترك الصلاة، والصوم، وإستباحة الزنا، والديانة...! هذا ماجاء ذكره في درة الحجال في أسماء الرجال لأبي العباس محمد بن أحمد المكناسي ج1 ص/164، وقد عاش في القرن الحادي عشر الهجري.

وعلى كل حال كان الملياني متصوفا عفيفا بعيدا كل البعد عن هذه الإنحرافات المشينة، وكان من عاداته أن يناول تلاميذه الأذكار ويشكلون دائرة للذكر الجماعي مع ما يرفق هذا من غناء وأناشيد، واضطهد تلاميذه في المغرب الأقصى والجزائر، وهي الملياني أهل التوات على اضطهاد أتباعه، وقال الملياني أن الله أعطاه علم الظاهر والباطن وإدعى أنه نائب عن الرسول الكريم وأن الله أحيى به طريق أهل التحقيق ويبدون نوعا من المغالاة في فكر الملياني حيث يلمس المرء شيئا من البدعة. ونسب إلى سيدي أحمد بن يوسف الملياني قوله : "جميع من أكل معي وشرب أو جالسني أو نظر في لا أسلم فيه يوم القيامة". وخلق أتباع أحمد بن يوسف الملياني والبطحاء، أما أتباعه في المغرب الأقصى فبثوا حالة عدم الإستقرار في ربوع المغرب مما جعل أمير فاس يحاربهم ويطاردهم.

مدن المغرب العربي والوحدة الفكرية

عرفت القيروان مدينة الإسلام الأولى إشعاعا فكريا لفترة طويلة من الزمن، ولا سيما في الفترة الأولى التي اقترنت بإرساء قواعد الدين الإسلامي الحنيف وحضارته في ربوع المغرب العربي، وهذا مع العلم أن الثقافة الإسلامية لم تقتصر على مدن معينة

بل إن ناموس التحضير الذي اقترن بالإسلام منذ البداية جعل هذا الإشعاع في مراكز عديدة[1]، متواصلا مع النمو البشري، والفكري والإقتصادي والسياسي والإجتماعي، فتعددت المدن وتعددت معها مراكز هذا الإشعاع [2] في فاس وبجاية وتلمسان ووهران وتيهرت ومعسكر، والقلعة ومدينة الجزائر ومراكش وتطوان، ومازونة وطرابلس الغرب.

دور العلماء والطلاب في الوحدة

ويتجلى التواصل الثقافي المغاربي في انتقال الطلاب إلى مراكز الأشعاع الثقافي والعلمي، علاوة على انتقال العلماء سواء لنشر العلم أو تحقيق واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالوعظ والإرشاد، وهناك مثل الفقيه السوسي المهدي من تومرت الذي استقر في بجاية ونواحيها ردحا من الزمن للأمر بالمعروف، ونهي الناس عن فعل المنكر، وفيها التقى بعبد المؤمن بن علي حيث اتفقا على أمور دينية إصلاحية ومرامي سياسية هامة كالتفكير في إنشاء دولة موحدية تجمع كل بلدان المغرب العربي.

وكان علماء المغرب من طرابلس وتونس، ووهران، وفاس، ووجدة يلتقون في مناسبات عديدة لنشر دعوة من الدعوات، وكان العلماء ينتقلون إلى الأمراء والملوك الذين كانوا يفتخرون[3] على بعضهم البعض ويتباهون بكثرة ما عندهم من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء، ونتج عن انتقال العلماء هذا حركات علمية زاخرة وإشعاعا ثقافيا غامرا، وفتح مجالات التنافس المفيد. ولا يفوتني التذكير أن استقرار بعض الأسر الجزائرية من تلمسان والأسر القيروانية والأسر الأندلسية في المغرب الأقصى إبان عهد مولاي إدريس الثاني منشئ مدينة فاس[4] حياها الله، وما بعده قد جعل من هذه المدينة الزاهرة مركز هام من مراكز الإشعاع الحضاري بعدما أنشأت فاطمة الفهرية القيروانية جامع القرويين بفاس الذي أصبح فيما بعد جامعة علمية ودينية كان لها دور عظيم في الحضارة والعلم والثقافة الإسلامية على مدى قرون وقرون[5].

وإستمر الإشعاع الحضاري في نمو وإطراد عن طريق تعاون العلماء وتنقلهم بين أقطار المغرب العربي مع الطلاب في العهود الزاهرة التي عرفت فيها بلدان المغرب الوحدة السياسية والإدارية في عهد الموحدين والمرابطين والمرينيين، أو في عهد

---

1. الفاضل بن عاشور، المحاضرات المغربية ص/24، نشر دار بن سلامة، تونس 1984م.
2. نفس المرجع ص/24
3. نفس المرجع ص/24
4. نفس المرجع ص/25
5. نفس المرجع ص/26

الدول التي تفرعت عنهم، أو إبان العهود التي لم تكن فيها وحدة سياسية قائمة فبقيت العلاقات الثقافية تسير بإقياع مدهش.

وكانت العلاقات الثقافية والعلمية بين مدن المغرب العربي أو مراكز الثقافة فيها، كانت مطبوعة دائما بامتانة والوثوق منذ أن ساد في المغرب المذهب المالكي[6]، وساهمت مدن جزائرية مشهورة في توطيد العلاقات الثقافية بين بلدان المغرب العربي، منها بجاية المدينة العريقة فكان لها أثر في إنتاج العلوم الإسلامية على اختلافها من الرواية والدراية، فقها وأصولا وكلاما وتصوفا وحكمة وطبا ورياضيات وعلوم اللسان العربي أدبا، والإنتاج الأدبي شعراونثرا ونقدا وتاريخا وتراجم وشاركت بجاية بربط أعلام برباط التعارف والمقابسة، ناهيك بأنها شاركت تونس في ابن زيتون، وأبي عبد الله الخزرجي وابن الغمار بن شعيب، وقد ولي كل منهما قضاء بجاية وقضاء قيروان، على كل حال فقد كان القضاة وأهل الفتوى، ومدرسو العلوم ينتقلون بحكم الإرتباط السياسي والإداري بين تونس وبجاية، ولنا شهادة عن ذلك كله عنوان الدراية في من عرف من العلماء القرن السابعة ببجاية للغبريني[7] الذي نشره في طبعة أولى الشيخ محمد بن شنب من أعيان مدينة المدية في 1328هـ الموافق لبداية القرن العشرين، ثم أعاد طبع هذا أثر في إنتاج العلوم الإسلامية وتوطيد العلاقات الفكرية وتوحيد على مستوى المغرب العربي.

زيارة الرحالة ابن بطوطة للمدن الجزائرية

ويتحدث ابن بطوطة عن المدن الجزائرية التي زارها، منها تلمسان ومليانة ومدينة الجزائر العامرة، ومدينة بجاية، ومما يقوله عن مدينة تلمسان أن سلطانها يومئذ أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان[8]، وصادف وجود ابن بطوطة في تلمسان بل وافق وجود رسولي ملك إفريقية السلطان أبي يحيى رحمه الله وهما قاضي الأنكحة بمدينة تونس أبو عبد الله النفزاوي، والشيخ الصالح أبو عبد الله القرشي الزبيدي نسبة إلى قرية بساحل المهدية.

ومما قاله ابن بطوطة في رحلته عن مدينة بجاية : ثم وصلنا إلى مدينة بجاية فنزل الشيخ أبو عبد الله بدار قاضيها أبي عبد الله الزواوي[9]، ونزل أبو الطيب القاضي

6. نفس المرجع ص/27
7. نفس المرجع ص/28.
8. أنظر الغبريني، عنوان الدراية في من عرف من علماء القرن السابعة ببجاية. حققه ونشره محمد بن شنب، مدينة الجزائر 1328هـ / 1902م.
9. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحقيق الدكتور علي المنتصر الكتاني/ج1 ص/31.

بدار الفقيه أبي عبد الله المفسر، وكان أمير بجاية إذ ذاك أبا عبد الله محمد بن سيد الناس الحاجب[10]، وكان قد توفي من تجار تونس الذين صحيتهم من مليانة محمد بن الحجر الذي تقدم ذكره[11]. وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب، وأوصى بها لرجل من أهل الجزائر يعرف بابن حديدة ليوصلها إلى ورثته بتونس[12]، فانتهى خبره لابن سيد الناس المذكورفي كتاب عادل نويهض، ويقدم هذا الكتاب شواهد قاطعة على ما لبجاية من ثروات، فإنتزعها من يده.

وهذا أول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم [13]، ويواصل إبن بطوطة ما جرى له في بجاية فقال : ولما وصلنا إلى بجاية - كما ذكرته - أصابتني الحمى فأشار علي أبو عبد الله الزبيدي بالإقامة حتى يتمكن البرد مني فأبيت[14] ويواصل قائلا : وسرنا إلى أن وصلنا مدينة قسنطينة فنزلنا خارجها، وأصابنا مطر جود اضطررنا إلى الخروج عن الأخبية ليلا إلى دور[15] هنالك فلما كان من الغد زار إبن بطوطة الرحالة العربي الشهير إبن طنجة مدينة قسنطينة فقال : تلقانا حاكم المدينة وهو من الشرفاء الفضلاء يسمى بأبي الحسن، فنظر إلى ثيابي وقد لوثها المطر، فأمر بغسلها في داره، وكان الإحرام منها خلقا. فبعث مكانه إحراما بعلبكيا، وصر في أحد طرفيه دينارين من الذهب فكان ذلك أول ما فتح به علي وجهتي[16]، ويواصل إبن بطوطة ذكر ما رآه من مدن جزائرية فقال : وجلنا إلى أن وصلنا مدينة بونة ونزلنا بداخلها وأقمنا بها أياما ثم تركنا بها ما كان في صحبتنا من التجار لأجل التخوف في الطريق وتجردنا للسير وواصلنا الجهد[17].

ابن بطوطة في تونس

ويواصل فيقول : أصابتني الحمى، فكنت أشد نفسي بعمامة فوق السرج خوف السقوط، بسبب الضعف، ولا يمكنني النزول من الخوف، إلى أن وصلنا إلى مدينة تونس، فبرز أهلها للقاء الشيخ أبي عبد الله الزبيدي، ولقاء أبي الطيب ابن القاضي أبي عبد الله النفزاوي فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ولم يسلم على أحد لعدم معرفتي بهم. فوجدت من ذلك في النفس ما لم أملك معه سوابق العبرة واشتد

---

10. نفس المصدر، ابن بطوطة، الرحلة ص/32.
11. نفس المصدر، ص/31.
12. نفس المصدر، ص/31.
15. نفس المصدر، ابن بطوطة، ص/31.
16. نفس المصدر،ابن بطوطة، ص/32.
17. نفس المصدر، ص/32.

بكائي[18]، فشعر بحالي بعض الحجاج فأقبل علي بالسلام والإيناس، وما زال يؤنسني بحديثه حتى دخلت المدينة.

ونزلت بها بمدرسة الكتابيين وكان سلطان تونس عند دخولي إليها السلطان أبا يحيى بن أبي حفص رحمه الله.

علماء تونس

وعن علماء تونس يذكر إبن بطوطة قائلا : وكان بتونس جماعة من أعلام العلماء، منهم قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن قاضي الجماعة أبي العباس محمد الأنصاري الخزرجي البلنسي الأصل، ثم التونسي، وهو إبن الغماز، ومنهم الخطيب أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرفيع وولي أيضا قضاء الجماعة في خمس دول، ومنهم الفقيه أبو علي عمر بي علي بن قداح الهواري، وولي أيضا قضاءها، وكان من أعلام العلماء، ومن عوائده أنه يستند كل يوم جمعة بعد صلاته إلى بعض أساطين الجامع الأعظم المعروف بجامع الزيتونة، ويستفتيه الناس في المسائل، فإذا أفتى في أربعين مسألة انصرف عن مجلسه ذلك، وأظلني بتونس عيد الفطر[19]، فحضرت المصلى وقد احتفل الناس لشهود عيدهم، وبرزوا في أجمل هيئة وأكمل شارة. ووافى المسجد السلطان أبو يحيى المذكور راكبا، وجمع أقاربه وخواصه وخدم مملكته مشاة على أقدام في ترتيب عجيب وصليت الصلاة، وانقضت الخطبة والصرف الناس إلى منازلهم.

ووحدة المغرب العربي هي بمثابة أمنية غالية عند أبناء المغرب الكبير ونلمس هذا الشعور لدى العلماء والكتاب والفقهاء الذين عاشوا في العصر الإسلامي قبل أو بعد ضياع الفردوس المفقود أي الأندلس التي كانت جزء لايتجزأ من المغرب العربي فأهلها كانوا في حالة اندماج ومشاركة كلية مع أهالي المغرب العربي، مما رسخ على بساط الواقع الوحدة الفكرية التي كانت سائدة، وهناك مؤلفون مغاربة من أبناء هذه الديار وفروا لنا مجموعة من المعلومات عن جهود في استقراء خصائص المغرب العربي في الميادين الإجتماعية و الثقافية والسياسية والعلمية، والأدبية والتاريخية.

الوحدة المغربية في نفائس الكتب

وتوجد كتب سلطت الأضواء على هذه الآثار العلمية لعلماء المغرب العربي وكشف الصلات الثقافية التي كانت قائمة بين أبناء المغرب العربي منها : كتاب الصلة في

18. نفس المصدر، ص/32.
19. نفس المصدر، ص/32

تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال، وكتاب تكملة الصلة، والحلة السيراء لابن الأبار وتاج المفرق في تحلية علماء المشرق للرحالة الأندلسي البلوي، وجذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي، ومنها كتب علمية ونضرب مثلا على ذلك بعيون الأبناء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، والمفردات لعبد الواحد المراكشي، وكتاب المقتبس في تاريخ الأندلس لابن حيان بي خلف، وكتاب أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب، وكتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي، ومنها الموسوعات الأدبية والجمالية منها كتاب الحدائق لأبي فرج الجياني والدخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبي الحسن بن بسام، والمطرب في أشعار أهل المغرب لابن دحية، والمغرب في حلي المغرب لابن سعيد المغربي، والمسالك لابن فضل العمري، وزهر الآداب للحصري ورسالة في فضل الأندلس لأبي الوليد الشقندي، ونفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب لشهاب الدين المقري التلمساني.

وكل هذه الكتب تلح في مضامينها على فكرة وحدة المغرب العربي وتبدي تأييدا وتعلقا مطلقا لها، مع العلم أن تلك المؤلفات تناولت مفهوم المغرب العربي على أساس المنطقة الجغرافية الشاسعة التي تجمع تحت ضلالها أبناء أو أهل المغرب العربي الكبير وهي الأندلس والمغرب الأقصى والجزائر وإفريقيا (أي تونس وصقلية).

ومما يجب ذكره أن المعلومات الواردة في الكتب الأدبية للمفكرين الأندلسيين فهي تخص أخبار علماء المغرب العربي الذين وفدوا إلى الأندلس في سفارات سياسية وعلمية وفكرية، ووقع العكس أيضا ويحسن أن نضرب مثلا على هذا بلسان الدين بن الخطيب والمعتمد بن عباد دفين مدينة مراكش، وعبد الرحمن بن خلدون.

وأقام عبد الرحمن بن خلدون ردحا من الزمن في الجزائر وهو مولود في تونس عام 732هـ الموافق لـ 1332م، وبدأ حياته العلمية كاتبا لدى السلطان أبي إسحاق أبراهيم الحفصي ثم التحق بالسلطان أبي عنان المريني بفاس عام 755هـ (1354م) ثم إلى غرناطة عام 765هـ(1364م) وفي قلعة بني سلامة بالقرب من مدينة فرندة الجزائرية كتب ابن خلدون مقدمته المشهورة وهذه القلعة تقع في وسط مناظر طبيعية خلابة تسلب لب الناظرين بجمالها الأخاذ وإن مقام ابن خلدون في فرندة يدل على مدى روح الإخاء والمودة والتضامن التي تجمع أبناء المغرب العربي فالمفكر المغربي أو العالم المغربي لا يشعر بأي اغتراب في أي مدينة أو منطقة يحط ويشد فيها رحاله، ويتجلى التواصل بين علماء المغرب العربي في الرحلات العلمية التي يقوم بها أبناء المنطقة نفسها من مدينة إلى أخرى ولم تكن هناك حواجز ولا حدود فاصلة بين البلدان المغربية.

التمقروتي في الجزائر

ومن الرحالة المغاربة الذين زاروا الجزائر التمقروتي (1594م - 1595م) وهو من رحالة مغربي زار الجزائر ونزل ببعض المدن الجزائرية الساحلية أثناء سفره في بعثة كلفه بها أحمد المنصور السلطان المغربي لوضع حد للغازات التي كان يشنها الجزائريون العثمانيون على المغرب الأقصى، وتكررت الزيارات إلى الباب العالي، وقد سجل التمقروتي انطباعاته بعد عودته إلى تطوان في شهر نوفمبر 1951م في كتاب سماه النفحة المسكينة في السفارة التركية ومن الرحالة المغاربة الذين زاروا الجزائر كذلك العياشي (1628- 1679) وجمع انطباعاته في مؤلف خاص. ولد بقبيلة آيت عياش بالقرب من تافيلالت (ماي 1628) زار المشرق العربي وأقام بعواصمه طلبا للعلم وكانت أول زياراته للشرق في 1649م، أما الثانية والثالثة فكانتا في 1635م و1661م، وتوفي في المغرب الأقصى بسبب الطاعون في 1679م، وكان العياشي صوفيا وعالما وشاعرا.

المؤرخ الزياني في الجزائر

زار الجزائر العالم والمؤرخ المغربي الزياني (1743م - 1833م) وكان رحالة وأديبا ومؤرخا، زاو ل منصب وزير وعين لسفارة باستنبول وكان خليفة الباب العالي هي السلطان عبد الحميد (1774م - 1789م) وعين الزياني واليا على مدينة وجدة لإخماد فتنة قبيلة آنقاد التي عاشت في شرق المملكة المغربية، فهو جم الوالي أي الزياني ونهبت أمتعته، وخاف أن يحمله السلطان مولاي سليمان الذي تولى العرش بعد وفاة مولاي يزيد مسؤولية الهزيمة فلجأ إلى المغرب الأوسط أي الجزائر ونزل الزياني ضيفا عند الباي محمد الكبير بوهران، هم التحق بتلمسان وقضى مدة طويلة بين علمائها، وقصد مدينة الجزائر فوجد ترحيبا كبيرا وإكراما وتعظيما من أهلها وحكمها.

وقام برحلة ثانية إلى استنبول فمر بقسنطينة وتونس، وعاد إلى الجزائر وكانت تختلجه فكرة الإستقرار بمدينة تلمسان جوار سيدي بومدين الغوث ولكن عدل عن ذلك بسبب رغبة وإلحاح أهل المغرب الأقصى ليعود إليهم.

مات الزياني في 1833م أي بعيد الإحتلال البغيض للجزائر بثلاث سنوات بقليل، بعد حياة طويلة وأزمات ونكبات ألمت به في مشوار حياته وكتب أبو القاسم الزياني مؤلفات عديدة منها :

- الترجمان المغرب عن دول المشرق والمغرب (وهو كتاب تاريخي محض).
- البستان الظريف في دولة مولاي علي الشريف.

- رسالة الملوك فيما يحب الملوك.

- دور المذهب المالكي في الوحدة الفكرية الدينية.

وما دمنا في الحديث عن الروابط التي تجمع أبناء إفريقيا الشمالية لابد من التذكير أن مذهب مالك لعب دورا فعالا في بناء الشخصية العربية الإسلامية لأهالي المغرب العربي على المستوى الشعبي والمستوى العلمي، والمستوى السياسي.

فمن الناحية العلمية تأثر بمذهبه ابن رشد الكبير وابن رشد الحفيد، وابن العربي والإمام الغزالي والشافعي وابن خلدون وغيرهم.

وفي الجانب السياسي فرض المذهب المالكي نفسه على رجال الفكرالسياسي من الكتاب والوزراء إلى الأمراء والخلفاء، وكان عنصرا فعالا في انقلابات سياسية إصلاحية كما حدث في قيام دولة المرابطين بالمغرب.

واتجهت مدرسة المذهب المالكي في مناهج تعليمها إلى العمل على توحيد أهل المغرب العربي والأندلسيين عقيدة ومذهبا وفكرا، وإلى تعريب لسانهم وتوحيد لغتهم الدينية والعلمية، طالما أن المذهب يفرض على المسلم أن يدرس لغة العرب ليفهم القرآن العربي بلغته، ويتفهم السنة النبوية والشريعة الإسلامية بلغة الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة، وهكذا كان ضروريا تعلم اللغة العربية على كل تلميذ وطالب يريد أن ينفقه في الدين، ويدرس مختلف العلوم والفنون وأدرك الإمام مالك فضل العرب ودورهم الأساسي كشعب حمل للعالم رسالة الإسلام فحكم بردة من لعن العرب، وبخروجه عن الإسلام، وبقتل من لعنهم حدا، وقد جاء ذلك في الكتاب المدرسي الجامعي للشيخ خليل، محتضر المذهب وجامعه، الذي نال شهرة شعبية في الأقطار المغربية بجانب منظومة ألفية ابن مالك في النحو، قال عنها المثل الشعبي المغربي : "سيدي خليل والألفية الحكمة ثمة مخفية"، وفي هذا المثل تذكير صريح إلى الدور التربوي الضروري لمادتين أساسيتين في تعليم وتكوين الإنسان المغربي، سواء في المدرسة أو المسجد أو الجامعة أو الزاوية، هما اللغة العربية والفقه المالكي، وهذا ما يفسر الأهمية الشعبية التي أعطيت للقب "الفقيه" بين المؤرخ والشاعر لهم مكانتهم السامية في أوساط المثقفين، فإن الفقيه وحده صاحب التقدير والإحترام في الأوساط الشعبية كلها لأن اختصاصه يتعلق بجميع شؤون الحياة اليومية للمواطن المغربي المتمسك بدينه، والذي يرى في الفقيه المرشد والموجه والمستشار الذي يحتاج إليه باستمرار لمعرفة الأحكام والقواعد المتعلقة بشعائره الدينية أو بتجارته وصناعته أو بعلاقته الإجتماعية والسياسية.

وهكذا أصبح المذهب المالكي في الفقه الإسلامي يمثل المدرسة التربوية الوحيدة في المغرب العربي والأندلس التي تكون العلماء والأساتذة والقضاة والحكام، والإداريين والمحتسبين ورجال الدعوة والإصلاح والسياسة، وكلهم يسترشدون بمذهب مالك في العقيدة والمذهب والسلوك.

مدرسة واحدة تقوم بدورها في الكتاتيب القرآنية، والمساجد والزوايا، والجامعات في المدن والقرى النائية والقريبة في طرابلس، والقيروان، وتونس وبجاية والجزائر وتلمسان وفاس والرباط والصحراء وموريتانيا.

كانت مدرسة مالك موحدة المنهج واللغة والفكر، والمالكيون الذين سمعوا من مالك الذي عاصر جعفر المنصور وهارون الرشيد في القرن الثاني الهجري، أخذوا عنه أو عن تلاميذه هم الذين زرعوا بذور المالكية في التربة الإفريقية وقضوا حياتهم في رعايتها.

ومن فقهاء المالكية عبد الله بن ياسين 451هـ مؤسس دولة المرابطين بالمغرب في مراكش وهو ناشر الإسلام والذهب المالكي في أصقاع الصحراء والسودان، ومجدد الإسلام في إفريقية الشمالية والأندلس. ومن طلابه الذين رباهم وكونهم في زاويته بساحل الصحراء، يوسف ابن تاشفين 500هـ الذي تلقى مع زملائه في هذه المدرسة تربية إسلامية مالكية عالية.

ومما يجب ذكره أن المذهب المالكي الذي هو عنصر توحيد في المغرب العربي، استمرت مدارسه في أداء رسالتها عبر القرون، حتى أن حافظ المذهب المالكي وحجته في القرن الثامن الهجري عبد الرحمن بن عفان الجزولي يحضر مجلسه بجامعة القرويين بفاس أكثر من ألف فقيه، معظمهم يستظهر المدونة.

وحدة الفكر السياسي في مكتب المغرب العربي

في العصر الحديث إتفق أهالي المغرب العربي على وحدة المرامي السياسية لمكافحة الإستعمار الفرنسي، وذلك أثناء إستقرارهم في القاهرة في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين وأنشأ أقطاب المغرب العربي مكتبا دائما لهذا الغرض ولكن أين ظهرت هذه الفكرة...؟

- لقد تم الإتفاق بين حزب الإستقلال وحزب الشعب الجزائري وكان يمثله المرحوم الشاذلي الملكي، وحزب الدستور التونسي على أن يعقدوا مؤتمرا عاما لدراسة شؤون المغرب العربي، والبحث عن أنجع الوسائل لتنسيق الأعمال وتوحيد المكاتب في الخارج وإظهار التضامن المغربي بالمظهر اللائق لخدمة القضية التحريرية وتبيين أهدافها.

وقد استمر المؤتمر في أعماله من يوم 15 نوفمبر 1947م إلى يوم 22 من الشهر نفسه درس خلالها مختلف المشاكل القائمة واتخذ قرارات، وقد روعي في المؤتمرين لأن يكونوا ممثلين لحركة من الحركات القائمة في المغرب العربي حتى تتم للمؤتمر صبغة الإجمالية التي تعطي لقراراته قوة تأييد الأحزاب برمتها فمثلت تونس بوساطة مكاتب الدستور في القاهرة ودمشق والجزائر بوساطة مكتب حزب الشعب في القاهرة، أما مراكش أو المغرب الأقصى فقد مثلتها (رابطة الدفاع عن مراكش ومعها الوفد المراكشي) لدى رجال الجامعة.

اللبنة الأولى لتأسيس المكتب

إفتتح المؤتمر جلساته بحفلة عامة أقيمت مساء يوم السبت 15 فبراير سنة 1947م بالمركز العام لجمعيات الشبان المسلمين تحت الرئاسة الفخرية لمعالي عبد الرحمن عزام باشا، وحضرها جمع كبير من رجال العلم وزعماء الشرق وخطب فيها عزام باشا خطبة مهمة تلاه بعدها سكرتير المؤتمر الأستاذ عبد الكريم غلاب وممثل حزب الشعب وغيرهما من الحاضرين وإتخذ المؤتمر قرارات ترمي إلى تصفية الإستعمار من بلدان المغرب العربي منها :

- بطلان معاهدة الحماية على تونس ومراكش وعدم الإعتراف بأي حق لفرنسا في الجزائر.
- تعزيز الكفاح في الداخل والخارج لتحقيق الإستقلال والجلاء.

وتم الإتفاق على ضرورة الإتفاق بين الأحزاب الوطنية داخل كل قطر مع أحكام الروابط بين الحركات الوطنية في الأقطار الثلاثة لتحقيق غاية واحدة وهي الإستقلال التام، والجلاء وتكوين لجنة دائمة من رجال الحركات المغربية مهمتها توحيد الخطط وتنسيق العمل المشترك[20]، وطالب المؤتمر الجامعة بإتخاذ قرارات سياسية وإرسال لجان تحقيق إلى أقطار المغرب العربي مع دعم نشر الثقافة العربية في البلدان الثلاثة.

الفتح الرسمي لمكتب المغرب العربي

وبمجرد ما انتهى المؤتمر قام ممثلو حزب الشعب الجزائري وحزب الإستقلال وحزب الدستور التونسي بفتح دار التوحيد مكاتبهم في القاهرة طبقا لتوصية المؤتمر، وأطلقوا عليها مكتب المغرب العربي وقد اشتمل نظام المكتب على ثلاثة أقسام :

20. أنظر علال الفاسي، الحركات الإستقلالية في المغرب العربي، ص/322.

قسم الجزائر مخصص لحزب الشعب، قسم المغرب الأقصى ويتعاون فيه حزب الإستقلال وحزب الإصلاح، والقسم التونسي يشرف عليه حزب الدستور الجديد[21]، وللمكتب مدير عام ينتخبه ممثلوا الأحزاب المذكورة في جمعية عمومية لمدة سنة، وله لجان فنية متعددة، وقد أصدر المكتب عدة نشرات مهمة عن البلاد المغربية، وكان يذيع من إداعة القاهرة نشرة دورية عن الأنباء التي ترد من البلاد والتعليق عليها.

وكانت مكتبة المغرب العربي في القاهرة تشتمل على مجموعة تتسع يوميا من المؤلفات والنشرات المتعلقة بالشمال الإفريقي[22] وتحفظ القصاصات العربية والفرنسية المتعلقة بالمغرب العربي ضمن دفاتر ذات جداول وفهارس منظمة، ويقوم المكتب بإحصاء سنوي لكل ما كتبته الصحف العربية عن المغرب العربي.

وكان المكتب يقيم استقبالات وحفلات باهرة بمختلف المناسبات كما اعتاد أن ينظم ندوات صحافية كلما اقتضى الحال لذلك.

وأصبح مكتب المغرب العربي في القاهرة مطمح أنظار الدين يهتمون بالشؤون المغربية ويعملون لها، ومحج الوافدين من شمال إفريقيا خصوصا بعد أن اجتمع فيه زعماء تلك الأقطار[23] ونزل به لأول مرة بطل المغرب الأقصى الأمير عبد الكريم الخطابي، ثم الشيخ البشير الإبراهيمي، ومحمد خيضر، وغيرهم من الزعماء المشهورين.

حال وحدة المغرب العربي اليوم

وتمر الأيام والسنين وتنعم بلدان المغرب العربي بالإستقلال الوطني ورب سائل كيف حال التواصل الثقافي اليوم بين مثقفي المغرب العربي في عصر الإتصال وتطور تكنولوجيا الإعلام عن طريق الأنترنيت، فما محل من الإعراب هذا التواصل الذي هو أمنية عزيزة لدى أبناء المغرب العربي الذي يعترض المسيرة الوحدوية عقبات بفعل عوامل سياسية جعلت هذه الأمنية والأمل المنشود في اللقاء يبقى حبرا على ورق إلى إشعار آخر، فقلما تجد ندوات تجمع أبناء المغرب العربي من مثقفين سواء أكانوا مؤرخين أو أدباء أو علماء أو أساتذة لأن الحدود الطبيعية مسدودة فقبل عامين جرت ندوة اتحاد الكتاب العرب في الجزائر فحضر إلى عاصمتنا الكاتب المغربي المشهور محمد بنيس وحضر من ليبيا الشقيقة المؤرخ لخشيم، ولكن تسير الرياح بما لا تشتهيه السفن فقد وقعت معركة أدبية وسياسية في نفس الوقت بسبب حضور في الندوة

21. نفس المصدر، ص/323.
22. نفس المصدر، ص/323.
23. نفس المصدر، ص/323.

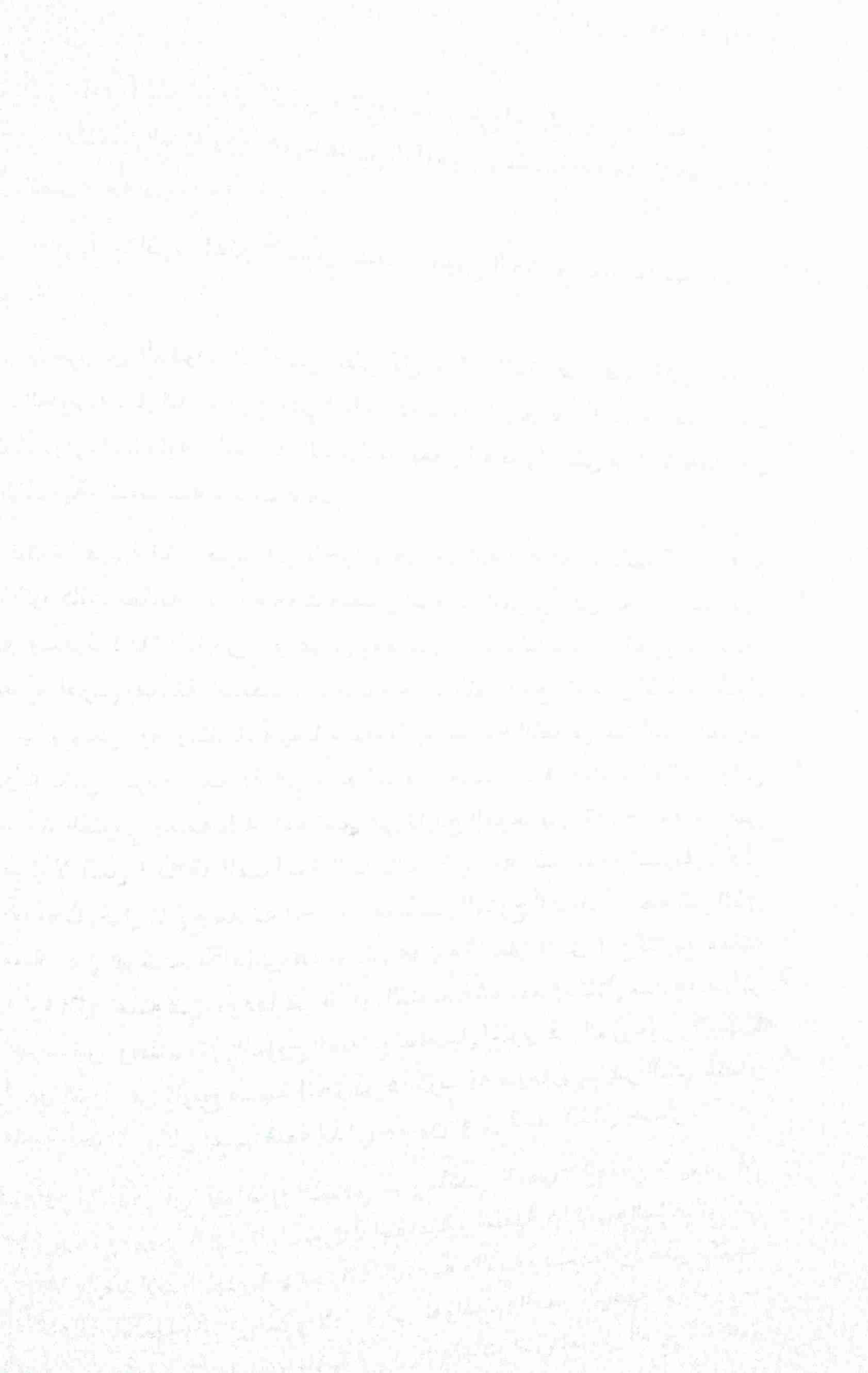
أعضاء ورئيس نادي القلم الدولي الذي اقترح تكوين فرع له، ولم يوافق عليفتح الفرع مجموعة من المثقفين الجزائريين من جملتهم الطاهر بن عائشة ومحمد الأخضر عبد القادر السائحي وعثمان سعدي

لهذا النادي بالجزائر، فاهتز الممثل الليبي المؤرخ الخشيم معارضا هذا القرار ووقف مؤيدا

محمد بنيس من المغرب الأقصى، على كل حال اتفق على فتح الفرع، وملئ إستمارات العضوية بكل هدوء فرع نادي القلم الدولي، ولكن لم يحصل فرع الجزائر بعد على اعتماد وزارة الداخلية، وليس هناك مشكل يعوق الحصول على هذا الإعتماد من الناحية القانونية والسياسية حسب علمي.

هذه الندوة العربية التي جرت في الجزائر في صائفة 1999م من شهر أوت إذا لم تخني الذاكرة كانت بمثابة ندوة جمعت مثقفي المغرب العربي على مختلف مشاربهم ومناحلهم، وشعرنا فعلا أننا في جو عربي ومغربي، وكانت لنا لقاءات أخرى في ندوة مدن المغرب العربي بمدينة القنيطرة المغربية حيث إلتقينا مع مؤرخين أشقاء وأدباء من المغرب، وتونس، وموريتانيا، وليبيا وشعرنا بالإندماج الثقافي بين أبناء المغرب العربي، وكانت لي ذكريات جميلة في هذه الندوة، حيث تشرفت بلقاء العالم الجليل المؤرخ محمد المنوني رحمه الله المختص في تاريخ الموحدين وتاريخ المغرب على العموم حيث لا أنس إطلاقا المسامرة التي كانت لي معه أثناء ندوة القنيطرة التي ألقيت فيها بحثا حول تاريخ مدينة الجزائر فسألني المؤرخ المنوني رحمه الله الذي وافته المنية عن الرحالة الألماني هاينريش فون مالتسان الذي أرخ لتاريخ مدينة الجزائر من خلال رحلته في ربوعها في القرن التاسع عشر بعد إحتلال مدينة الجزائر على يد الفرنسيين، وطلب مني المؤرخ المنوني تفاصيل أخرى عن المؤرخين والرحالة الألمان الذين كتبوا عن تاريخ مدينة الجزائر فذكرت له سيمون بفايفر الذي عاصر سقوط مدينة الجزائر وكان أسير قلعة الداي حسين أوقل قصر الداي حسين.

وأخيرا أود أن أذكر أن التواصل الثقافي بين مثقفي المغرب العربي لا يمكن أن يتحقق بدون توسيع مجال تبادل المنشورات الثقافية والعلمية كالكتب والمؤلفات التي صدرت حديثا والمجلات الثقافية والجرائد اليومية والأسبوعية علاوة على تكثيف اللقاءات والندوات العلمية والتاريخية والأدبية في العواصم والمدن الواقعة في المغرب العربي فهذه الأمور تعمق الروابط العلمية وتزيل العقبات التي تعرقل السير الحسن لمسيرة المغرب العربي وتواصل المثقفين بعضهم مع بعض والسلام.



الفصل الثاني

المدن الجزائرية القديمة في العهد القرطاجي

الأثرالقرطاجي في المدن الجزائرية القديمة

توجد وثائق عديدة مرتبطة بمعتقدات السكان القدماء الذين كانوا يقطنون بمدينة كاستيليوم تيديتانوروم الواقعة بمدينة قريتا، وبعض الآثار تعود إلى الحقبة البونية الجديدة ويدعى موضع المدينة اليوم بالخنق. وقد عثر بالقرب من جبل تيديس على مجموعة من الآثار العمرانية، بعضها تم بناؤه في وسط الصخر وقد أشار إلى ذلك السيد لوكلي ولكن هذا البناء المكتشف لا يتماشى مع شكل البناء الروماني ولا البوني [1]، ومن خلال قطع الأثاث الجنائزي الذي عثر عليه، وكذا التماثيل المصنوعة من الطين المشوي، والفخار الموجود. كل ذلك يؤدي إلى الإعتقاد بأن تاريخ هذه الآثار لا يتجاوز القرن الأول ق.م، وهو يقصد معبد بعل حمون - ساترون. مع العلم أنه عثر على خمسين أنصاب ندرية بعضها يعود إلى حقبة بونية جديدة وبعضها الآخر ينتمي إلى العهد الروماني، وقد اكتشفت في عدة مواقع بهضبة في جبل تيديس[2].

وفيما يتعلق بالنقوش المكتوبة على الأنصاب التي عثر عليها في المقبرة الشرقية، فيها نقوش ندرية قرأها ج . فيفريي "بعل حمون ... ندر لتانيت"، بفضل هذه النقيشة يمكن أن نتعرف على العبادة التي كانت سائدة في منطقة تيديس[3]، وكان يعبد فيها بعل حمون وتانيت.

1) - Voir M - Leglay, « saturne africaine », mou II , p 32

2) -Voir M - Bertier et M - Leglay, pp 52 - 55 - ab

3) -Dessou, Steles N° 11- 12

بعل حمون في أوجل UZEL

ذكر لنا ستيفان قزال أن مدينة أوجل عثر فيها على نصب يحتوي على نقيشة مكتوبة(4)، وهو نصب ندري قمته مثلثة الشكل طوله 0.50م ، وعرضه 0.32م مع إهداء على النصب، وهو يبين لنا وجود معبد على شرف بعل حمون الذي جاء ذكره في النصب بهذه المدينة القديمة وهي أوجل .

الآثار البونية في سيغوس SIGUS

حسب ما أورده ستيفان قزال(5) (GSELL)، فإن المدينة القديمة سيغوس كان يوجد فيها معبد بوني يعبد فيه بعل وكما يشهد على هذا النصبين الندريين، وفيهما نقوش مكتوبة والتي عثر عليها في نواحي المدينة وواحد من النصبين يمثل شكلا مستطيلا مع قمة مثلثة،وفي الواجهة نجد هلالا ونصبا بونيا مكتوب يتكون من 5 أسطر حيث أن النص درسه فيفريي، جاء فيه ذكر الإله بعل حمون(6) وهذه النقشية المكتوبة بالبونية تعود إلى أواسط أو بداية القرن الثاني ق.م .

آثار تيغزيرت تاقصبيت (يونيوم) IONIUM

حسب ما أورده ستيفان قزال في الورقة السادسة رقم Gsell - feille 6 n°35-34 فإن الموقع الثري الموجود في تيغزيرت يقع على ساحل البحر، حيث أصبح حي الميناء في العهد الروماني وقد استخرج من هذا الموقع عدة أنصاب مؤرخة تعود إلى القرن الأول قبل أو بعد الميلاد والذي يؤدي إلى الإعتقاد بأنه كان يوجد معبد منذ العهد البوني(7). وعثر في تاقصيبت على أربعة أنصاب بونية جديدة بالقرب من الكنيسة المسيحية، وفي ناحية سوق أهراس عثر على نصب منقوش وهو عبارة عن نقيشة بونية جديدة، ولا يدل هذا النصب المكتشف حسب ما ورد في النص على أن عبادة بعل حمون كانت قائمة في ناحية سوق أهراس، لأن بعل مذكور في النص الندري(8)

---

4)-Voir Gsell Stéphane, Atlas Archéologique de l'Algérie, Feuille 17 (Constantine) n°99, et voir philipe Berger B.A.C 1899 P.CL II = RE n° 783

5)- Id Ibid A.A.A feuille 17 (Constantine)

6)-Voir Bouchenaki. M-recherches punique en Algérie ،Richer Punique Nel méditeraneo collocioIn،

7)- Voir Sidi Ahmed Ben et P Fevrierique ،recherches et travaux en 1968 b a tv 197 p24 fig 13

8)-Voir Alia Ben Younes ، la pésence punique en pays numide ، p272 et voir aussi P. Gravault ، Etudes sur les ruines romaines de tighzirt ، bulletins arche Afri Facs2

آثار مدينة قالمة

فيما يتعلق بمدينة قالمة، أورد لنا ستيفان قزال في كتابه الهام "الأطلس الأركيولوجي للجزائر في الورقة 9 بونة[9]، فقال قزال أن المدينة العتيقة وهي قالمة تحتوي على معبد يعود إلى ما قبل الإحتلال الروماني وما يشهد على ذلك هو الأنصاب الأبغرافية المكتوبة ولكن موقع المعبد الذي كان قائما، لا نعرف أين بالضبط مع العلم أن الأثاري رافوازيي أشار إلى أن مجموعة من الأنصاب فيها نقوش جديدة عثر عليها في الجهة الغربية الشمالية، وفي غرب قالمة، وفي هذه الأنصاب نقوض بونية جديدة اكتشفت على بعد 500م من واد الخون وعثر في قالمة على مجموعة من النصاب الندرية قام بدراستها شابو الفرنسي، وبعد عام 1916 جرت اكتشافات لأنصاب بونية جديدة عثر عليها في قالمة، وهي أنصاب صغيرة الحجم[10]، وقام شابو بدراسة هذه الأنصاب ومنها النصب الذي شرحه في الجريدةالأسياوية رقم journal Asiatique n°15 ودرس شابو نصبا في الجريدة الأسياوية لعام 1916 ونشرها في المجلة السالفة الذكر لنفس السنة رقم 500-501 وشرحه، ودرس أيضا في الجريدة الأسياوية لعام 1916 رقم 20 ص 50 من البونية الجديدة وشرحه بالفرنسية[11]

ودرس شابو أيضا في الجريدة الأسياوية لعام 1916 رقم 21 د ن 502، وهو نص مكتوب بالبونية الجديدة، كما درس كذلك نصوصا بالبونية الجديدة لعام 1916 رقم22-23-24-01-25 بونية جديدة، ودرس أنصابا تحمل الأرقام 26-27-27-28-31-32-33-34-35، وكلها مكتوبة بالبونية الجديدة، وقد شرح كل الكتابات التي كتبت بالبونية وترجمها إلى الفرنسية وقدم شرح نص نصب رقم 35 جون فيفريي ويتعلق بإهداء إلى بعل حمون وهو فدية[12]. أما النصب الندري رقم 38 فوجد شابو صعوبة في شرح ما جاء النقيشة حيث أنه عبر عن صعوبة قراءة النصب الندري وجاء فيه ما يلي " جود بعل ابن حنبعل وقدم متمنيات والده" ومما يجب ذكره في هذا المقام، أن مدينة قالمة في العهد الروماني اشتهرت تحت اسم كالما، وجاء ذكرها في النقوش اللاتينية. وحسب الباحث جودا فإن اسم كالما وجد مكتوبا على بعض نقوش الكتابات البونية الحديثة التي عثر عليها في قالمة، وعددها يفوق الأربعين نقيشة، غير أنه بعد فك رموز كتابتها وقراءتها تبين أن اسم المدينة القديم يبدو ساميا، حيث لا يستبعد أن

---

9)Voir Gsell Atlas archéologique de l'Algérie Bone feuille 9146 - 253

10)-Voir Ravoisie Exploration scientifique de l'Algérie in beaux arts p21

11) Voir Alia ben Younes ،la présence punique en pays numide، p 224-225 et voir aussi Chabot j.a 1916 n°20 p50

12)- Id Ibid , p 224- op ci

يكون مالكا[13]. ويذهب الباحث جودا أن إلى أن اللاتينيين فيما بعد قرروا استعمال الإسم مقلوبا فأصبحت المدينة تعرف بعد ذلك باسم كالما بدلا من مالكا وهو الإسم السامي للمدينة، ومن جهة أخرى يظهر أن قالمة بقيت تحتفظ بعاداتها وتقاليدها البونية ومؤسساتها الدستورية حتى في فترة الأمبراطور الروماني تراجان، وقد عثر في الناحية العلوية من المدينة على عدة قبور سردابية بعضها مزودا بآبار مستطيلة شبيهة بتلك التي عثر عليها في المحطات والمستوطنات الفينيقية الموجودة على سواحل المتوسط، وعثر على بعض القبور خارج السور الروماني[14]، وتذكر الكتابات التاريخية والنقوش اللغوية أن مدينة مداورش، كانت ضمن إطار مملكة صفاقس خلال نهاية القرن الثالث ق.م ثم آلت بعد ذلك إلى ماسينسان وأحفاده من بعد ذلك، وسجل يوغرطة في سيتول بالقرب من قالمة، تمت دراستها على يد المختصين الفرنسيين، وتوجد أنصاب كلها صورتها في إطار فرقة البحث التي أرأسها وعنوانها "الرصيد الحضاري البوني الفنيقي في الجزائر"،وهناك أنصاب ندرية أخرى هي الآن موجودة في المتحف الصغير الذي أنشأته الجمعية التاريخية لمدينة قالمة في بلدية حمام المسخوطين، وقد اطلعت عليها وصورتها وهي عبارة عن أنصاب ندرية عليها نقوش وكتابات مكتوبة باللغة البونية جرى تصويرها على يدي، مع العلم أننا قمنا بزيارة ميدانية للآثار البونية في ناحية قالمة برفقة مدير الآثار ورئيس متحف بمدينة قالمة (السيد مراد)، حيث زرنا موقع بوصبع الذي يبعد عن مدينة قالمة بثمانية كيلومترات، والموقع يحتوي على مقبرة بونية ولكن الحفريات فيها لم تجر بعد، وتوجد بقايا خزفيات مرمية على الأرض، وهذا يدل على مدى الإهمال الذي تعانيه الآثار البونية بهذه المنطقة.

وتوجد في بلدية قلعة بوصبع بناحية قالمة بعض البقايا الأثرية، وزرنا في إطار فرقة البحث السالفة الذكر موقعا أثريا بونيا آخر، وهو موقع عين النجمة وجرى اكتشاف عن طريق الصدفة نصبين لهما طابع ديني، وقد أزيل عنهما التراب كلية لإظهارهما وذلك بتعرية النصبين، وهذا ما قاله لنا السيد مومن مدير المركز الثقافي، وقد صورتهما وللتأكد من قيمة هذا الإكتشاف الثري الهام قمنا بزيارة الموقع الأثري البوني لعين النجمة الذي توجد به مقابر بونية ما بين سهلين، وكدا مواقع ذات طبقات رومانية وبونية في الأسفل التي لم يتم حفرها بعد، وقام بمسح الموقع الأثري السيد محمد البشير الشنيتي والسيد محمد أورفلي .

13) Voir J.G Février; journal asiatique, 1967, p 63

14) - انظر د. محمد الصغير غانم المملكة النوميدية و الحضارة البونية ص 151، و انظر ايضا ديودور الصقلي الذي عاد إليه د. غانم (121) من نفس المرجع ص 152 .

آثار القصيبة

هناك آثار عثر عليها في القصيبة وهي سيفيتاس بوبتسيس، وقد أورد ستيفان غزال في الأطلس الأركيلوجي في الورقة 19 رقم 37 أنه عثر في القصيبة على أنصاب مكتوبة بالبونية الجديدة وقد تم اكتشاف أنصاب ندرية أخرى في عام 1936 وتم العثور عليها في معبد موجود في الهواء الطلق بمنطقة جبل التواتي[15]، ووجدت أنصاب عديدة منقوشة عليها كتابات بالبونية الجديدة في القصيبة وهي تنتمي إلى المعبد سالف الذكر، ولكن لم تتم الحفريات في هذا المضمار بشكل منهجي .

آثار عنابة

حسب ما أورده ستيفان غزال في الأطلس الأركيولوجي للجزائر القديمة الورقة 59، حيث أورد أن عبارة بعل حمون كانت موجودة في المدينة الملكية هيبون أي عنابة "هه" عبارة بقيت مستمرة في الممارسة كعبادة حتى العهد الروماني[16]، كما هو الحال في أغلب المدن أو المداشر في البلاد النوميدية على الخصوص وفي إفريقيا الشمالية على العموم، ولكن لا يوجد أي أثر إيكولوجي أي حفريات أثرية تسمح بالتعرف على معبد ما قبل العهد الروماني للإله بعل حمون[17]، ما عدا المعبد ماتورتا الذي شيد في العهد الروماني على الهضبة المسماة اليوم كنيسة القديس أغستين ويرجح أن المعبد ساتورن لا يمثل سوى مرحلة ثانية من تاريخ هذه العبادة، وقد عرض معبد أنشأ في الهواء الطلق، وإن عبادة بعل حمون في الحقيقة لم يتم التعرف عليها إلا بفضل اكتشاف بعض النصاب المكتوبة بالبونية الجديدة مع العلم أن النصاب المتميزة بأشكالها في ميدان الركوم والتماثيل والكتابات خلال العهد ما قبل وصول الرومان، فهي قليلة وتتمثل ثمانية أنصاب[18]، وفي هذه الأنصاب المتميزة نلاحظ وجود. شكل الآلهة تانيت مثلما يتجلى ذلك في النصب الثالث المصنوع بالرخام وكذلك في النص الرابع أين يوجد رسم تانيت ومعها صولجان و في النصب الخامس والنصب السادس يلاحظ وجود الهلال ورسم الآلهة تانيت أيضا، أما النصب الثامن فتوجد فيه أربعة أحرف بونية لا غير[19] .

---

15) - Voir Gsell Atlas archéologique feuille 19. 146-253 voir aussi G felegerolles les fouilles à Ksiba par la société archéologique de souk Ahras 2 congres de société d'Afrique du nord in revue africaine 1936 p 435 J.G Guey ksiba

16) - Voir Gsell, Atlas archéologique de l'Algérie, Bonne feuille 9, n°59.

17) - Voir Leglay Monum tip p 434

18) - Id Ibid p 434

19) -Voir Alia ben Younes .La présence punique en pays numide . p 232

آثار سكيكدة (روسيكاد)

قد مارسوا العبادة في فترة ما قبل العهد الروماني أي
يبدو أن السكان القدماء لروسيكاد قد مارسوا العبادة في فترة ما قبل العهد الروماني أي
يبدو أن السكان القدماء لروسيكاد أصاب ندرية رومانية، وفي العهد المتميز بظهور قبل ظهور عبادة ساتورن التي تشهد عليها أصاب ندرية رومانية، وفي العهد المتميز بظهور البونية الجديدة ما بعد سقوط قرطاجة، عثر على نصبين ندريين[20]، ففي النصب الأول نجد رسم تانيت مع الصولجانV ، وفي النصب الثاني نجد طرفا من النصب مع تانيت والنخلة، وعثر في تيكباب، وهي تقع ما بين الخروب وقطار العيش، ناحية قسنطينة، حيث عثر على نصب ندري وفيه رسم لتانيت مع الصولجان وعلامة [21]V .

ويعد ميناء ستورة Stora الذي يقع على أربعة كيلومتر إلى الغرب من مرسى سكيكدة وهو مكمل لهذا الميناء؛ و بخاصة في العهد القديم، والرأي السائد أن إسم المدينة ستورة مشتق من أصل سامي وهو مأخوذ من إسم إلهة قابلها اللاتينيون بالإلهة جونون Junon وربما تكون عشتارت السامية الشهيرة[22].

آثار دلس

في دلس عثر على أنصاب ندرية تعود إلى العهد البوني الجديد وكان اسمها (روسكوكورو RUSCUCCURU) فيها أنصاب ندرية تعود إلى العهد الروماني فقد اكتشف كما سلف ذكره نصبين ندريين يعودان إلى الفترة البونية أي بعد سقوط قرطاجة في 146 ق.م حسب لوكلي فإن النصب الأول يوجد فيه رسم لتانيت مع الهلال ورمانة ونحت في الواجهة باب منمق، وإن هذا النصب يعود إلى حقبة استقلال الممالك الوطنية في بلاد المغرب أو بداية العهد الروماني[23]، أما النصب الثاني فهو يحتوي على رسم لتانيت أيضا .

آثار كاب جانيت

في كاب جانيت عثر على نقشين بونيين يتعلقان بالمعتقدات الدينية للأهالي القدماء لهذه المدينة، مع العلم أن هناك ذكر لموقع جانيت في الأطلس الأركيولوجي في الورقة 05 الجزائر رقم Gsell A.A.A feuille 5.57، أما النقيشة الأولى فهي

---

20)- Id Ibid p235, voir aussi J.Bosco notes au sujet d'un nouveau topique romain des environs de Constantine In B a n° 3692 fig p 93 situation de tikbab.

21)- Voir Leglay (Saturne Africain) in monu 2 p 303

22)- نفس المرجع. غانم: معالم التواجد الفنيقي في الجزائر. ص: 213 .

23) - Id Ibid p 303

مزدوجة ليبية بونية وتتكون من ثلاثة أسطر مكتوبة بالبونية، استطاع فيفريي قراءة كلمة رب في السطر الثالث واسم عبد ياشون في السطر الثاني ولفظ الكاهن الكبير في السطر الثالث وأن مهام الراهب الكبير تدل على سلطة دينية لديه فإن الإله المعبود غير معروف مع الأسف[24]

آثار إيكوسيوم

وفي إيكوسيوم التي ذكرها قزال ستيفان في الورقة الخامسة الجزائر رقم1 n° 5 Gsell A.A.A feuille 5 n° 11، وعثر في موقع مدينة إيكوسيوم على نصب غير مؤكد بالضبط[25]، ولكن وجد في الجزائر وهذا النصب شكله مثلث في الجهة العليا وفيه عمودان وهلال ورسم يشير إلى الإلهة تانيت مع الصولجان ويوجد في النصب صورة لصاحبة الإهداء واقفة ذات شعر قصير ومجعد، واليد اليمنى موضوعة على الصدر، واليسرى تقبض على الإناء وهذا النصب يعود إلى عهد ما قبل الإحتلال الروماني، ولكن على المختصين تحديد تاريخ مضبوط للنصب نفسه.

آثار تيبازة

عثر في تيبازة - هذه المدينة العتيقة - على أنصاب نيوبونية أي بونية جديدة: اكتشفت في مواقع عديدة بالمدينة ونواحيها. إن العقيد برادير الفرنسي le colonel Brader اكتشف عن طريق الحفريات عدة أنصاب بونية جديدة تمثل مشاهد قربان[26] مع أواني فيها بقايا الحمام، وهي عبارة عن مجموعة من الأنصاب الندرية تبين وجود معبد ما قبل الإستعمار الروماني وأن عدد النصاب الندرية المكتشفة بمنطقة تيبازة هو 12 مثلما يرى ستيفن قزال، في الأطلس الأركيولوجي في الورقة الرابعة رقم 38 في المرجع المذكور أعلاه، ضمن هذه الأنصاب يوجد في أعلى النصب الثاني هلال مع صحن وصورتين لشعار تانيت والنصب الثالث يوجد فيه شعارين لتانيت مع الإهداء[27] والنصب الرابع يوجد فيه هلال مع صحن وشعار لتانيت مع نحت امرأة على النصب لم يبق منها سوى رأسها[28] كما عثر على نصبين من الحجم الكبير في البوابة الشرقية لمدينة الجزائر ويوجد شعارين كبيرين لتانيت وفي

---

24) - Voir J.G février note sur la publication de J lecerf sur deux inscription l'une libyco punique et l'autre trouvé au cap djanet ance de nov 1953, p 14

25) - Leglay bibliographie libyca 2 1954, p 485

26) - voir Gsell Atlas archéologique feuille 4 (cherchel n°38 même auteur Tipasa ville de la Mauritanie césarienne 1894 p 303 et M leglay Saturne africain monument 2 p 313

27) - Id Ibid 309-310 fig 01

28) - voir Gsell Id Ibid 309-310.

قربان[29] وأن هذه الأنصاب يمكن إعادة أسفل النصبين شخصيات جاءت للقيام بتقديم تاريخها في نهاية عهد إستقلال الممالك النوميدية في بلاد المغرب، وتشهد على وجود معبد بوني جديد néopunique، حيث أن العبادة التي كانت تعبد لم يوجد حلا لها بعد.

أنصاب شرشال " يول القديمة "

فيما يخص يول القديمة، واسمها في العهد الإسلامي "شرشال"، وكانت تدعى في العهد الروماني قيصرية Caesarea ويوجد نصب منقوش حيث أن V أعلى قاعدة النصب مكسرة وفيها كتابة بونية جديدة مع شعار تانيت وصولجان وغصنين يرمزان بعلامة V،أما الكتابة المنقوشة الموجودة على النصب فهي موجودة في العلى ومنقوشة بالحروف البونية الجديدة[30]. وهناك مصاعب متعلقة في هذا الشأن وهذا النصب عبارة عن إهداء مكتوب بالبونية الجديدة "إلى الإله بعل" وتنتهي بالعبارة "وسمع صوته فليباركه[31].

وهناك مجموعة كبيرة من المؤرخين يرون أن إسم يول Iol ~التي هي شرشال الآن~ مشتق من أسماء إحدى الألهة الفنيقية وجاء ذكرها في رحلة سيلاكس بإسم إيوليو [32] (Ioliou) التي أعيد تأسيسها على يد الفنيقيين.

ومن مظاهر بقيا الحضارة القرطاجية في مدينة يول وجود نقش مكيبسا وهو مكتوب بالبونية؛ كما عثر على قرص مدور أثناء توسيع ميناء شرشال..وعلى دمى فخارية بونية وبعض الجرات والكسر الفخارية ذات الطابع القرطاجي.[33]

وأثناء الحفريات التي أجراها لاسوس Lassus في الجزيرة المقابلة لمدينة شرشال (Joinville) في عام 1960 اكتشفت عدة مسكوكات لملوك موريطانيين علاوة على كسر فخارية إيبيرية وإيطالية وبونية، وبعد دراسة نتائج هذه الحفرية البونية ؛ أعطي تاريخ القرنين الرابع والثالث ق.م لسكنى الجزيرة المشار إليها [34]. وكما هو لوم أن يول كانت عاصمة يوبا الأول ويوبا الثاني.

---

29) - voir Alia ben Younes ،présence punique en pays numide ، p276-277 et voir J Laus l'archéologie d'Algérie en 1958 libyca 7-1959 p 274

30)-voir P G auckler Musé archiologique de l'Algerie, Musé de Hrel 1895,P: 80-90 n°4 id

31) - voir Gsell ،le chanps de steles de saint le، B.A.C.1899pp rapport sur les decouvertes faites en algerie, séance du 15 janvier 1901 B.A.C.1901 p:cl2.

32) - نفس المرجع ص: 184.

33) - نفس المرجع ص: 184.

34) - نفس المرجع ص: 184.

آثار أرزيو القديمة "بورتوس مكنوس" Antique Portus Magnus

إن أصل مدينة بورتوس مكنوس يعود إلى العهد البوني وقد جرت فيها حفريات جزئية غير كاملة وهناك شواهد مرتبطة بالحياة الدينية للسكان القدماء، عثر على معبد في الهواء الطلق في شمال المدينة الرومانية مكنيس، ما بين المدينة والبحر، وأشار بل تعرض إليها ستيفان قزال في الأطلس الأركيولوجي في الورقة 21. مستغانم Gsell A.A.A.feuille n° 21.staganem وتمتد على سهل ساحلي عرضه ما بين 60م/ 800م، وهذا المعبد المكتشف غير مغطى وموجود في الهواء.الطلق في طريق وهران - مستغانم، ولقد اكتشف في القرن 19 وكان يدعى حقل النصاب من قبل ستيفان قزال [35]، ولم يشهد هذا الموقع أي حفريات علمية

ومنهجية، وإن الحفريات التي أجريت على يد هوات، أدت إلى اكتشاف مئة جرة في عمق 0.40م-0.50م .ووجدت في عين المكان إحدى عشر قطعة في حالة جيدة للحفر وخمس منها مازال فيها رماد وعظام محروقة[36]، ومن الأنصاب التي اكتشفت في بورتوس مكنوس خمسة منها في حالة جيدة لكن تصعب قراءتها فلم يستطع فيليب برجي قراءة النص المكتوب في أسفل النصب، والذي ينتمي إلى البونية الجديدة. وفي النصب الثاني هناك رسم تانيت مع نقيشة بونية جديدة وفي النصب الثالث يلاحظ وجود رسم لشخصية صاحب الإهداء وهو يحمل رمانة، أما النصب الرابع ففيه رسم هلال وصحن مع نخلتين مع كتابة باللغة البونية الجديدة ولكنها غير مكتملة[37].

فيما يخص الجرات التي عثر عليها في أرزيو القديمة بورتوس ماكنوس، قام ديماغت Demaegt بنشردراسة حول إثنى عشر جرة أغلبها لا يمثل حقبة محددة ولكنه بنشر دراسة حول إثنى عشر جرة أغلبها لا يمثل حقبة محددة ولكنه في الترتيب رقم 4 وجد الباحث سالف الذكر عنصر مقارنة في الشكل الثامن والثلاثين حيث وجد أنه يعود للقرن الثاني قبل الميلاد، أما الشكل الذي يوافق الشكل رقم 22 الذي درسه بييرسانتاس الذي يمكن إرجاعه كذلك إلى القرن الثاني ق.م وكل هذا يؤدي للإعتقاد إعتمادا على أشكال الجرات المحفوظة، فكل هذا يؤكد وجود معبد ما قبل العهد الروماني كان قائما في " سان لو Saint Leu " كان يرتاده المتعبدون في القرن الثاني قبل الميلاد، ولكن حسب المعلومات المتوفرة يستحيل تحديد الآلهة التي كانت تعبد في هذا المعبد المقدس.

---

35)-G. Doublet Musée d'Alger n° 890 p 64 pl 3 - 2

36)-G. Doublet Musée d'Alger n°890 p 65 pl 3-5

37)-voir Alia ben Younes ،la présence punique en pays numide.

وذكر ميناء بورتوس ماغنوس وهي مرسى الدجاج اليوم في النقوش اللاتينية، ولم يعثر في هذا إلا على بقايا المدينة الرومانية التي يعتقد أنها حلت محل المدينة البونية، ويظهر ذلك جليا من خلال النقوش البونية الجديدة Néopunique التي عثر عليها في عين المكان، والملاحظ أنه إكتشف في بورتوس ماغنوس على معبد بوني يشبه ما هو موجود في المدن الفنيقية البونية في بلاد المغرب القديم، وقد عثر في أرضية هذا المعبد على جرار عديدة مملوءة برماد عظام الأطفال، وليس من المسلمات الإعتقاد بأنهم أحرقوا كأضاحي للإلهة تانيت أو لآلهة سامية أخرى؛ لأنه ليس هناك دليل قاطع يثبت وقوع ذلك فربما أنهم أطفال ماتوا بصفة طبيعية وجرى وضعهم في تلك القبور الجنائزية[38].

الأندلسيات

لايوجد أي أثر على وجود الفنيقيين في مدينة وهران المعروفة في العصر الإسلامي والعثماني، ولكن هناك آثار تعود إلى ما قبل التاريخ في جهة تروجلوديت التي تقع فيها كهوف قديمة،والتي عثر فيها على صناعة حجرية وعظمية[39].

وفي غرب مدينة وهران توجد جزر الأندلسيات حيث عثر في شاطئها الجنوبي على أقبية محفورة في الصخر مع بقايا فخار بوني قرطاجي تعود إلى القرن الرابع والثالث قبل الميلاد، وكانت هناك علاقة قائمة بين آثار الأندلسيات البونية[40]، وتلك المجودة في إسبانيا وجزر البليار، وأنواعها لاتشبه كثيرا فخار قرطاجة وأوتيكا، وفي بعض النقود البونية في قبور الأندلسيات هناك أسماء قادس وسيكس الإسبانيتان[41]، ويروى أن هناك نصب تذكاري يحمل كتابة بونية لازالت لم تفك عبارات كتابتها حتى يومنا هذا[42].

مرسى مداح

إن حفريات عالم الآثار الفرنسي فويمو Vuillemot في مرسى مداح قد أظهرت نتائج على كسر فخار دولاب الخزف البسيط ، والفخار النموذجي الذي يعود إلى القرن السادس قبل الميلادن مما يدل على أن مرسى مداح أقام فيها الناس في تلك الفترة السالف ذكرها، وهذه المعلومات وردت[43] في كتاب فويمو "سلسلة المراكز البونية الوهرانية" .

38)- نفس المرجع ص: 187.

39) - نفس المرجع ص: 187.

40) - نفس المرجع ص: 188.

41) - نفس المرجع غانم ص: 188 ولمزيد من التفاصيل انظر: Mercier, B.S.G.A.O.1985? P:/335

42) - نفس المرجع ص: 188.

43) - نفس المرجع ص: 188 ولمزيد من التفاصيل لابد من العودة إلى G. Vuillemot: Reconnaissance aux: echelles puniques d'Oranie. Pp: 283 et suite

جزيرة رشقون

تقع جزيرة رشقون عند عرض الخليج الذي يصب فيه واد التافنة ولاتبعد عن الشاطئ إلا بمسافة كيلومترين (2كلم) فقط، ولاتزيد مساحتها على خمسة عشر هكتارا وأجريت حفريات في رشقون على يد الباحث فويمر في نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات من القرن العشرين، وجاء بعدها حفريات البعثة الألمانية بمشاركة مصلحة الآثار الجزائرية في السبعينيات من القرن العشرين، ومما يجب ذكره في هذا الأمر أن حفريات فويمو كشفت عن مراكز تجمع سكاني يتوسط المرتفع الموجود في الجزيرة، علاوة على وجود مقبرة بونية (قرطاجية) ثبتت بعد دراسة الفخار العتيق الذي عثر عليه في الطبقات السفلى، وأعتقد أنه لايمكن أن ننعته بأنه فخار إغريقي بصفة قاطعة؛ لأن التشابه في الأشكال ليس من المسلمات في فن الفخار من الناحية العلمية.

على كل حال كانت رشقون أقدم موقع فنيقي في غرب المتوسط ولها دور الرابط الفنيقي من خلال المميزات التي ميزتها من ناحية المدافن بأدراج والفخار والمجوهرات (44)، فإنها لعبت دور الوسيط كما سلف ذكره؛ لكن بشكل محدود زمنيا، وكما هو معلوم أن هذه الجزيرة متربعة على مشارف أبواب فضاء مضيق جبل طارقوهو عالم يحدده تاراديل Taradelle كفضاء أو جو ثقافي(45) Une aire culturelle مرتبط مباشرة بفنيقيا، أما فيما يتعلق بالمسار الذي اتبعه مؤسسوا رشقون أن هنك احتمال أنهم مروا بالجزيرة الإيبيرية (إسبانيا الحالية) وليس عن طريق الشواطئ الإفريقية (46) وكل المنطقة الوهرانية وليس رشقون فحسب؛ لها بعض الآثار المادية التي تربطها بالضفة الشمالية من جبل طارق(47).

ويبدو أن هناك تقارب بينها وبين تلك التي وجدت في معطية وصقلية وأوتيكا وقرطاجة بتونس(48).

ومن خلال المقارنة تم تحديد تاريخ بداية الإستقرار في الجزيرة إبتداءا من القرن السابع قبل الميلاد ثم تواصل بعد ذلك حتى القرن الخامس قبل الميلاد، وبعد هذا التاريخ حصل إنقطاع في الجزيرة ولاسيما من ناحية المصادر المادية يعتقد أنها هاجرت بعد ذلك(49)

---

44) - Voir Alia Krandel Benyounes: La présence punique en Numidie . p: 461.

45)- Id Ibid p: 461.

46)- Id Ibid p: 461.

47)- Id Ibid p: 461.

48)-G.Vuillemot : Reconnaissance aux:echelles punique d'Oranie.p:122.

49) - غانم محمد الصغير: معالم التواجد الفنيقي في الجزائر. ص: 192.

ويعتقد أن لإسم رشقون الحالي مشتق من إسم فنيقي وهو رأس سيفان ، أوخليج سيغا، في المحطة الممتدة التي توجد فيها الجزيرة والتي عثر فيها على آثار مادية تعود إلى تاريخ قديم جدا وهو القرن السابع قبل الميلاد، وهذا العهد يتميز بفخار ذي شكل عتيق منها الجرات ذات مسند jarres à paulement ومرمدات urnes ومشاجب حافتها مزخرفة ، وجرى تعايش لهذه الأدوات مع الطين المشوي الموجود بكثرة ، وكل هذا يدل على حظور في جزيرة رسقون سكان من فجر التاريخ البربري حيث مازالوا يستعملون تقنيات ذات تقليد يعود لفترة ما قبل التاريخ في جنوب الجزيرة.

وجزيرة رشقون تعتبر من أقدم المحطات الأثرية البونية التي عثر عليها في الشواطئ الجزائرية إعتمادا على الفخار الموجود فيها العائد إلى منتصف القرن السابع قبل الميلاد، مع العلم أن علاقة رشقون بمستوطنات شبه جزيرة إيبيريا البونية كان أقوى[50] منه بعلاقتها بقرطاجة وذلك نظرا لقرب المسافة بينهما وربما لأسباب أخرى مازالت مجهولة.[51]

سيغا

تحدث المؤرخ بلينيوس الكبير عن مدينة سيغا مشيرا على أنها تقع على الشاطئ الإفريقي المقابل لمدينة مالقا الإسبانية[52]، وجاء ذكر سيغا مع قائمة المدن القرطاجية الساحلية التي تضمنتها رحلة سيلاكس خلال القرن الرابع قبل الميلاد، ووصف البكري سيغا تحت أرسقول، وقال أن السفن الصغيرة تصعد من البحر مع مجرى التافنة حتى المدينة ، ثم يضيف بأن المسافة التي تفصلها عن البحر تقارب ميلين، والبكري كان مخطئا في إعتقاده أن سيغا هي رشقون فمن الناحية التاريخية والجغرافية فهو غير صائب على الإطلاق ، لأن رشقون التي ذكرها البكري لاتعني سيغا كإسم علم.

آثار تبسة

هناك غموض حول بداية تاريخ مدينة تبسة، ولو أنه معروف تاريخيا أن هذه المدينة كانت من أكبر المدن الموجودة في إقليم المايليين الشرقيين، وعرفت باسم هيكاتمبيبلس التي ذكرها ديودورس الصقلي مظهرا أهمية ثروتها الاقتصادية أثناء الحرب الأولى بين روما وقرطاجة، ويذكر نفس المؤرخ بأن صفوان القرطاجي استولى على تبسة وذلك سنة 274 ق.م، وهو ما يتوافق مع سير أحداث الحرب الأولى بين روما

50) - نفس المرجع ص: 192.

51) - نفس المرجع غانم ص: 192.

52) - انظر تحقيق مخطوط البكري بالفرنسية : EL BAKRI : Déscription de l'Afrique septentrionale, traduction : Dr Slane 2ème édition Alger 1913, p: 157.

وقرطاجة، وما عدا هذا فليس لنا معطيات تاريخية وأثرية تثبت توسع كبير للقرطاجيين في تبسة، وما جاورها، فلا بد من إعادة النظر وبحث عميق في الكتابات القديمة مثل النقوش البونية ثم الإغريقية واللاتينية، وكذلك ما أضافته التقنيات الأثرية.

إيجلجيلي

جاء ذكر إيجلجيلي في النقوش اللاتينية على أن تسميتها من أصل مغربي، وهناك مؤرخون آخرون يرون أن إسمها له جذور فنيقية[53].

وأشار البكري المؤرخ المغربي إلى أطلال مدينة جيجل القديمة في القرن الحادي عشر الميلادي، هذا مع العلم أن جيجل إنكب على دراستها الأثريون الفرنسيون منذ نهاية القرن التاسع عشر، فأجرى ضابط فرنسي مولع بالآثار حفرية في موقع منحنى الرأس الأسود (La pointe noire) الذي اكتشفت فيه أول قبور سردابية بونية محفورة في التل الرملي، علاوة على قبور أخرى كانت منحوتة في الصخر، وفي عام 1928 أعاد الكرة في التنقيب والدراسة لهذا الموقع الأثري المشهور (ألكير J Alkier) الذي عمل في منصب أمين المتحف في قسنطينة يومئذ.[54]

ومن نتائج حفرياته: وضع تاريخ لقبور منحنى الرأس الأسود إلى القرن الثالث والثاني قبل الميلاد، ثم إن الفخار الذي عثر عليه في المنطقة له قرابة مع ما عثر عليه في قرطاجة ومعطية بصقلية وسردينيا ومالطا. وأعطى الباحثون الذين تناولوا هذا الموقع فيما بعد تاريخ القرن السادس والخامس قبل الميلاد كبداية الإستيطان في محطة جيجل البونية[55]، وبذلك فهي سابقة على تلك التي عثر على بقاياها الأثرية في القل.

ومن خلال المصادر المادية والكتابية يظهر أن نشأة محطة جيجل جرى على يد الفنيقيين وكانت تربطها علاقة قوية مع قرطاجة ويذكلر أنها كانت ضمن المدن الليبيو-فنيقية التي أشار إليها إسترابون تحت إسم الميتافونيتيس[56].

قورايا

تعد قورايا من المراكز البونية الهامة وتدعى اليوم قبة سيدي إبراهيم، ومن خلال الحفريات الأثرية التي جرت فيها عثر على ثلاثة مقابر بونية يعود تاريخها إلى القرن الثالث

---

53)- أنظر محمد الصغير غانم: معالم التواجد الفنيقي البوني في الجزائر.ص: 208.

54)- نفس المرجع.ص:209.

55)- نفس المرجع.ص: 210 .ولمزيد من التفاصيل انظر: M. Astrung: Nouvelles fouilles à Djidjelli, Revue Africaine, T.L XXX,1935. p: 253

56)- غانم محمد الصغير: التواجد الفنيقي في الجزائر.ص: 211.

والرابع قبل الميلاد[57]، وذكر قزال في الأطلس الأثري[58] أنه عثر على نقود في قورايا، وجد مكتوبا على البعض منها إسم المدينة بأحرف بونية جديدة وهي كالتالي : قنقن كارتينا.

يورد بعض العلماء اللغويين أن إسم كارتينا وهي تنس حاليا يعد فنيقيا وليبيا في الأصل، وهو يتكون من شقين : فالأول وهو كرت يعني المدينة، أما الثاني فهو ليبي "تينا" وهو الذي إشتق منه إسم تنس "Tennas" فيما بعد وهكذا فإن إسم المدينة كارت تيناس.

وتقع آثار مدينة كارتينا القديمة على بعد كيلومترين (2كلم) إلى الغرب من المدينة الحالية، ويمكن أن يكون خليج نهر الملاح هو الذي كان يشكل ميناء المدينة القديمة.[59] كما تحدث إسترابون عن مناجم النحاس الغنية القريبة من كارتينا، كما وصفها البكري خلال القرن التاسع الميلادي، أما ستيفان قزال فيرى أن إسم كارتينا أورده البكري في القرن الثالث الهجري

(التاسع الميلادي)[60]، ويعتقد جزيل أن إسم المدينة ورد ضمن قائمة رحلة سيلاكس تحت إسم شلكا [61] (Chalca).

شولو في القديم (القل في يومنا هذا)

توجد هذه المحطة القديمة وهي شولو (القل اليوم) من رأس بوقرعون الذي يحميها من الرياح الشمالية الغربية، واشتهر سكانها في البداية بإستخراج الصباغة الأرجوانية من أصداف البحر إلى جانب صناعت السفن والقوارب.

ويرجع أن إسم هذه المحطة التجارية من أصل فنيقي بوني، وشولو كانت من المدن الليبيو-فنيقية التي كانت تسير في فلك قرطاجة، وكان لأهل شولو نفس حقوف المواطنة الخاصة بالعاصمة القرطاجية.[62]

وعثر الجنرال الفرنسي هيلو Hélo في عام 1895 خلال حفريات جرت في قبور جنوب المدينة، فأثبتت الحفريات وجود فخار قرطاجي ينسب إلى القرن الثالث ق.م [63].

---

57)- نفس المرجع .غانم.ص: 185 ولمزيد من التفاصيل انظر: F.Villard: Vase antiques du Vsècle av. J.C A Gouraya, L.A.E.(1959) pp:7 à 13.

58)- S. Gsell: Atlas archéologique, figure 12 n°20

59) - نفس المرجع.ص: 187.

60) - نفس المرجع.ص: 187.

61)-Gsell: Hist A.A.N.Tome II.p: 27-28.

62) - نفس المرجع السابق.ص: 211.

63) Hélo: Notice sur la né cropole phénicienne de cllo. P: 334-345.

الفصل الثالث

تاريخ المدن الجزائرية عبر العصور

مدينة الجزائر ...قصة مدينة

مدينة الجزائر جمالها آية تشد الناس بجمال طبيعتها الخلاب الذي يأخذ ألباب الناس، إعجابا وإكبارا، عندما يأتي المساء تراها تعانق البحر بكل حنو ورأفة وشمس الأصيل قد مالت إلى المغيب وترى المدينة تغازل الشفق الأحمر معاتبة إياه متأوهة على فراق شمس الغروب على حين بغتة كيف لا يرغب المرء في جوارها وتخيم الخواطر بين أنحائها وأغوارها ... دار شهامة وريادة زعامة أسطولها مرهوب وجيشها مقدام مرغوب إنها مدينة الجزائر ...

مدينة وديعة حقا ورعاها الله جانبها مريع وخيرها سريع عرفت الرفعة والثراء والفقر ولكنها في كل حال ظلت مرفوعة الرأس، منتصبة القامة تؤثر الشرف على الإستكانة.

مدينة الجزائر لها تاريخ تليد، جعل الفينيقيون منها مرفأ صغيرا تلجأ إليه سفنهم التجارية ويبدو أن الاسم الذي أطلق عليها هو ايكوسين وهو الاسم الذي عرفت به في الأساطير اليونانية، وأسطورتها دونها صولين الروماني، وخلاصة الحكاية أن هرقل الإله الروماني صحبه في إحدى سفراته عشرون نفرا، بقصد الوصول إلى الغرب ليفصل بين شبه جزيرة ايبيريا والمغرب وكان القسمان متصلين ولما وصل هرقل إلى مكان الجزائر للراحة مع صحبه العشرين أعجب بالمكان فانفصلوا عنه وظلوا هناك أما هو فقد سار غربا نحو جبل طارق ومن هنا تسميه مضيق جبل طارق بأعمدة هرقل أما النفر العشرون الذين إنفصلوا عنه فقد أسسوا على البر بلدة سميت مدينة الجزائر

باسمهم كانت موجودة في القرن السادس قبل الميلاد وبعد سقوط قرطاجة في 146 ق.م أصبحت مدينة الجزائر تابعة لمملكة موريتانيا المستقلة واتخذ إسمها صبغة لاتينية فأصبحت تدعى إيكوسيوم أثناء العهد الروماني.

مدينة الجزائر في العهد الاسلامي

وفيما يتعلق بإستمرارية المدينة في العهد الإسلامي نعتمد على ما ذكره ابن خلدون في كتابه (العبر- ج. 6 ص154) فقال: "ثم اختلط ابنه بلكين بأمره (أي بأمر أبيه زيري بن مناد الصنهاجي في رمضان سنة 360 هجرية) وعلى عهده مدينة الجزائر المنسوبة لبني مزغنة بساحل البحر".

وذكر إبن عذارى في كتاب البيان (المغرب ج "2" ص331) إنه في رمضان سنة 337 هجرية وصل إلى الخليفة الناصر، وهو في قصر الزهراء بقرب قرطبة، منصور وأبو العيش، ابنا أبي العافية ومعهما حمزة بن ابراهيم صاحب جزائر بني مزغنة.

وذكر جزائر بني مزغنة ووصفها ابن حوقل وهو من علماء القرن الرابع في كتاب (المسالك والممالك) صفحات: 42، 51، 52.

وقال خالد بن عيسى البلوي صاحب تاج المفرق في تحلية علماء المشرق (ص 152/151) وهو عالم أندلسي قام برحلة حجازية مر خلال ترحاله بمدينة الجزائر واصفا إياها قائلا: "..... إلى أن وردها (مدينة الجزائر)، في آخر يوم الخميس الثاني لجمادى الثانية من العام المذكور والليل قد غول النهار قد تحول والقلب لا يصبو إلا لأول منزل، ولا يحن إلا إلى الحبيب الأول، ولما طرزت طرة الظلام يد الإصباح، وأرسل الفجر في رداء السحر خيط الصباح اسرفنا مبادرين، وبادرنا مسرعين وتفرقنا في سكك المدينة أجمعين، فرأيت محيا صبيحا وتربا مليحا، ومسجدا عتيقا وبناء أنيقا، وأناسا قد سلكوا إلى الحسن والإحسان طريقا.

من مدينة أقسمت بعلو هضابها ألا يفوز مبسم الثريا برشف رضابها فلا ترتقيها إلا الظنون، وكأنها ضب ومن يطمع فيها نون، قد أحاط بها البحر إحاطة السوار بالزند، فألبس ذلك الجسم روح المجد، وركب خلائق الوهد على ذلك النجد.

فأقمنا بها نحكم في حزن الأنس وسهله، حكم الصبي على أهله حتى قرب أمد الرحيل، وغلب واجبه على المستحيل، فعزمت على الخروج وسرت على بياض ذلك الساحل وخضرة تلك المروج.

يا بياضا أدري دموعي حتى عاد منها سواد عيني عقيقا

وذكرها إبن بشكوال في كتاب الصلة (ط. مجريط 1883، ص465) في ترجمة قاسم بن موسى الضني (النون) أن مولده في جزائر بني مزغنة هذا وأن بني مزغنة المنسوبة إليهم قبيلة من البربر لازالت إلى يومنا هذا بقية منها مستوطنة بأرض واقعة شرقي مدينة الجزائر وتبعد عنها بحوالي 80 كلم.

وتاريخ مدينة الجزائر في العهد الإسلامي ملئ بأحداث وتطورات جسام، فقد حكمها ملوك ودول جديدة فكانت في البداية جزء من مملكة بني حماد ثم استولى عليها المرابطون، ودانت من بعدهم لسلطان الموحدين عام 1152م. ولما حاول بنو غانية أن يعيدوا ملك المرابطين في إفريقية، استولى علي بن غانية على الجزائر عام 1185م ولكنه لم يحتفظ بها طويلا، فقد ثار الأهالي في وجهه وقدموا طاعتهم إلى المنصور.

ولكن يحيى بن غانية استطاع فيما بعد أن يحتل المدينة في 623 - 1226 م، ثم حكمها الموحدون والحفصيون وأقام أهل مدينة الجزائر بعد ذلك نوعا من الحكم الجمهوري وتوالى على حكمها الزيانيون والمرينيون في 1351/1347، واستعادها أبو حمو الثاني مرتين وسير شؤون المدينة وردحا من الزمن. وقبيل العصر العثماني كانت مدينة الجزائر تحت حماية الثعالبة.

كانت مدينة الجزائر تمثل سوقا تجاريا، ميناؤها بجوار المتيجة أعطاها أهمية ووزنا، كان يرتاد المدينة الملاحون المسلمون وتجار النصارى يأتونها بأساطيلهم من البندقية وفلورنسه لجأ إلى مدينة الجزائر المهاجرون الأندلسيون واليهود بعد ضياع الفردوس المفقود في أواخر القرن الخامس عشر وكذا في بداية القرن السادس عشر.

بعد استيلاء بدر ونفارو واكسمينس على مدينة وهران في 1509م واحتلال بجاية في 1510م خشي أهل مدينة الجزائر أن يحتل الأسبان مدينتهم فطلبوا من سليم التومي أن يرسل وفدا إلى بابا عروج الذي كان مستقرا في جيجل منذ 1513، فالتمسوا منه العون، فلما جاء إلى الجزائر حيث كان ينتظره أهلها بفارغ الصبر واستقبلوه بحفاوة عظيمة وأسكنه سليم التومي قصرا فاخرا بجواره تشريفا له. وبعد مجئ بابا عروج كفاتحة عهد جديد إلا وهو العهد العثماني في الجزائر.

إستعد عروج لمحاربة الأسبان المحصنين في قلعة الصخرة أمام مدينة الجزائر، وتلقى النجدة من أخيه خير الدين ومن أحمد بن القاضي المدعو بوقطوش شيخ كوكو بالقبائل الكبرى اللذين توجها على طريق البر.

بينما كان عروج يستعد للحرب، إذ أحس بفتور اعترى سالم الذي خشي أن ينتزع الحكم من يده، فأخذ يتجسس على عروج فقتله هذا واستراح من المنافسة، وانفرد بدون منازع، وأحضر أخاه خير الدين، ونظم الإدارة، وجند الجنود وكون جيشا قويا أخضع بفضله القبائل العربية البربرية المجاورة للجزائر، وخصوصا منها قبيلة الثعالبة التي كانت انعامها في سهول متيجة ودلس.

ولما استقر عروج بالجزائر ودرس موقعها ظهر له أهميتها وحصانتها ومناعة المرفأ، فعوم على الاستقرار فيها بصفة دائمة. وأخذ الحكم بيد من حديد وأخذها عاصمة له.

فرأى أنه لا يستتب له الأمر إلا بتمهيد أهل الجزائر فقتل سالم التومي بعد الدخول عليه إلى الحمام وإغتاله بمعاونة خديمه وصاحب أسراره رمضان شاوش، وإتهم الغير بقتله.

ولكن تفطن له أهل الجزائر الذين شعروا أنه لا يريد الاستيلاء على الحكم، والطمع في الإمارة فقاموا بالتمرد بالاستعانة بالجيوش الإسبانية وبمساعدة يحيى ولد سالم التومي الذي فر إلى وهران عند الأسبان خوفا على نفسه من أن يقتل مثل أبيه، ووجهه إلى وهران الماركي كوماديس الإسباني حيث التقى بالوزير الأول كاردينال خيمينيس الذي وعده بإعطائه النجدة ورده إلى عرش أبيه، وكان خيمينيس إذ ذاك وصيا على عرش إسبانيا وسبب قتل سالم التومي هي التهمة التي وجهها إليه عروج بكونه تحالف مع العدو.

والحقيقة هي أن سالم شعر بالخطر التركي حينما مكث عروج وأخوه بالجزائر وعزما على إتخاذها مركزا لهما.

المواجهة الجزائرية الإسبانية

ثار أهل الجزائر وتحالفوا مع الأسبان ضد عروج، فقام هذا الأخير بتدبير مؤامرة ضد أعيان المدينة، حيث قتل منهم اثنين وعشرين في مسجد يوم صلاة الجمعة منفردا بالحكم لا يزاحمه أحد.

فتفرغ وبويع له بالملك، فأعطى لنفسه لقب السلطان وأخذ ينظم الإدارة والسياسة، ويضرب النقود، ويتولى الحل والعقد، ويفرض الزكاة، ويقر الجهاد في سبيل الله ضد العدو الإسباني الذي كان له بالمرصاد، وقد جرت معارك بين بابا عروج والأسبان في وهران، وتلمسان.

حيث إستولى على المشور الذي كان قصر الملوك بتلمسان، فإعتبر الأسبان ذلك خطرا عليهم، لا بالنسبة لمستعمراتهم بإفريقيا فحسب، بل أصبحوا مهددين في بلادهم، إذ أن قاعدة تلمسان قريبة جدا من الجزر الخضراء وسواحل إسبانيا الجنوبية الشرقية وخصوصا منها مالقة، والمارية، وقرطاجنة والياكانطي وغيرها من المرافئ الحساسة.

على كل فقد إستمات بابا عروج في الدفاع عن تلمسان بعد محاصرتها من قبل الأسبان وإستشهد عروج بربروس على 92 كلم من تلمسان، بينما كان فارا متوجها إلى بني يزناسن غرب تلمسان على جبل بني موسى قرب وادي يسلي أو وادي وجدة في المغرب الأقصى، وقد كان لموت عروج صيت عظيم في عالم الكنيسة، إذ كان يظن المسيحيون أنهم قد قطعوا دابر الأتراك في غربي البحر المتوسط.

غزو شارل الخامس لمدينة الجزائر

بادر شارل الخامس بتوجيه قوة عظيمة إلى الجزائر، ليحارب خير الدين حتى يريح المسيحية من هذا الخطر الذي يحيط بها من كل جهة، فعين على رأس الجيش المكون من 5000 جندي (هوقو دي مونكاد) نائب صقلية، وفي 17 غشت سنة 1518م أرست سفن الأسبان بين الحراش والجزائر.

ولنتساءل: هل كان شارل الخامس متيقنا بانهزام عروج في الجهة الغربية حتى يفتح جبهة ثانية في الشرق ليقضي على جيوش خير الدين؟ أو أتاه خبر موته.

وعلى كل حال عندما حل الجيش الإسباني بناحية لاغا قرب الجزائر في18 غشت سنة1518 م كان عروج محاصرا في تلمسان ولا يمكن بحال للملك أن يكون قد ارتجل جيشا هائلا، وهيأه للحصار البحري والحرب البرية في ظرف أسبوع أو أسبوعين فإننا نظن أن الإمبراطور أراد أن يضرب القوات التركية من كل جهة وقد تأهب لها منذ زمان ولذلك نرى الواقعتين قد جرتا في تاريخين متقاربين.

لكن الأمر الذي لا يفهم هو مضمون الرسالة التي وجهها قائد الجيش الإسباني لخير الدين في غشت 1518م حيث يأمره بأن يستسلم وإلا سيفعل به ما فعل بأخويه إسحاق وعروج، فأجابه خير الدين (أن السيف هو الذي يحكم بيننا من هو أحق بالجزائر).

فإذن إما أن تكون الرسالة مكذوبة من حيث مضمونها، وإما أن يكون الهجوم على الجزائر قد وقع بعد 19 سبتمبر سنة 1518م تاريخ استشهاد عروج، وإما موت عروج قد وقع قبل غشت سنة 1518م.

ومهما يكن من أمر، لما حلت جيوش العدو بشاطئ البحر قرب الجزائر أخذ رئيس المدفعية /قونزالفو مارينودي ريفيرة - يدمر المدينة بمدافعه، فاستولى العدو على كدية الصابون يوم 18 غشت سنة 1518م، حيث يوجد برج مولاي حسن الذي سماه الاسبان، برج الإمبراطور، وقد وقع آنذاك الخلاف في الجيش الإسباني، سببه أنه على رأس

الجيش قائدان متساويان في السلطة والنفوذ وهما: هوقو مكاريدوني مونكاد وقونزالفو ماريدوني ريفييرة، وكان هذا الأخير رئيس الطبجية كلف بمهمة الهجوم على المدينة.

فاحتل في 18 غشت الكدية المذكورة بألف وخمسمائة محارب، وعزم على النزول إلى المدينة.

فتعرض له قونزالفو، حتى يصل جيش أبي حمو الزياني وخيالته وكان خير الدين على علم بهذا الخلاف فأسرع بالهجوم على العدو بجيشه حتى لا تعزز قوات الأسبان بالجيش الزياني، وكانت الصدمة عنيفة، فإنكسر العدو وفر هاربا إلى سفنه الراسية بالميناء قرب لاغا، فشتت المسلمون شمله بعد ما حاول الركوب في السفن والإبحار، لكن طلعت عاصفة شديدة في ذلك الحين فبعثرت وشتت السفن ومات عدد كبير من الأسبان مقتولين بالسيوف وغرقى، فجمع القائد الإسباني شتات الجند وفر هاربا في السفن الباقية في ليلة 22 غشت سنة 1518م، وقد مات للعدو نحو 4000 محارب من بين الخمسة آلاف الذين نزلوا بساحل الجزائر وغرقت ما يزيد على خمسين سفينة، وكان الظفر لخير الدين الذي جمع أموالا طائلة من الفيء والعتاد الحربي والمدافع والمؤن والخيل فعزم أثر ذلك على تقديم طاعته للخليفة العثماني ليكون حكمه مشروعا على أسس إسلامية فوجه وفدا إلى السلطان العثماني.

إنتصار خير الدين على الأسبان

وخلف عروج في الحكم السلطان خير الدين الذي احتل القلعة الإسبانية في مايو سنة 1529م وهدمها عن بكرة أبيها، واستعمل حجارتها لبناء ممر يصل الجزيرة بالشاطئ، وقد باشر ببناء سدود جديدة ليفتح المجال أمام توسيع المدينة.

ولم يترك خير الدين لعدوه راحة، فاستولى على كاستيل نوفو وأسر عددا من سكانها ورهبانها وأخذ الفيء الكثير، واشتد غيظ أندريا دوريا الذي أحس بفتور اعترائه لكثرة الانهزامات التي كبده إياها عدوه التركي ولم يعهدها من قبل لأنه كان متشبعا بالتفوق على كل من أشهر عليه الحرب برا وبحرا وأحست المسيحية انتصارها في تونس بأنها عاجزها بتاتا القضاء على خير الدين، ففكر الإمبراطور عندئذ في فتح المفاوضات، وذلك بإيعاز من مستشاريه ومجلس الكرطيس.

فأراد إبرام صلح مع أمير الجزائر مع عظمة الإمبراطور الذي كان يملك نصف العالم، فوجه في أواخر 1539م شارل الخامس سفيره (خوان فييقو) من السياسيين الدهاة لا يالته.

فأخذ يتردد بين شارل الخامس وخير الدين طيلة شهور، وكانت شروط هذا شديدة وهي استرجاع المرسى الكبير ووهران وبجاية وعنابة وحلق الوادي وطرابلس، وعلى أن يكف عن محاربة الأسبان وحلفائهم (ويكون صديقا لأصدقاء الإمبراطور وعدوا لأعدائه)، وأن يزيل القرصنة من البحر الذي يصبح بحر تجارة هادئة[1] وبحر سفن السلم والأسفار التجارية للمسلمين والمسيحيين.

وكذا يطلق الإمبراطور الأسرى المسلمين وأن يكف عن اضطهاد رعاياه المسلمين بالأندلس، ووقع الأخذ بين الملكين ورغم بعد المسافة بين المتفاوضين، حيث أن خير الدين، كان مرابطا بكورفو باليونان بالحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، كاد الصلح أن يبرم مع بعض التغيرات في الشروط، لكنه ورد خبر المفاوضات على علم السلطان العثماني فتعرض لها بإيعاز من فرانسوا الأول، لأن الصلح كان يصبح خطرا عليه ولذلك انقطعت المفاوضات في شهر غشت 1540م.

وبما أن الصلح ساد نهائيا بين المسيحية والإسلام عزم شارل الخامس على محو الجزائر فجمع أسطولا من نابل وكطالونيا وبلنسية والجزيرة الخضراء وارغون.[2]

وخرج به يوم 19 أكتوبر 1541م من مايورقة، وحل بالجزائر بعد يومين ووقع له ما وقع، وهذا ما سنشرحه فيما بعد، وعزم على أن يهجم على مدينة الجزائر بذلك الأسطول العظيم الذي لن يغلب على حد تعبيرهم.

وقبيل وقوع الهجوم الإسباني على مدينة الجزائر أقر السلطان سليمان العثماني حسن أغا على إمارة الجزائر ووجه إليه فرمان توليته والخلعة، وولي على قيادة البحر حسن بن خير الدين الذي تبع أثر والده في الحزم والإقدام والشجاعة وكان خير الدين يضع ثقته في حسن أغا لما رأى فيه من الإستقامة والنزاهة ونكران الذات، وكان له بمثابة الأب يستخلفه في الإمارة كلما تغيب.

وكان حسن أغا من سردينية أخذه خير الدين صغيرا في إحدى حروبه وأعتقه بعد ما أسلم وأظهر نباهة ولباقة في خدمة سيده الذي كان يكلفه بالمهمات، ويسند إليه أموره الشخصية.[3]

---

1) - أنظر عبد الحميد أشنهو (دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر) ص189.

2) - نفس المرجع ص 190.

3) - كان حسن مربوعا، أبيض اللون، حسن البيضة بمعتدلها كبير العينين وجميلها، لطيف الأخلاق، تظهر عليه سمات الحكم والعدل ومن شدة عزة النفس كان سخيا بأمواله مفرط الكرام.

لما توجه خير الدين إلى تركيا سمع شارل الخامس بمغادرته الجزائر بصفة نهائية فأراد أن يغتنم الفرصة، فوجه أسطوله العرمرم إلى الجزائر سنة 1541 قصد القضاء عليها القضاء المبرم وإندثارها.

وكان عزمه تهديم المدينة وتخريبها من الأساس مثلما فعل الرومان بقرطاجنة بعد الحروب البونية.

كثيرا ما كان البابا الثالث يحث شارل الخامس على محاربة الجزائر و يحظ الناس على القتال ببلاد المسلمين لينالوا الجنة.

وقيل أن سبب عزم شارل الخامس في المبادرة بالهجوم على الجزائر والعجلة بدون كامل التهيؤ هو أخذ رؤساء حسن أغا مركبين مملوءين نقودا وبضائع وسبى ما فيها من الزاد والبشر، فاشتد غيظه وقلقه وهيأ الأرمادة وهي مركبة من400 أو450 فرقاطة حربية، وحاملات العسكر والخيل والمؤن والسلاح تحركت الارمادة نحو الجزائر حيث وصلت إلى تامندفوست بعدما شوهدت من الجزائر يوم الأربعاء 27 جمادى الثانية عام (948 هـ/ 30 أكتوبر سنة 1541).

أرست يوم الخميس عند العصر، وقيل أنها كانت حاملة 90,000 من العساكر و4,000 من الخيل، وكان يقود العمارة أمير البحر الجنوي اندريا دوريا.

اختار شارل الخامس فرصة غياب خير الدين في المشرق ليستولي على البلاد، ويحسم مادة القرصنة ويقضي على المسلمين بإفريقيا.

وعندما علم حسن أغا بحزم شارل الخامس[4] بالهجوم على مدينة الجزائر، جمع العلماء والأعيان بكل رباطة جأش وإستشارهم في الأمر وحثهم على الجهاد والصبر، واستخف كثرة العدو ولو أنه شعر بالخطر في نفسه شجع الناس على القتال والدفاع عن البلاد والدين، وزودهم بالسلاح الوافر وصمموا على دفع العدو.

ولم يكن شارل الخامس يعرف وضعية الجزائريين وشدة نفسيتهم وحين فرغ حسن من استشارة المجلس، بعد تحققه من عزم الجزائريين المتصلب، جاوب الطاغية بكتاب شديد اللهجة يناسب كلامه المتعجرف المملوء بالسب والغلظة، وكان جوابه بالتركية ولما اطلع الإمبراطور شارل الخامس على جواب حسن أغا اغتاظ واستشاط،

4)- شارل الخامس والذي كان يدعي شارل زهر ملك إسبانيا (1500/1558م) قاد حملات عديدة ضد فرنسا وإيطاليا ثم قام بحملة ضد الجزائر عن طريق وادي العراش ومني فيها بهزيمة نكراء سنة 1547م.

فتحرك في الحين واستولى على برج مولاي حسن الذي هو فورلا مبرور وكان أيضا يسمى كدية الصابون فخرج المسلمون لمحاربة العدو، ووقع قتال شديد، كانت الحرب سجالا بين الجيش وانتصر المسلمون في بعض الأحيان.

وكانت شجاعة حسن تؤدي به إلى محاربة جيش العدو في وسط شوارع المدينة قرب باب عزون، ولما وصل فرسان مالطة تصدى لهم حسن وقتل لهم مائة وخمسين فارسا من الفرنسيين، فدخل الرعب في قلب شارل الخامس الذي لم يكن يتوقع هذه المعارضة الشديدة من جانب المسلمين فنزل من برج حسن ليحارب حسن.

فلقى صفوفا متارصة، حتى انسحب وأسرع نحو رأس/ماتيفو حيث التجأ بإيعاز من حاشيته خوفا عليه من الأسر أو الموت[5].

ومن ظروف هذا الحادث هو أن الله تعالى أنزل في تلك الليالي أمطارا غزيرة وهبت عواصف شديدة.

وهاجت الرياح وساقت السحاب أمثال الجبال، وأمطرت السماء مطرا كالطوفان وهاج البحر، واشتدت أمواجه وكثر الإضطراب ما لم يعهد مثله، فجعلت سفنهم تتكا يمينا وشمالا فغرق كثير من سفنهم وعطب على الساحل سفن كثيرة ... فعند ذلك دهش الكفار وتحيروا.

فقال بعض المؤرخين بكل جد أن شارل الخامس هيأ كل شيء لينتصر على الجزائريين إلا مصلحة الأرصاد الجوية.

وقد حالت الزوبعة بين الأعداء المهاجمين ظلما على بلاد المسلمين وبين مؤنهم التي بقيت في المراكب.

وكانت هذه تلاطمها الأمواج، بحيث كادوا أن يموتوا جوعا فأخذوا يذبحون خيلهم الجياد منها وحاملة الأثقال، وراموا الحيل ليهربوا ملكهم واختلقوا التختل حتى أفلت من يد المسلمين وفرت السفن وحل الإمبراطور غيظ شديد، كاد أن يكون جنونا، وأخذ يزبد ويرعض، فنزع تاجه من رأسه وألقى به على الأرض، وقسم يمينا أن لا يرده، على رأسه حتى يستولي على الجزائر، ويدكها دكا ويردها رميما فلم يستجب الله أمنيته.

وقيل أنه هلك للعدو في المعمعة وفي الزوبعة 12,000 محارب و4,000 من الخيل من غرقى ومذبوحة لتغذية العساكر بلحومها.

وقد استشهد 2,000 من المجاهدين المسلمين بين أتراك وعرب وبربر.

---

5)- نفس المرجع، اشنهو، ص: 190.

هزيمة شارل الخامس النكراء

وأبحرت السفن الباقية بما تخلف من الجنود نحو150وحدة واستراحت الجزائر من قبضة العدو الجبار الذي تلقى درسا قاسيا لم يتقدم أن أخذه في حياته، وكان في الحقيقة ضربة ربانية له ولأعداء الإسلام، الذين كانوا عازمين على محوه.

ولما خرج الأسطول من مرسى الجزائر وتوجه نحو بجاية ليلتجئ إليها خوفا من استمرار هيجان البحر ومن متابعته من طرف مراكب حسن أغا أو قدوم أسطول خير الدين وبعد مكوث شارل الخامس مدة ببجاية لترقيع الفتق والاستراحة من عذاب الهزيمة، وإصدار الأوامر لإصلاح مؤسسات الأبراج الدفاعية التي وجدها في حالة تخريب.

غادر بجاية متوجها نحو برشلونة بعد ما انفصلت بعض القطع من الأرمادة وتوجهت إلى إيطاليا، دخل إلى أوروبا مخجولا مذموما محتقرا من جانب رعيته وعرضة لتهكمهم وسخريتهم وهجائهم الحاد، وخصوصا منهم أعداء نظامه.

وقد ذاع صيت الجزائر آنذاك في أرجاء العالم، حيث تيقن الأجانب بعدم غلبها، وبقيت مدينة الجزائر كالعروس تختال في حليها وحللها من رخاء الأسعار وأمان الأقطار ولم يبق لهم عدو يخافون منه.

وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها وبقي رعب المسلمين في قلوب الكفار مدة طويلة بقدرة العزيز القهار.

واشتغل حسن أغا بعد ذلك (1542) بإخماد نار الفتن التي كان أضرمها المشوشون في كافة أنحاء القطر، بإيعاز من العدو، وفتك فيهم فتكا ذريعا حتى رد الأمن إلى نصابه ونقول بهذا الصدد أن الحسين بن القاضي نفسه أراد أن يضرب جيوش حسن أغا من القفاء، لكن خاب ظنه، إذ أن النجدة التي أتى بها لمساعدة شارل الخامس تأخرت، فوجد جيوش الإمبراطور قد انهزمت شر انهزام.

فأسرا ابن القاضي بالرجوع إلى جباله، حيث وصل إليه الحسين وألزمه على الطاعة، وأداء الزكاة والغرامة، وإعطائه ولده أحمد رهينة وهو فتى عمره خمسة عشر سنة.

وبعد استتباب الأمن وسير الأمور إلى مجراها، توفي حسن في شهر سبتمبر سنة 1543م جمادى الثانية عام 950 هجرية بالجزائر رحمه الله.

إيراد مدينة الجزائر من البحر

وبعد هزيمة شارل الخامس النكراء لم يعد لحكام مدينة الجزائر من أعداء أقوياء. فانصرفوا إلى شؤون البحر حتى سنة 1830م وقد درت عليهم هذه الأعمال أرباحا طائلة، وكانت بمثابة التجارة الرابحة فازدهرت المدينة في هذا العهد وازداد عدد سكانها بنسبة كبيرة وبسرعة فائقة، فبعد أن كان ثلاثين ألفا عام 1518م بلغ ستين ألف (60.000) عام 1580م ومائة ألف (100.000) في عام 1634م .

وكانت نتيجة مراقبة تفتيش السفن الأجنبية التي قام بها سكان مدينة الجزائر أن قامت الدول الأوروبية بحملة ضغط شديدة على المدينة، فضربها الإنجليز بالقنابل عام 1622م و1655 و1672م ثم عام 1683 وعام 1688م، وقد أحدث ضرب المدينة في كثير من الأحيان ردة فعل ملحوظة.

مدينة الجزائر في العهد العثماني

وكانت بمدينة الجزائر في نهاية القرن السادس عشر أي في بداية العهد العثماني في الجزائر أسوار شامخة طولها كيلومتران ونصف تقريبا وعلوها من 10الى 12 مترا وعرضها متران، وفي أسفلها خندق كبير العمق وعريض، كون ذلك مناعة من هجوم العدو من البحر ومن البر، وكانت تتخلل ذلك بروج محصنة، وفي البروج والأسوار نوافذ مختلفة الاتساع بعضها واسعة خصوصا المشرفة على تلقي منها طلقات المدافع والبندقيات المدعوة الكرابيلا أو أركابوس.

وكان للمدينة خمسة أبواب هي: باب عزون وباب الوادي وباب الحوت أو الديوانة وباب الجزيرة وكان يدعى باب الجهاد ثم الباب الجديد الواقع جنوب غربي المدينة وهو أعلاها وتغلق الأبواب الخمسة من غروب الشمس إلى شروقها لا تفتح بأي وجه من الوجوه وطرق المدينة كانت ضيقة جدا وسقوف المنازل متقاربة إلى حد يمنع الشمس من دخول بعضها ويمكن إقامة اتصالات بين مختلف أحياء المدينة بواسطة المنازل وجميع منافذ مدينة الجزائر كانت تحميها في العهد العثماني تحصينات مسلحة بالمدافع الثقيلة التي تجعل كل محاولة مباشرة للسفن التجارية للهجوم على المدينة محاولة ميئوسا منها، لأن المدافعين عن المدينة كانت لهم براعة وعزيمة لا تثنى وكان يحمي واجهة مدينة الجزائر من ناحية البحر البرج الجديد، برج باب الوادي، وبرج الإنجليز، وبرج باب عزون، ومدافع الربوة التي لا تقل عن 180 مدفعا وإذا نظرت إلى مدينة الجزائر من البحر فستبدو لك في شكلها ولونها، أشبه ما تكون بشراع

سفينة ينتشر في مرج أخضر اللون، والجبل المشرف عليها والأرض المزروعة المحيطة بها والتي تغطيها منازل بيضاء وبعضها من المباني الضخمة تترك في نفسك انطباعا شاعريا أخاذا فهي مدينة وديعة حقا. كانت مدينة الجزائر في العهد العثماني تنقسم إلى أحياء سكنية، منها حي البحرية التي تركزت به الطبقة الأرستقراطية من الأتراك بالخصوص والمصالح التجارية، وحي باب الوادي تركز به التجار، وحي باب عزون للأجانب وأصحاب التجارة من الأهالي وحي القصبة القديمة للعرب أما حي القصبة الجديدة أو العليا فللإنكشارية والدايات أصحاب المناصب في الدولة وتتخلل معظم هذه الأحياء أسواق متنوعة من أهمها سوق باب عزون، وسوق باب الوادي ورحبة السمن بالقرب من جامع سيدي رمضان وسوق السردين القريب من باب الديوانة، وسوق اللوح أي الخشب بالقرب من باب عزون، وبجانبه سوق القمح أما الفنادق فلإيواء المسافرين، منها خمسة فنادق كانت توجد في حي باب عزون وخلال القرن الثامن عشر عرفت مدينة الجزائر تطورا إلى درجة أنها قد تزودت من التجهيزات بما جعلها مساوية لأي مدينة أخرى من مدن البحر الأبيض المتوسط. فالتجهيز كان يأتي إليها عادة من خمس خزانات منفصلة عبر الأبيار، وقد امتدت منها سواقي جوفية بنيت وفق توجيه مهندس مهاجر من غرناطة أي مهندس أندلسي وهو واحد من أولئك الأندلسيين الذين اعتمد عليهم الأتراك من ناحيه الحذق الفني وكنتيجة لذلك فقد تجهزت منازل مدينة الجزائر بماء الشرب والغسل زيادة عما كان ميسرا لها من بئرها الصغير واستفادت المدينة أيضا من توفر الحمامات العامة والحنفيات. فقد كانت هناك في أيام هايدو حنفية من المرمر كبيرة تمتلئ وتجري مياهها ليلا ونهارا أمام قصر البايلر بايات، كما كان هناك عبر المدينة عدة آلاف من الحنفيات الصغيرة تجمل المقاهي والدكاكين في مختلف الساحات العامة للمدينة ولقد بنيت حمامات واسعة من طرف حسن باشا، ومحمد بن صالح رايس قائد البحرية الجزائرية الكبير، وجهزت بالماء الساخن والبارد وكانت تضاهي أحسن الحمامات في القسطنطينية. أما البانبولار وهي المقاصف الصغيرة التي صممت للأسري المسيحيين فهي شبيهة في حسن تجهيزها بالأحياء المخصصة لأوجاق وبناء على هذا فإن مقصفا كبيرا حيث يسكن الأسرى الذين تعود ملكيتهم للدولة كان عبارة عن بناية واسعة عرضها أربعون قدما وطولها سبعون قدما. وقد قسمت إلى حجرات صغيرة مع الحزام المائي في الوسط أما فيما يتعلق بخطوط قنوات المياه على مستوى دخولها إلى المدينة. أو إمتدادها داخلها لم يتمكن المختصون من مؤرخين وأثريين وغيرهم من ضبط شبكات توزيع المياه في العيون العمومية أما المنازل المزودة بالماء الجاري فكانت قليلة جدا ولذلك كان لدور العيون العمومية مكانة هامة جدا في حياة المدينة إذ هي تشكل معالم

أساسية للمدينة ولكن مع الأسف أنها سرعان ما هدمت لوقوعها في الطرف التي شقتها مصلحة الطرق في العهد الاستعماري أما التجهيزات الكبرى التابعة للدولة والمعبرة عن السلطة السياسية والعسكرية فكانت متمركزة أساسا في الجز ء الأسفل وكذلك في ثكنات عسكرية تعدادها سبعة وهي تمتاز بفخامتها وقد أقيمت على نحو استراتيجي بالقرب من بابا عزون وباب الجزيرة، وترتب عن ذلك إقامة سجنين كبيرين تابعين للبيلك على طول شارع باب عزون.

وهذا ومما يجب ذكره أن مقر السلطة المتمثل في قصر الجنينة الخاص بالدايات فكان يقع في ملتقى الأنهج الرئيسية للمدينة وهي أنهج باب عزون وباب الوادي وباب الجزيرة ويعود تاريخ تشييد هذا القصر إلى عهد بعيد جدا هو القرن السادس عشر ميلادي ووقع تحويل المركز السياسي والإداري إلى القلعة بعد ذلك بكثير أي سنة 1816م مما أدى إلى إدخال تغييرات عليها وعلى المساحات المحيطة بها وتخصيص مراكز إدارية بها وكما هو الأمر بالنسبةلأجهزة الدولة فإننا نجد أسفل المدينة مركز الحركة التجارية وقد سبق لي أن ذكرت البعض منها في مقام سابق وتتمركز منطقة النشاطات هذه طول محورين كبيرين هما نهج باب عزون الذي يمتد إلى نهج باب الوادي والأول أكثر أهمية من الثاني، ونهج باب الجزيرة الذي يمتد على رصيف خير الدين وكان باب عزون يربط المدينة ببقية البلاد ومنه تدخل المواد الأولية التي تستهلك أو تحول في المدينة أما باب الجزيرة فيخدم العلاقات الخارجية أو الدولية فيتم عن طريقه استيراد وتصدير مختلف المواد وكما هي الحال في المدن الإسلامية كانت النشاطات التجارية منظمة ومرتبة على شكل أسواق وتجمعات حسب الحرف والمهن تقابل منطقة النشاط الكثيف هذه مناطق سكنية وأساسية تتخللها سويقات.

وضعية الحوانيت الموجودة على جانبي النهج لا تسمح للزبائن بالدخول ماعدا المحلات التي تقدم الخدمات كالمقاهي ومحلات الحلاقة وتغلق أبواب الحوانيت حسب نظام محكم يشتمل على بابين خشبيين ينفتحان أفقيا يتخذ أحدهما غطاء والثاني منضدة من البضائع.

ولقد ترتب عن النشاط الاقتصادي ظهور تجهيزات خاصة تتجلى في أشكال متميزة مثل الفنادق والرحبات والأفران والحمامات ولكن مع الأسف غير معروفة بدقة معظمها وإن الدراسة الشاملة للأرشيف العربي التركي هي وحدها الكفيلة برفع الغموض الذي يكتنف هذه الجوانب الهامة من حياة المدينة وعلى كل حال فإن المدينة

لا تنحصر في حدودها المتمثلة في الأسوار فهي تغطي جزءا من المساحات الممتدة حولها المسماة بالفحص أي الناحية والتي تخضع مباشرة للمدينة وكانت هناك ثلاثة مناطق هي فحص باب عزون، فحص باب الوادي، فحص الباب الجديد وتناسب تسميتها أسماء الأبواب الثلاثة المتصلة بها.

ولتحسين مدينة الجزائر تم بناء أبراج على مقربة من المدينة في مرحلة أولى برج حسن وبرج النجمة وبرج بوليلة ثم بنيت في مرحلة ثانية أبراج لتحصين نقاط الضعف. في أماكن مختلفة من الجون الممتدة من رأس تامنتفوس[6] إلى مرسى الذبان وكان امتداد الأنشطة خارج المدينة يتمثل في المحاجر وأفران الكلس وصانع القرميد الموجودة أساسا بفحص باب الوادي ويبدو أن ضيق المساحة الموجودة داخل أسوار مدينة الجزائر أدى إلى بناء مساكن ثانوية واسعة للإقامة تقطنها الفئات المترفة وهكذا كان الريف المجاور للمدينة مغطى بعدد كبير لا يستهان به موجودا إلى يومنا هذا في بعض أحياء المدينة والى جانب هذا توجد محطات خاصة بالمسافرين وهي في أغلب الأحيان توضع تحت رعاية أحد الأولياء الصالحين.

وحسب التمغروتي الذي زار الجزائر سنة 1003-1595م وصف لنا حركة المدينة فقال الجزائر عامرة كثيرة الأسواق، كثيرة الجند حصينة، لها أبواب ثلاثة وفيها المسجد الجامع إمامه مالكي المذهب وفيها ثلاث خطب إحداها للترك إمامهم حنفي المذهب ومرساها عامر بالسفن وریاسها أي رؤساء البحر موصوفين بالشجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر يقهرون النصارى في بلادهم فبلادهم لذلك أفضل من جميع بلاد إفريقية وأعمر وأكثر تجارا وفضلا وأنفذ أسواقا وأوجد سلعا ومتاعا حتى أنهم يسمونها إستانبول الصغرى.

التنظيم الاجتماعي لأهالي المدينة

إن أهالي مدينة الجزائر في العهد العثماني من ناحية تنظيمهم الاجتماعي يكونون هرما كاملا من الفئات الاجتماعية، كانت الطائفة التركية تمثل واحدة من الطوائف الهامة التي تحتل القمة، وكان تعدادها لا يتجاوز عشرون ألف نسمة[7] وفي جميع أنحاء القطر الجزائري وهناك من يرى أن الطائفة كانت منعزلة أحيانا عن الأهالي الجزائريين من أجل الحفاظ على سطوتهم السياسية أو صيانة تقاليدهم المميزة في العيش وكانوا يلجأون إلى وسيلة ميسرة للحفاظ على وضعهم الاجتماعي الخاص

---

6) - انظر دراسة ليليان مسلم مؤرخة في الفن حو تركيب مدينة الجزائر قبل 1830 ص25 نشرت في الكتاب.

7) - انظر كتاب نصر الدين سعيدوني (النظام المالي في العهد العثماني) ص24.

فيجلبون بين الحين والآخر جماعات من أتراك الأناظول في فرق الأوجاق أو الإنكشارية للعمل في الجيش التركي العامل في الجزائر وأوافق من يرى أن وضعيتها خلقت نفورا وعداوة مع الأهالي الجزائريين ولكن، الرابط القوي الذي كان يربط الجميع من جزائريين وأتراك هي رابطة الدين الإسلامي فأزال ذلك كل حساسيات وخلفيات مهما كان نوعها أما المجموعة السكانية التي تحتل المرتبة الثانية في السلم الاجتماعي، فهي جماعة الكراغلة التي تكونت نتيجة الزواج بين الجيش الإنكشاري والنساء الجزائريات وقد تكاثر عدد هذه الجماعة مع مر السنين بالمدن الكبرى فبلغوا في نهاية القرن الثامن عشر في مدينة الجزائر حوالي 6000 نسمة ورغم ذلك الكراغلة مع الأتراك في الأصل إلا أنهم أبعدوا عن المهام، الكبرى خوفا من سيطرتهم على شؤون البلاد، لاسيما أن الكراغلة بحكم قرابتهم من الأهالي وارتباطهم كانوا قادرين على تكوين حلف وطني يهدد امتيازات الطائفة التركية، وقد برهنت الأحداث على فعالية هذا التحالف الوطني عندما استعان على خوجة لقمع ثورة الإنكشارية لمجموع الكراغلة وفرق زواوة في سنة 1817م أما باقي سكان المدن بما في ذلك مدينة الجزائر فيمكن تصنيفهم حسب أوضاعهم الاجتماعية إلى ثلاث طبقات، الحضر وطبقة البرآني وطبقة الدخلاء وقد كان العنصر الأندلسي عاملا إيجابيا في الحياة الاقتصادية فبفضل نشاط الأندلسيين وثرواتهم التي حملوها معهم أو تحصلوا عليها من ممارسة التجارة وأعمال البحر فنهضت كثير من المدن الجزائرية بعد أن كادت أن تنقرض كشرشال والبليدة والقليعة وازدهرت زراعة البساتين، وأدخلت مزروعات جديدة كقطن مستغانم وعناب عنابة، كما أصبحت القليعة مشهورة بإنتاج الحرير الطبيعي على كل حال فطبقة الحضر عموما كانت قانعة بما تملكه من دكاكين وبساتين ولم تطمع إلى ارتقاء المناصب السياسية وإن كان بعض أفرادها قد تولوا متناصب القضاء والإفتاء والكتابة، وبعضهم الآخر كان محل ثقة واحترام الحكام مثل السيد حمدان خوجة عكس طبقة البرآني التي بقي أفرادها ينتسبون إلى مواطنهم الأصلية التي قدموا منها قبل أن يستقروا في المدن الرئيسية ومعظم أفراد طائفة البرآني في مدينة الجزائر كانوا يشتغلون في مهن متواضعة، فالأغواطيون اشتهروا بالتنظيف، والبساكرة بحمل الأثقال والحراسة والقبائل بأعمال البناء والزنوج بخدمة المنازل.

طبقة الدخلاء المتميزة عن مجموع السكان لأسباب دينية وحضارية، فهي تعتبر دخيلة على مجتمع المدن وإن كانت أحسن حالا من البرآني من الناحية الاقتصادية ومستوى المعيشة وتضم طبقة النبلاء وجماعات الأسرى المسيحيين المستخدمين في الحانات أو السجون ومسخرين للخدمة في قصر الداي أو رعاية بعض البساتين.

وبدأت أهمية الأسرى تتناقص في بداية القرن التاسع عشر وكاد عددهم يتلاشى بعد هجوم الورد إكسمونث في سنة 1816 للمدينة الجزائر ولهذا أصبحت طبقة الدخلاء تشمل في أغلبيتها الجالية اليهودية سواء أولئك الذين استقروا في البلاد الجزائرية القدم أو من آتوا إلى الجزائر من إسبانيا في أوائل القرن السابع عشر، وهذه الطائفة الأخيرة من اليهود الأندلسيين تنتمي إليها أغلب العائلات اليهودية الموسرة.

وكثير من يهود الجزائر حصلوا على ثروات ضخمة نتيجة ممارسة السمسرة والقيام بدور الوساطة في كل العمليات التجارية مهما كانت بسيطة أو تافهة حتى أصبح العربي في مدين الجزائر على حد تعبير روزي لا يستطيع أن يبيع دجاجتين بدون وساطة مأجورة من أحد اليهود وقبل الاحتلال الفرنسي للجزائر في عام 1830م، شهدت مدينة الجزائر ازدهارا كبيرا في ميدان التجارة في عهد الأتراك الذين كانوا يشجعونها لما في ضواحي المدينة من الثروة الفلاحية وتربية الضأن، والبقر، والخضر، والفواكه، والزيت والعسل والشمع، التي كانت تصدر للخارج ،وكانت السفن التجارية ترد على المرسى وتصدر منها إلى تونس ومرسيليا ونابل وجنوة وليفورن، وإسبانيا ومن فرنسا ترد الشحنات من السكر والبن والحديد وكور المدافع وأنواع الورق والمنتوجات الحديدية والأقمشة الحريرية.

وكانت تجارة ذلك نصفها بيد الفرنسيين والنصف الآخر بين اليهود والمسلمين الجزائريين.

وكانت التجارة مع المغرب تجري بواسطة تلمسان على طريق البر فيقع التبادل التجاري فيما يخص الجلباب والنسيج والملف وأواني الطبخ ومنتوجات البلاد الإفريقية السوداء والسوق الأسود الذي كانت نجارته في تلمسان وفاس ومراكش وغيرها.

رعايا وسكان المدينة

وفي الحقيقة أن المدينة بدأت تعمر شيئا فشيئا بالمهاجرين الأندلسيين، والعرب ومعاقل الثعالبة والبربر، الذين كان يسميهم اليهود الأجانب (اليهود العرب) أما المهاجرون من الأندلس، فأتوا خصوصا من الجزيرة الخضراء وميورقة.

وكما ذكرت سالفا، فإن عدد سكان مدينة الجزائر، كان ما يقرب من ستين ألفا، نصفها إسلاميون أوربيون، فقد أسلموا بعد أسرهم في البحر واندمجوا في المجتمع الجزائري، و12.500 من العرب والبربر المتبلدين، وستة آلاف من الأندلسيين، يكونون

تقارين ومورسكوس وهرناتشيروس، و5000 يهودي وعدد من الكرغليين ،وهم أبناء الأتراك والعربيات أو البربريات، وكان الأتراك يكونون طبقة خاصة، شديدة الارتباط بعضها ببعض، وفد أغلبهم من آسيا الصغرى وانضموا إلى صفوف اليلداش، وكانت النظم التي يخضع لها جيش اليلداش هذا، تمكنهم من الوصول إلى أعلى المراتب، أي مرتبة أغا، بل تؤهلهم لأرفع المناصب المدنية.

وكان الترك جميعا، حتى ولو كانوا من صغار الإنكشارية، ينادون باسم الأفندي، ويلقبون بالسادة، ويمثلون جزء من أعيان المدينة.

ومن جملة الرعايا الذين كانوا موجودين في مدينة الجزائر نجد عددا من البسكريين الذين كانوا يتعاطون المهن البسيطة وبني ميزاب الذين كانوا أصحاب المحلات والجزارة والتجارة وعدد من السودان أصلهم من غينيا ومالي وغيرهما.

وحسب حمدان بن عثمان خوجة صاحب كتاب المرآة الذي ألفه في سنة 1833م، حيث يذكر أن أهل مدينة الجزائر في الأصل من العرب الأندلسيين الذين فروا من اضطهاد الإسبان الذين استعملوا مضيق جبل طارق، كوسيلةلإقتراف جريمة الإغراق حتى وصل عدد ضحايا الأندلسيين ثلاثة ملايين نسمة.

ويذكر أن جزءا كبيرا من سكان المدينة يتكون من عرب وترك، والأطفال الذين يولدون من الزواج بين هذين الصنفين يسمون الكراغلة ومن شيمة الجزائريين أنهم حارصون وصادقون ولا يعرفون الحقد والبغضاء وهم كرماء في أعمالهم يحترمون الجيران وكأنهم من الأقارب ورغم أن النساء المسلمات يحجبن عن الرجال الأباعد، فإن الأسر التي تنتمي إلى الطبقات الفقيرة التي لا تستطيع أن تسكن وحدها ويجمع في دار مشتركة على أن تخصص مسكن لكل عائلة ويبقى الرجال في معزل عن النساء.

وأما في الميدان الثقافي فإن الجزائريين يعتنون بالعلوم والآداب، ففيهم الشعراء والأدباء وأساتذة التاريخ والمشرعون.

وأجسام الجزائريين رشيقة، ذلك أن امتزاج العنصر التركي بالعنصر الأندلسي قد أنتج عنصرا مختلطا من النوع الرفيع، الأمر الذي جعلنا لا نجد في مدينة الجزائر رجالا من ذوي العاهات أو المصابين بالأمراض المزمنة مثل النقرس وغيره، كما لا نجد فيها تلك الأمراض الكريهة وأمراض الجلد وغيرها.

يهود الجزائر

أما اليهود فكانوا على مذهبين، فالتلموديون الذين كانوا منقسمين إلى سكليين وكبوسيين يسمونهم "الأجانب" أو العجم والآخرون أي الأهالي البرابرة فيدعون توشابوم " المقيمين" والمذهب كان هو مذهب السفارديم وبعض القرائم.

أما الأشكينازيم فلا وجود لهم في الجزائر، والسفارديم هم التلموديون والآخرون بنو قارئ، أي أصحاب التأويل الظاهر للتوراة.

وكان لليهود شأن في الحياة الجزائرية، أخذت تزداد أهمية على مر الأيام، وقد إنضم العدد القليل من اليهود العرب أو اليهود الوطنيين منذ القرن الخامس عشر إلى إخوانهم من يهود إسبانيا، وحدث أول إستقرار لهؤلاء اليهود الأندلسيين في مدينة الجزائر عام 1591م، تحت إمرة الريانيين دوران و رافت في القرن السادس عشر، وقد سمح لهم خير الدين بالإقامة في مدينة الجزائر، لكنه حدد لهم عدد الحوانيت التي يفتحونها، وفرض عليهم ضريبة وقد تضاعف عددهم سريعا على الرغم من كل أنواع الاضطهاد التي لحقتهم من الترك والمغاربة، ومنها إكراههم على إتخاذ زي خاص بهم.[8]

وقد ذكر هايدو أن مائة وخمسين أسرة يهودية لا أكثر كانت تسكن الجزائر في نهاية القرن السادس عشر، وقدر الأب دان عددهم في عام 1634 بعشرة آلاف يهودي، ثم قدرهم لوجييه ده تاسي في عام 1725 بخمسة عشر ألفا، ولا شك في أن هذا التقدير لم يخل من المبالغة وبدأ يظهر حوالي ذلك الوقت فرق واضح بين اليهود الوطنيين الذين كانوا بائسين تساء معاملتهم، وبين اليهود الأوروبيين الذين كانوا من أصل إيطالي، جاء أكثرهم من مدينة لفورنة.

وقد إستفاد بوصفهم أجانب من نظام الامتيازات ومن حماية القنصل الفرنسي، فأثروا من تجارتهم مع أوروبا،و من إستغلال أنظمة الإحتكار والربا المحرم في الإسلام، وقد كان لأكثرهم نفوذا في القرن الثامن عشر كسليمان جاكت (المتوفي عام 1725م) وال بكري وبوجناح.[9]

ثم كان لهذا النفوذ رد فعل، إذ إغتال أحد الإنكشارية نفتالي بوزناخ عام 1805م وأعقب ذلك فتنة دموية، ذبح فيها أغنى أغنياء اليهود، أو أخرجوا من البلاد، ونهبت حوانيتهم، وصودرت أملاكهم، ونقص عدد اليهود إلى أربعة آلاف ويعد هذا إنتهاك تركي لحقوق اليهود الجزائريين للعيش في سلام مع الجزائريين.

8) - أنظر (تاريخ مدينة الجزائر) كتابي، الطبعة الأولى/ ص37/38، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1989.

9) - نفس المرجع، ص37.

الأوروبيون في المدينة

وكان الأوروبيون في مدينة الجزائر، إما عبيدا أو تجارا أحرارا، أما العبيد فهم الذين أسرهم القراصنة مع غنائمهم البحرية أو أثناء غاراتهم على شواطئ البحر المتوسط، وخاصة شواطئ إسبانيا وإيطاليا وكورسيكا وسردينيا، وكان قسم من هؤلاء العبيد من نصيب البشوات.[10]

أما الباقون فكانوا يباعون لمن يدفع فيهم أغلى الأثمان، في موضع خاص بذلك، وكان الأسرى يعملون في المنازل، أو يستخدمون في المدينة نفسها أو في الحدائق خارج الأسوار حسب مشيئة ساداتهم وكانوا كذلك يسخرون في تسيير السفن الكبيرة بالمجاديف أياما معلومة وكانوا يحبسون ليلا في دور خاصة تابعة للحكومة أو مملوكة للأفراد، أما الأوروبيون[11] الذين كانوا يتمتعون بحرية مطلقة، فقد كان عددهم دائما قليلا، وقد كانت في مدينة الجزائر جالية أوروبية صغيرة مكونة من مائة شخص على الأكثر، تتألف من القناصل، ومن بينهم قنصل إنجلترا وفرنسا اللذين كانا يتنازعان الصدارة ومن الموظفين في مكاتب القناصل وقليل من التجار.[12]

مجتمع مدينة الجزائر إبان العهد العثماني

حياة مجتمع المدينة

كانت الحياة الاجتماعية لأهل مدينة الجزائر لها طابعا ومميزاتها الخاصة إبان العهد العثماني، ونستطيع أن نلمس عن كثب عادات وتقاليد وأنماط العيش لدى مجتمع المدينة من خلال الحفلات والأعراس والمآدب والمقاهي ومرتديها، وكذا الحمامات، كل ذلك يمدنا بمعلومات هامة عن حياة المجتمع.

حمامات المدينة

والحمامات مثلا في مدينة الجزائر، كانت لها أغراض اجتماعية هامة زيادة على عملها التنظيمي، والمصادر المائية لمدينة الجزائر، كانت كافية لتزويدها بالمياه المستمرة الجريان لأنابيب الحمام وكذا لسد حاجة نسبة كبيرة من سكان المدينة، وقد كان الحمام هو المكان الذي ينتظف الجزائريون فيه.

---

10) - أنظر (المرآة) لحمدان بن عثمان فرجة، تعريب د/ العربي الزبيري ص102/101.

11) - نفس المصدر 102.

12) - نفس المصدر 102.

ففيه يلتقي الرجال والنساء وكل في قسمه المنفصل وفيه يتفق على الزواج أو بداية مبادرته الأولى، وفيه يتحدثون عن مراسيم الدفن، وتحصل الأعمال التجارية إلى مرحلة الاتفاق، وفيه تحكى الحوادث العائلية بين الأصدقاء.(13)

لقد كان هناك من الحمامات حوالي سنتين في أيام "هايدو" وكانت بناياتها واسعة ونظيفة مضاءة من السقف ومجهزة بالماء البارد والمسخن، يدخل المستحم فيدفع أجره بورقتين ثم يضع ثيابه في غرفة خارجية واسعة، ومنها يمر عاريا إلى حجرة أخرى عريضة قد قسمت الى مكعبات تتسع كل منها لأشخاص يتراوح عددهم بين عشرة إلى اثني عشر.

وفي كل مكعب يمر الماء الساخن عبر أنابيب البرونز المقامة على الحيطان والمعممة لساحابات البخار، ويمر المستحم عبر بخار تزداد حرارته شيئا فشيئا حتى يصل إلى ما يسمى بالسيكاك أوداسي، كاليدار يوم لدى الرومان وهناك يتمدد على أرائك من القطيفة تغمرها سحابات من البخار الساخن المعبأ بالرائحة الزكية، ويتدبر بفكره في عجائب الحياة الدنيا وبعد استراحته في هذه الوضعية الباعثة على النوم ولعدة دقائق يظهر اثنان من الهزميتسر أي الخدم الأقوياء فيمططون من جنباته حتى تتطرق جميع مفاصله، ويقلبونه كالخبز الناعم،، ثم يحكون من على جسمه بقفازات لا ظفر لها، فيخرجون أكثر من الرطل وبعد عودة المستحم إلى غرفة الملابس، يتناول كوبا من (الشربة) يقدمه خادم، بعد أن يبخ عليه عون آخر بماء الزهر يلبس ثيابه، ثم يغادر المكان ودمه يسير في دورة غير عادية من الحيوية ويحيط به شعور عام من النشاط يسري في كل جسمه المنبعث بحيوية جديدة.

ولقد كانت حمامات النساء تشبه حمامات الرجال، ولكن الإجراءات كانت أكثر طراوة والزبائن كانت أمامهن وقت أكثر ومناسبات أقل للتجمع مع الأصدقاء.

فبعد أن تنجز السيدات مختلف مراحل البخار في الحمام ذاته، تقوم النساء الخادمات بغسلهن من الرأس إلى القدم مستعملين ماء الزهر ويبخون عليهن المسك والعطور الأخرى.

وبعد هذا تصبغ حواجبهن ثم يلبسن ثيابهن التي تكون قد علقت من البداية في معالق تحتوي على أريج عود القمار المشتعل وتنتظرهن في غرفة الملابس ليس فقط (الشربت) ولكن الفاكهة والجوز وحلويات أخرى تشمل الحلوى المفضلة لدى الترك (الحلقوم) ونوعا من حلوى أصابع العروس.

---

13) - انظر دراسة نشرت عن الحمامات في كتاب وليم سبنسر (الجزائر في عهد رياس البحر تعريب د/ عبد القادر زبادية ص95

كما تقوم ربات الحمام أيضا بتهيئة جو موسيقي، وتحضير فتيات للرقص وفي هذا الجو المبهج تقضي السيدات الجزائريات يوما من أيام الأسبوع أما الزواج في مدينة الجزائر، فكان له دستوره الهام، فهو يجمع عناصر الترفيه والسياسة والسلوك الاجتماعي الخاص، والعرف والتقاليد والاقتصاد، واستمرارية الارتباط العرقي.

وهناك ظاهرة كانت شائعة في خصوص العرف الزواجي[14] بمدينة الجزائر المتمثل في التوسط، ويتم عادة عن طريق امرأة مسنة صديقة زوج وزوجة المستقبل.

وفتيات الجزائر كن يبلغن سن النضج عند اثني عشرة وثلاثة عشرة سنة، ونظرا لسرية العامة المتعلقة بالأنثى فأن المتوسطات كن يقمن بعمل ذي قيمة.

المقاهي العربية

أما المظهر الآخر من الحياة الاجتماعية في مدينة الجزائر، فيتجلى في المقاهي العربية، التي كانت موجودة في العهد التركي، ثم بعد الاحتلال الفرنسي البغيظ للمدينة، وحسب الرحالة الألماني فاغنر، الذي زار مدينة الجزائر ما بين (1836/1835) وتحدث عن رحلته الميمونة هذه، فقال: أن عدد المقاهي العربية، كان يزيد عن الستين في القسم الأعلى من المدينة.

ويذكر انه كان يقضي كل أمسية في واحدة منها دون أن يندم على الوقت الذي قضاه فيها أبدا.

وتعتبر المقاهي من الأماكن التي تتيح للأجنبي أن يتعرف على الشعب ويتعلم لغته، بل لا يوجد بالنسبة له مكان يتعلم في التعابير الشعبية مثلها يتعلمها في المقاهي.[15]

ويشير أن الأهالي لا يتحدون فيه كثيرا، ومن هنا يستطيع الإنسان أن يدرس ملامح رواد المقاهي، وهو جالسون فوق الأرض، فيرى الحضري الهادئ جالسا قرب التركي في لباسه الفخم، ويليه زنجي أسود كالقار، يرتدي نفس اللباس، وبعده عربي من البادية، طويل القامة جميل المظهر، وقد غيرت الشمس لون بشرته، يغطي عضلاته الفلاذية برداء طويل أبيض، وفوق رأسه عمامة، يلتف بها حبل من وبر الجمل وغير بعيد منه قبائلي بقامته القصيرة، ونظراته الثاقبة، ثم الميزابي من الصحراء، وبسكري من بلاد الجريد، وبينهم فرنسي في لباسه الرسمي، وقد تعود على حضور جميع الحفلات، وأخذ يظهر جوانب من مزاجه المرح في كل مكان.

---

14) - أنظر نفس المصدر، ص96.

15) - أنظر دراسة مترجمة من الألمانية إلى العبرية بقلم د/أبو العيد دودو تحت عنوان (الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان) ص63

أجمل مقهى عربي في شارع البحرية، وبه قاعة مقسمة إلى مقصورات تستند على أعمدة، وتتسع لعدد كبير من الزوار.

ويضيف فاغنر أنه شاهد من هذا النوع من المقاهي في أواخر سنة 1836، ولكنه أضيق، وكان يقع في شارع لالاهم، وقد أصبح كلاهما أثرا بعد عين، فقد إشتراهما الأوروبيون وأقاموا مكانهما بنايات على الطراز الفرنسي، وقضوا في مقابل ذلك على جانب كبير من أصالتها الشرقية، فليس هناك اليوم مقهى واحد يشبه المقاهي القديمة.

فالمقاهي التي عاصرها فاغنر أدخلت عليها تعديلات من حيث الشكل فهي مستطيلة وتغطيها حصائر من سعف النخيل، ويجلس فوقها الرواد على الطريقة الشرقية، ويقع المطبخ في منخفض بمؤخرة القبو، وتقدم القهوة في فناجين[16] من الخزف فوق صحون من الصفيح، ويجلس صاحب المقهى عند المدخل في وقار دون أن يهتم بمحله الكبير، ويستقبل الزائر الأوروبي قائلا "مساء الخير يا سيدي" وأخاه في الدين "وعليكم السلام" ثم ينادي في إتجاه القبو "جب قهوة-جب سبسي" والطباخ من السود عادة، أما النادل فهم من أبناء الحضر، ووجوههم شديدة البياض موردة، وفوق رؤوسهم الحليقة، قلانس حمر ألبستهم في الأماكن التي يكثر فيها الرواد نظيفة وفاخرة وفي بعض الأحيان ولا تتجاوز أعمارهم السادسة عشرة، وقد تركت الأعمال اليدوية آثارها على ملامح البعض منهم.

الأنس والطرب في المقاهي العربية

لا تخلو المقاهي الكبيرة من الموسيقى خلال أيام الأسبوع ومكان الجوقة في العادة قرب المطبخ، مما يجعل أعضاءها ينظرون إلى القدور التي يتصاعد منها البخار، ويستمدون منه الحماس، وتتكون الآلات التي يستعملها الفنانون الجزائريون من الرباب والنايات والقيثارات المختلفة والطار، غير أن الأخير يستعمل في الحفلات التي تقام في الهواء الطلق أكثر مما يستعمل في المقاهي، وتخلو هذه كذلك من الطنبور والموسيقى الصاخبة الخاصة بالأعراس وحفلات شهر رمضان.

فرواد المقاهي يفضلون الإستماع إلى الموسيقى الرتيبة الهادئة التي تدغدغ حواسهم، وتناسب الأحلام التي يستسلمون إليها في لذة، وينفرون من الأنغام القوية التي تذكرهم بقعقعات السلاح وبطولات الأجداد.

16) - نفس المصدر، ص65.

ويقع أكثر المقاهي العربية روادا في شارع الديوان قرب مسجد كتشاوة ويتردد عليه كثير من الأوروبيين، فالقهوة فيه ممتازة والمجلس شائق، والجوقة كبيرة، وقائد الفرقة عربي عجوز، وهو عازف بارع على الربابة، يشد الأنظار إليه بغرابة تمثيله الصامت واهتزازات رأسه، وحركاته الرزينة الرتيبة، وكان في الماضي أحد أعضاء الفرقة الخاصة بالداي الأخير، ويمارس العزف في الأعراس الجزائرية التي تفتح له أبوابها باستمرار يسمعها أنغامه اللطيفة وصاحب المقهى فهو أخو إبراهيم شاوش، جلاد الداي ويتمتع مثله بمكانة مرموقة عند الحضر.

والحفلات التي تقام في مقهى القسم الأعلى من المدينة أكثر أصالة وصخبا، خاصة ما يقع منها قرب القصبة، فهناك يقع المقهى اليوناني، الذي يحاول صاحبه إغراء جمهوره بأحقر الوسائل فترى الأهالي وكثيرا ما يختلط بهم الأوروبيون، يصخبون فيه ويصرخون مع الموسيقى الصاخبة، دون فارق ديني أو عنصري، فيجتمع المسلم والمسيحي، واليهودي، والأوروبي، والإفريقي في هذه الأماكن المثيرة الصاخبة وتمتزج تلك الأصوات كلها بأصوات النساء اللواتي يتبادلن الحديث مع عدد من رواد المقاهي.

الحياة الفنية في مدينة الجزائر

من العادات الجميلة التي لها صبغة شاعرية مؤثرة رقصة عربية تدعى "النبيتة" التي كانت سائدة في مدينة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي البغيض وبعده بقليل، وتقوم بأدائها راقصات جزائريات مع جوق موسيقي، فوق فراش على الأرض في بيت عربي تقليدي بالقصبة فتقع الحفلة بعد جمع دزينة من المشاهدين الكافين لإقامة حفلة خاصة وكل واحد من رواد النبيتة، عليه أن يدفع مبلغا كبيرا من المال من أجل مشاهدة الحفل.

وكانت الراقصات ترقصن والجميلات يتمددن على شكل دائرة مفتوحة وتقدم القهوة والنرجيلة للنساء، وكانت المسامع أنغام حزينة تحرك رغم رتابتها أوتار القلوب، فهي أنغام لطيفة عذبة هادئة دائما لا يقطعها صوت عال جدا.

وكانت الأنغام تعلو و تنسجم انسجاما تاما، ولكنها بمجرد أن تصل إلى النقطة التي ترتفع عندها، تعود لها رتابتها القديمة.

فقد كانت رتيبة، إذ لم يكن هناك سوى ثلاث أو أربع نغمات تنطلق من لحن واحد وتتناوب باستمرار ومع ذلك فقد كانت لهذه الموسيقى فتنتها.

إنه وصف حي لأمسية موسيقية جزائرية في الحي العربي بالقصبة تعبر هذه الطريقة عن مدى تعلق الجزائريين بحضارتهم وثقافتهم وما الموسيقى إلا لون من هذه الحضارة الأصيلة.(17)

وأهل الحضر في مدينة الجزائر، كانت لهم حضارة عريقة وتقاليد وعادات حاول الفرنسيون القضاء عليها، ولكن هيهات، فلم يفلحوا وكثير من الحضر في مدينة الجزائر كانوا يكسبون رزقهم عن طريق التجارة والبعض الآخر يمارس الأعمال اليدوية، فهناك صناعات كثيرة خاصة بهم.

ولا توجد لدى الأوروبيين إلا نمط آخر، فالحرار هو الذي يصنع تلك الأحزمة الجزائرية الجميلة، القصاص يستعمل الحرير أيضا، وللكنه يصنع شرائط الغلائل والبدعيات العربية.

أما الحلاجي فيطرز بالذهب ويصنع على الأخص النعال المخملية النسوية بينما يقتصر السراج على تطريز الجلد بالذهب ويصنع القاوقجي طاقيات النساء من المخمل القاني ويطرزها بالأسلاك الذهبية وترتديها عادة الحضريات واليهوديات بل حتى البدويات والقبائليات(18)، ويمتاز "السلوبجي" من بين الذين يعرضون المشروبات الجزائرية الأصيلة للبيع، فإنه يعد مشروبا لا يعرفه الأوروبيين بالمرة، ويعرضه للبيع ويدعى "سلوب"، وهو مشروب يغلى من الشعير المتخمر قليلا والحضر معروفون به، ولا يشرب تقريبا إلا في الصباح، وذلك في ساعة مبكرة، ويقبل الناس على شربه في الشتاء بكثرة لأنهم ينسبون إليه خصائص مدفئة(19).

وجميع هؤلاء الصناع العرب (في المنتصف الأول من القرن التاسع عشر لا يكسبون كثيرا وأحسن عامل لا يزيد دخله اليومي عن فرنكين اثنين أما مدخول أغلبيتهم فيصل إلى فرنك واحد أو دون ذلك ومع هذا فإن الجزائري يفضل أن يكون صانعا.

ويوجد بينهم عدد كبير ممن يستخدمون الجلد في أعمالهم فيصنعون الأحذية والسروج ويوزعونه في جميع أنحاء البلاد.

ونشأت في مجتمع الجزائر في العهد العثماني المدينة لا القطر عادات ومناسبات للاحتفال بالأعياد وللتسلية فكان يجري مثلا في شهر رمضان عادات ختم صحيح

17) - أنظر هانيرس فون ماليتسان (ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا) ترجمة أبو العيد دودو ص63/64 قد قام هذا الرحالة الألماني الذي هو من أصل انجليزي بزيارة لمدينة الجزائر في سنة (1851/1852) مكث فيها مدة تعلم أثنائها اللغة الدارجة الجزائرية ووصف ما زاره في رحلته.

18) - نفس المصدر.

19) - نفس المصدر.

البخاري في المساجد وإضاءة الشموع فيها وهذه الشعائر الدينية التي تقام في المدينة وأهم ظاهرة في هذا الشهر هي أن المدينة تسهر خلافا لسائر الشهور فقد جرت العادة أن لا يخرج أحد من داره من غروب الشمس إلى شروقها وكانت المدينة تغلق أبوبها فلا ترى أحد يمشي في الشارع ليلا أما في رمضان فالجميع يخرجون ويسهرون حتى النساء اللائي كن يخرجن سافرات متخذات من الليل حجابا ولكن المرأة لا تخرج وحدها في هذه المناسبة وهناك ألعاب كانت تجري يوم عيد الأضحى من ذلك الألعاب البهلوانية التي تشبه المصارعة والتي كانت تجري يوم الجمعة أيضا وهي لعبة لم تكن خاصة بمدينة الجزائر بل كان يمارسها الناس خصوصا الأتراك في معظم مدن القطر أما في العاصمة فقد كان يحضرها يوم عيد الأضحى الباشا أو الداي وكبار رجال الدولة.

وخلاصتها أن أشهر اللاعبين يتقدمون زوجين في حوالي عشرة أزواج ويصعدون على الحلبة المعدة لذلك ويجلس الداي وأعوانه على زرابي حول الحلبة ثم يشرع اللاعبون في مصاعتهم القائمة على خفة "الحركة" والمهارة في الغلبة وإظهار القوة كل اثنين يأخذان فترة من الوقت وهكذا إلى أن ينتهي مجموع اللاعبين وبعد ذلك يمنح الداي بعض النقود لكل واحد منهم ولم تكن اللعبة البهلوانية أو لعبة "المصارعة" خاصة بيوم عيد الأضحى بل كانت تجري كل يوم جمعة غير أن الباشا أو الداي لا يحضرها إلا في المناسبة الأولى أما اللاعبين فكانوا لا يلعبون إلا في عيد الأضحى وكان ليوم الجمعة مظهره الخاص ففيه تغلق المدينة أبوبها عند الصلاة كما تغلق جميع الدكاكين نوافذها ومعظم التجار لا يعودون لفتح الدكاكين بعد الصلاة بل يذهبون في نزهات خاصة مع أهلهم ويخرجون إلى بساتينهم القريبة أو يزورون بعضهم البعض أما النساء فقد كن يتوجهن منذ الصباح الباكر إلى المقابر لزيارة موتاهم وقد كانت هناك حفلات أخرى تسلي الناس وتدفع عنهم الضجر مثل مسرح القراقوز الذي أدخله الأتراك ومن ذلك أيضا حلقات انشاد الشعر الشعبي حيث يقوم المداحون بقص السير والأخبار ومغامرات الأبطال والفرسان، وقد شاع في الجزائر عندئذ شرب القهوة بكثرة ومضغ الدخان وتدخينه في السبسي أو الغليون ولم يكن شرب الخمر شائعا عند الطبقات العالية ولا ذوي الشأن والعلم لأنه حرام ولأنه لا يليق بالمقام.

ألوان الطعام في مدينة الجزائر ابان العهد العثماني

كان أهل الحضر يحسنون طبخ ألوان كثيرة من الطعام ويمكن أن نطلع على نوعية هذا الأكل من خلال ما كان يقدم إلى المدير العام للبحرية أثناء العهد التركي أو العثماني (في أواخر القرن الثامن عشر) فكان مدير البحرية هذه مثلا يتلقى في

الصباح وجبة خفيفة من زوجته متى كان متزوجا، ويشاركه فيها عادة نائب مدير السجن والخوجة التركي.

وبين الساعة العاشرة والحادية عشرة تصله أطباق من النحاس المطلي جيدا بالقصدير، مغطاة بأطباق أخرى، مليئة باللحم المحمر والمغلي ولحم الطيور، والكسكس الذي يطبخ عادة بدجاج مقطوع الأطراف وفي كل يوم يحضر صحن كبير من الشربة مع كوب كبير من اللبن من قصر الداي، ونفس الكمية أو أكثر من منزله الخاص، ويضاف إلى ذلك كمية كبيرة من أجود أنواع السمك الذي يقدمه اليه صيادو السمك هدية ولكن "الفيكلهارش" يدفع ثمنه بسخاء، ويتولى طبخه العبيد الذين يعملون في السقيفة، وهذه المأكولات بالإضافة إلى خبز من النوع الممتاز هي التي تشكل الغذاء اليومي الذي يدعى اليه الأميرال وقبطان الميناء والرايس المحظوظ وغير هؤلاء من الأصدقاء الذين تأتي بهم الصدفة.

ومتى تجاوز عدد الضيوف خمسة (أو ستة)، تنازل الخوجة التركي عن مقعده للغريب، ويأكل هو بعدما ينتهون من الغذاء برفقة الموظف والكتاب العرب ورئيس الصيادين.

أما فواكه الموسم فترسل إلى هذه المائدة من قصر الداي ومن منزل المدير العام معا[20].

والفرق الوحيد بين منازل الأغنياء وغيرهم هو أن هؤلاء يتناولون الطعام في غرف جميلة ويستعملون نوعا من المنضدة ذات ثمانية أرجل مصنوعة من أرفع أنواع الخشب ومطعما بالصدف وترس السلحفاة يبلغ ارتفاعها ثماني عشر بوصة يضعون عليها "السفرة" وهي عبارة عن صينية كبيرة مصنوعة من النحاس المقصدر، يوضع عليه الطعام، وبدلا من الجلوس على مقاعد مثيرة يجلسون متربعين على السجاد، متى كانوا من درجة واحدة.

وأما الذين يتناولون الطعام مع الداي، فهم مضطرون إلى أن يركعوا ويجلسوا على سيقانهم ويتناولون الطعام.

والخبز يكسر قطعا صغيرة ويوضع أمام كل واحد من الضيوف مع الملعقة أما اللحم فيقطع دائما شرائح قبل أن تطبخ. والطيور تطبخ عادة بكاملها وعندما تقدم للأكل تكون مطبوخة وناضجة بحيث تقطع أطرافها بسهولة ومن ثم فان الجزائريين لا يحتاجون إلى استعمال السكاكين والفرش مثلما هو معمول به عند الأوربيين.

---

20) - انظر مذكرات أسير الداي (كاثكارت) قنصل أمريكا في المغرب ترجمها عن الانجليزية الأستاذ اسماعيل العربي ص72

والمائدة تغطى بقطعة من الموسلين تكون أطرافها مطرزة في كثير من الاحيان ويبلغ طولها عدة ياردات وتلف حول المنضدة بحيث لا تسقط أطرافها على الأرض، وبعد ما يتم تجهيز كل شيء على هذا المنوال، يرسل في طلب الضيوف الذين يغسلون أيديهم قبل الشروع في الأكل.

وبعد ذلك تؤخذ المقاعد وتوضع بجانب الباب وتجلس الجماعة ويسدل الستار دونهم. ثم يقوم خادم مسيحي وعلى كتفه منديل نظيف بوضع الصحون على المائدة صحنا بعد صحن أمام كل واحد من الضيوف وينتظر الجميع حتى يبدأ رب الدار. ثم يقوم كل واحد منهم برفع طعامه بواسطة ملعقة إلى صحنه وأما اللحم فيأخذه بيده.

يبدأ الجماعة أكلهم بالشربة ويعقبه اللحم المحمر، ثم السمك، متى كانت قائمة الطعام تشتمل على سمك، ويأتي الكسكس الذي هو الصحن الرئيسي في الأخير وبه تختم المائدة.

وعقبه تنظف المائدة ثم توضع عليها الفواكه، كما يتناولون الشربة بالملعقة مصنوعة من ترس السلحفاة ويدها من العاج مزين بالعنبر والمرجان أما الملاعق الصغيرة فهي مصنوعة من نفس المادة أو من الخشب ثمين وتزين وتزخرف حسب ثروة مالكها ...وهي تحضر من المشرق وتقدم هدايا، أو تكون بضائع للتبادل التجاري[21].

وعندما يشرب رب الدار أو ينتهي من طعامه يتمنى له الجميع صحة طيبة بقولهم "صحة عليك" ثم يشكر الله ثلاث مرات ثم ينهض من مقعده ويقف الضيوف معه، ويتجه الجميع لغسل أيديهم[22].

وعندئذ يحمل الصحون ويرفع الستار المسدل وتعود الأمور إلى النظام الذي كانت عليه من قبل وبعد الانتهاء من تناول طعام الغذاء يجلس الضيوف على مقاعدهم لتقدم لهم القهوة وأحيانا الغليون أيضا حينما يكون الضيف مدخنا وعقب ذلك ينهض الجميع الواحد تلو الاخر حسب مراتبهم ثم ينصرفون وبذلك تنتهي المأدبة.

على كل حال فالناس البسطاء هناك من يتنازلون عن جميع الأكلات الساخنة عن طيبة خاطر (باستثناء مآدب المناسبات)، ويكتفون بتناول غذاء يتكون من الخبز وقليل من الزيتون وشيء من كسرة الشعير وأشياء أخرى بسيطة والحضري لا يحتاج إلا إلى شيئين ضروريين جدا، وهما حلاقة الرأس والحمام، والحفاف لدى الحضر شخصية متميزة وكثيرا ما يجتمع الأعيان عنده.

21) - انظر نفس المرجع

22) - مازالت هذه الظاهرة الحميدة موجودة حتى اليوم في المجتمع الجزائري وهي تعبير عن مدى تحضر الجزائريين وتعلقهم بآداب الأكل

على كل حال فان الخبز ولحم الضان والدجاج، والسمك والزبدة وزيت الزيتون والفواكه والخضروات والكسكسي ويدعى أيضا الطعام وهو يصنع من عجينة "تشبه العجينة" التي تصنع منها المقارونة "الايطالية" والكسكسي يمنك اعتباره وجبة وطنية، وهو بمثابة المقارونة في ايطاليا والأرز في الهند.

والكسكسي في مدينة الجزائر يعد بمثابة طبق شعبي يفتل حبات صغيرة في قصعة مصنوعة من الخشب ثم يوضع في كسكاس ويطهى بالبخار وقد يرفق بالمرق والخضروات أو يقدم بالبيض المسلوق أو بأعشاب أو بالعسل الخ...

والكسكسي لذيذ الطعم ومغذ جدا والطبقة غير الميسورة التي لا تستطيع شراء اللحم تحضره بالزيت الزيتون أو مدهونا بالزبدة.

وكان أهالي مدينة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي لا يستهلكون من لحم البقر، وهم قلما يذبحون بقرة ولا يذبحون عجلا أبدا وفي أجود الفصول التي يكثر فيها العشب كانت تعمد كثير من عائلات مدينة الجزائر الى ذبح ثور أو ثورين ويقطع لحمه ثم تجففه في الشمس وبعد ذلك يغلى في الزيت ثم يحفظ في أواني أو يغطى بالزيت أو بالسمن ويوضع في الخابية لاستهلاكه في وقت اخر وهو ما يدعى بالخليع عند عامة الشعب.

الحياة الثقافية في مدينة الجزائر في العهد العثماني

لم تكن مدينة الجزائر قبل العهد العثماني إلا مدينة ساحلية صغيرة قليلة الاهمية، فلم تعرف كمركز ثقافي مثلما كانت بجاية أو تلمسان لم تنل ما نالته من أهمية إلا بعد دخول الأتراك، فأصبحت تعرف "بدار السلطان" والمركز السياسي في البلاد، فأحرزت على حظوة كبيرة ووفد عليها السكان في اعداد وافرة، قادمين من مخلف الجهات وخاصة من منطقتي تلمسان وقسنطينة. وكان لمدينة الجزائر رصيد هام في ميدان الموسيقى وتطورها خاصة بعد أن هاجر اليها عدد كبير من الأهالي الوافدين على الجزائر على اثر الهجمات الاسبانية وكانت توجد قرابة وثيقة بين رصيد تلمسان الموسيقي المعروف بالغرناطي ورصيد مدينة الجزائر المسمى بالصنعة، رغم ما يحتويه هذا الأخير من فوارق واضحة في الاسلوب الأداء الالي والصوتي وفي الهيكل العام لنوباته، وهي لم تتمكن من اللحاق بالنوبات التلمسانية التي بقيت محافظة على أصالتها(23).

---

23) - انظر دراسة بقلم/ محمود قطاط- تحت عنوان تراث الموسيقى الجزائرية ص182

أما في ميدان الثقافة وأعني الفكر والأدب، فمدينة الجزائر لم تكن مشهورة كمدينة علم وأدب مثلما هو الامر بالنسبة إلى مدينة فاس أو تونس أو القاهرة أو مراكش أو بجاية أو تلمسان، ولكن هذا لا يعني انه لم تكن بها مدارس علم ومساجد تعقد فيها الحلقات العلمية بل كانت توجد بها دور العلم والثقافة

موقف العلماء الأتراك من العلماء المفكرين

يكمن النقص لدى أتراك الجزائر أنهم لم يعنوا بالمفكرين والمثقفين اية عناية تذكر، فلم يؤسسوا جامعة كالقرويين بفاس أو الأزهر بالقاهرة أو الزيتونة بتونس، تبث العلم وتخرج العلماء والكتاب وتحفظ اللغة وتربي العقل، ثم انهم لم يكونوا يتكلمون لغة البلاد. ولا يتذوقون أدبها ولا يقرؤون كتبها، ولا يتصلون بعلمائها اتصالا عاطفيا وعقليا كما فعل مثلا سلاطين المغرب أو أمراء تلمسان أو حتى بايات تونس.

فهم لم يعقدوا المجالس العلمية والمناظرات كما كان يفعل قبلهم أمراء بني زيان وبني حفص وغيرهم، وهي المجالس التي كانت تشحذ المواهب ويتنافس فيها العلماء وتبرز القضايا الفكرية والخلافات المذهبية، ثم أن حرمان مدينة من جامعة أو معهد للتعليم العالي قد يجعل معظم علمائها يتكونون خارجها.

على كل حال لا يمكن أن ننعت عهد الأتراك في الجزائر كعهد انحطاط وجمود ثقافي، لأن الواقع من الناحية التاريخية عرف حالة انتعاش بفضل استقرار الأوضاع السياسية، وازدهار الحياة الاقتصادية وتوارد العلماء المسلمين على الجزائر، ووفرة الكتب.

علماء مدينة الجزائر

وكان العلماء يمثلون الرأي العام في الجزائر خلال العهد العثماني فهم رغم ترفعهم الطبقي عن العامة، كانوا على صلة بالناس في الدروس ومجالس الفتوى والقضاء والزوايا وخطب الجمعة ونحو ذلك وكان بعض العلماء يجلسون في المقاهي ويختلطون بالناس في الأسواق ايضا، وكان بعضهم يكثر عليه الازدحام في الدرس والخطبة حتى يلفت النظر لنفسه فتخشاه السلطة.

وكان الناس يثقون في رجال الدين أكثر مما يثقون في رجال السياسة والحرب، ولهذه المكانة التي كانت للعلماء، و كان العثمانيون يقدرونهم ويخشونهم ويتقربون منهم ويطرونهم ويمنحونهم الهدايا

ويطلبون تأييدهم في أيام الشدائد كما أن العلماء كانوا يلجئون إلى الباشاوات والبايات طمعا في مال أو وظيفة أو تأييد ضد منافس.

واحتكر العلماء في الجزائر وظائف معينة في المجتمع، وهي الافتاء والقضاء والتعليم والأمانة والخطابة[24].

وكانت الاسر العلمية تتميز بالثراء الغزير، فقد لاحظ التمغروطي صاحب النفحة المسكية في اواخر القرن العاشر، أن علماء الجزائر تغلب عليهم المادية، فقال أن حب الدنيا وإيثار العاجلة والافتتان بها غلب عليهم[25].

والمفتي سعيد قدوره، كان ذا مال يشارك به بعض التجار، وجاء في كتاب المفتي أن عمار بن عبد الرحمان المستغانمي، كان ينفق على ضيوفه بين ثلاثين وأربعين ريالا في الليلة الواحدة، وقيل عن المفتي أحمد الزروق بن عمر بن داوود، أنه كان صاحب ثروة.

وشهد القرن الثاني عشر الهجري (18م) وأوائل الثالث عشر حركة قوية في صفوف العلماء والعناية بالتعليم وكثرة التكاليف.

ففي أواخر القرن الثاني عشر الهجري (18م) بدأت نهضة فكرية شملت تشجيع التعليم والعناية بالأوقاف والاهتمام بالعلماء والكتب، وقد ساهم في هذه الحركة بعض البايات، أمثال صالح باي، والحاج محمد الكبير[26].

وقد سيطرت عدة ظواهر على الحياة الثقافية (يضيق المقام عن ذكرها بالتفصيل من اهمها انتشار التصوف والدروشة وشيوع الشروح والحواشي على أعمال المتقدمين والثقافة الموسوعية) والحفظ، فالتصوف الذي يعني الزهد والتقشف والصلاح والعمل بالعلم والابتعاد عن الدنيا وأهلها (ويمكن أن نضرب مثلا التصوف الصالح، تصوف الامام الغزالي صاحب المنقذ من الضلال، وإحياء علوم الدين)، قد ترك مكانة في أغلب الاحيان إلى نوع من التصوف هو أقرب إلى الدروشة، والدجل منه إلى الاصلاح، لذلك شاعت مغامرات مدعي الولاية من أصحاب الطرق الدينية.

وكانت السلطة متواطئة مع هؤلاء، أو غاضة النظر عنهم، وقد شاع هذا التصوف حتى بين العلماء العاملين كالفقهاء والنحاة والمؤرخين بل حتى بين الولاة والمسؤولين فأنت لا تجد عالما، في اخر القرن الثاني عشر الهجري (18م) إلا وهو منتمي الى

24) - ابو القاسم سعد الله (تاريخ الجزائر الثقافي) الجزء الثاني ص 416

25) - نفس المصدر السابق ص316

26) - ابو القاسم سعد الله (تاريخ الجزائر الثقافي) الجزء الأول ص14

احدى الطرق الصوفية، كالقادرية أو الرحمانية أو التيجانية (نسبة إلى مؤسسها الشيخ ابن عباس أحمد بن محمد بن سالم المختار التيجاني وليد مدينة عين ماضي سنة 1737م ودفين مدينة فاس في 14 شوال 1230هـ19 سبتمبر1815م أو درقاوة الشاذلية، وكان العالم يأخذ الورد والسبحة والمصافحة والخرقة ونحوها من احد شيوخ الصوفية، وقد كانوا يتباهون بذلك ويسجلونه في اثباتهم ومذكراتهم[27].

كما كان بعض الولاة يتقربون إلى رجال الصوفية بوقف الأوقاف عليهم وإعفائهم من الضرائب وبناء القباب والتبرك بهم، وأخذ العهد منهم ونحو ذلك.

وعلى كل حال فقد عرفت مدينة الجزائر[28] نمو عدد سكانها وشيوع المدارس والمساجد بها، التي تغذي المجتمع بثقافة روحية وعقلية خلال العهد العثماني، وكانت في مدينة الجزائر عائلات اشتهرت بالعلم والتأليف والدرس أو بالزهد والتصوف منها عائلة ابن السكات وكذا الزاهد العالم عبد الرحمان العثماني وتلميذه أحمد بن عبد الله الجزائري، وابن حمادوش. إهتم أبو القاسم سعد الله بأعمال هذا العالم الجزائري الذي كان فريد عصره في ميدانالبحث العتمي فحقق مخطوطه المتعلق بالعلوم التي كان لإبن حمادوش إلمام بها و تعرف على صنع البومبة وأجرى تجارب في هذه المضمار كللت بالنجاح وورد كل ذلك في المخطوط الذي جرى تحقيقه على يد د سعد الله. أما عبدالرحمان الثعالبي فإشتهر بالتصوف وحقق السيد عبد الرزاق قسوم كتابا في التصوف .كان من الوافدين لمدينة الجزائر لطلب العلم الرحالة المغربي إبن زاكور الفاسي الذي جاء إلى الجزائر في1039هـ وتتلمدعلى عددكبير من علمائها من جملتهم الشيخ محمد بن سعيد قدورة الذي أجازه في رجب سنة 1094هـ، وعلي أبي حفص عمر بن عبد المؤمن المنجلاتي الذي درس بدوره على يد علي بن عبد الواحد السجلماسي كما درس إبن زاكور على يد الشيخ سعيد بن إبراهيم الجزائري وعلى الشيخ محمد بن عبد المؤمن وغيرهم . على كل حال يعتبر كتاب إبن زاكور الفاسي أزاهير البستان بمن أجازني في الجزائر وتلمسان من المصادر الرئيسية حول الحركة العلمية الراقية في مدينة الجزائر إبان القرن السابع عشر الميلادي .وقد حققه في البداية محمد إبن شنب وقام بتحقيق آخر السيد عبد الوهاب بن منصور. وكانت في مدينة الجزائر مدارس مشهورة لطلب العلم منها مدرسة القشاش التي ذكرها ابو راس في عجائب الأسفار حيث شاهدها عندما زارمدينة الجزائر أول مرة في 1204هـ وكان بمدينة

---

27) - نفس المصدر السابق ص 95

28) - كانت الجزائر في العهد العثماني هي اسطنبول الصغرى كما سماها بعضهم في نظمها السياسية والإدارية، ولعب علماؤها نفس الدور الذي لعبه علماء اسطنبول في الحرب والسلم وكانت تستقبل العلماء من أطراف العالم الاسلامي كما كانت الجزائر منذ اسطنبول تفتقر إلى جامعة اسلامية منوط بها تجريج الفقهاء، و العلماء، والأدباء، وكتاب الانشاء الدواوين. انظر لمزيد من التفاصيل د/ سعد الله (تاريخ الجزائر الثقافي) حول مكانة العلماء ووظائفهم- الجزء الأول- ص 344 وما بعدها.

الجزائر المدرسة العنانية وهي التي هدمت وبني على أنقاضها الجامع الجديد الحنفي وذلك حوالي سنة 1070هـ 1660هـ وفي نفس المدينة كانت توجد مدرسة الجامع الأعظم المالكي، علاوة على مدارس أخري يضيق المقام عن ذكرها كلها .

من أعلام مدينة الجزائر الحديثة: جميلة بوحيرد

جميلة بوحيرد تم إختيارها واحدة بين أبرز خمس شخصيات سياسية طبعت القرن العشرين بعد أكثر من أربعين سنة مازال العالم يتذكرها ويحتفظ لها مكانة ولقب أعطاها منذ عام 1957 .

ولدت جميلة بوحيرد في 9 جوان 1935 بالقصبة ، الفتاة الوحيدة من بين ستة أشقاء تعلمت بالمدرسة الفرنسية قبل أن تدخل معهد الخياطة و التفصيل بسوسطارة، بتشجيع من عمها مصطفى بوحيرد، وانظمت إلى الثورة وهي في العشرين من عمرها عملت في البداية كأمينة سر لعبان رمضان ثم فدائية في مجموعة يوسف سعدي، وكانت من أولى واضعي القنابل أو متطوعات الموت، مع العلم أن ذكائها وشجاعتها جعلا منها الذراع الأيمن ليوسف سعدي ثم سكرتريته الخاصة فيما الذي خسر كثيرا بعد القبض عليها في 9 أبريل 1957م بشارع سيفينكس حيث أصيبت برصاصة في الكتف و سقطت أرضا جريحة ومضمدة على طاولة العلاج، وبدأ إستجوابها من طرف المطليين، وبدأت رحلة عذابها من 9 إلى 26 أبريل رحلة عذاب متواصلة، عانت خلالها جميلة من أشد وأحقر أنواع التعجذيب واستخدموا سكينا حادا في مكان الى الجرح ووضعوا أسلاكا كهربائية في مناطق من جسمها الأنف، الأذنين، الثديين... ومع ذلك رفضت أن تطلعهم على مكان يوسف سعدي وعلي لابوانت، ولقد تحملت مالم يتحمله الرجال أثناء الأستنطاق و أثناء المحكمة المهزلة حكم عليها بالإعدام في 15 جويلية 1957م وضحكت جميلة وصاح القاضي... الأمر خطير هذا أثناء مداولة المحكمة ونقل محاميها جاك فرجيس القضية إلى المحافل الدولية حيث رافع عنها في محكمة الضمير[29] العالمي من خلال كتاب "من أجل جميلة" فتعذيبها الوحشي ومحاكمتها غير العادلة آثار سخط الرأي العام الفرنسي والعربي والعالمي ضد فرنسا وبلغت قصة كفاح جميلة بوحيرد أرجاء العالم حيث أصبح وعي المثقفين والسياسيين والفنانين وأصبحت جميلة رمز لنضال المرأة الجزائرية وكفاح الشعب الجزائري، ويعتبر فيلم جميلة الجزائرية الذي مثلته الممثلة ماجدة بمثابة حدث عظيم قام به المخرج المصري الكبير يوسف شاهين[30] .

---

(29)- انظر نجود على جميلة بوحيرد، مجلة أنوثة الجزائرية اوت 2002 الجزائر، ص/2

(30)- نفس المرجع،ص/2

جميلة بو باشا

أما المجاهدة جمياة بوباشة فقد رسمها الفنان العظيم بيكاسو أثناء عرض قضيتها عالميا، كانت لها نفس المرتبة من ناحية شهرتها على المستوى العالمي - ولدت في 1938م بمدينة الجزائر وكانت تلميذة عندما إلتحقت بالثورة في عام 1955م، وكان دورها نقل الأسلحة و الأدوية و الوثائق للثوار وكذا إيواء المناضلين المطاردين، واعتقلت بمدينة الجزائر في 9 سبتمبر 1960م حيث عانت من أنواع التعذيب واستعمل معها عملية القارورة الشهيرة التي أفقدتها عذريتها، وبقيت رهينة السجن إلى أن أطلق سراحها مع وقف القتال ألفت عنها محاميتها جيزيل حليمي و الكاتبة[31] سيمون دوبوفوار كتابا عنوانه "جميلة بوباشا" وعملت بعد الإستقلال كعضو بالمجلس التنفيذي لمنظمة المجاهدين ولكنها إنسحبت من الحياة السياسية نهائيا وهي الآن أم لثلاثة أطفال[32].

***

مدينة تيهرت

نزل عبد الرحمان بن رستم بتيهرت وهي تعني الدف لتربيعه، وعندما حان وقت الصلاة، صلى إبن رستم بجماعة هناك، فلما فرغ من الصلاة ثارت صيحة شديدة على أسد ظهر في الغابة (أي غابة تاقدامت) فأخذ الأسد وشرع أبناء ابن رستم من تلك الساعة فبنوا في ذلك الموضع مسجدا وقطعوا الخشب من شجر الغابة لبناء المدينة، وكان موضع تيهرت ملكا لقوم مستضعفين من مراسة وصنهاجة ودفع لهم ابن رستم خراجا وبنى هو وأتباعه المدينة وأقبل الناس على بناء الدور والقصور والحمامات والفنادق والحوانت والأسواق فأصبحت مدينة في امد وجيز مدينة عامرة تجارتها زاهرة وقومها مواسير وكان لها عدة موانئ كمنافذ لها منها مراسي تنس، ومستغانم ووهران المرسى الاخير كان يربط الدولة الناشئة بالأندلس وقصدها الناس من الأقطار الاسلامية، فازدهر اقتصادها وتألقت الحضارة فيها وأصبحت على هذا النحو مقصد الرحلات ومركز الهجرات.

---

31)- انظر نفس المرجع انوثة ص/3، اوت 2002 . لايذكر فيما يتعلق بجميلة باشا بصاحب المقالة الصحفية فذكرت المقالة من باب الأمانة العلمية بدون كاتب المقال مع الأسف.

32)- نفس المرجع ص/3.

لما شاع من عدل عبد الرحمان بن رستم للدولة العباسية وحسن سيرته فيهم، ففتحت أبوابها لكل المعارضين السياسيين للدولة العباسية وكان من جملة الوافدين عليها طائفة من الفرس أتوا من ايران وقام الوافدين على تيهرت بالبناء والعمران وغرس البساتين وإجراء الأنهار واتخاذ الرحى والمستغلات فاتسع بذلك عمران المدينة حتى لا نرى دارا إلا قيل لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري، فكانت مدينة عالمية يؤمها الناس من كل حدب وصوب.

واختار ابن رستم تيهرت في تاقدامت القديمة وذلك نظرا إلى رغبة التقرب من الماء وتزويد أهل الحواضر به، وهكذا وجد ما يصبو اليه فبنى في مدينة غزيرة المياه. وكان يأتيها من جهة القبلة نهر يسمى وادي مينة ونهر اخر يجري من عيون تجتمع تسمى تاتش، ومن تاتش شرب أهلها وبساتينها.

تواضع الإمام عبد الرحمان بن رستم

مدينة تيهرت كانت في بداية عهدها مدينة متقشفة متواضعة عليها مظهران، مظهر المعسكر الذي اصبح ينسب إلى مؤسسها، وظهر ديني تسيطر عليه شخصية الامام الزاهد الورع الذي يدير بنفسه شؤون الدولة والمدينة ولما شاع وذاع ذكره في مشارق الأرض ومغاربها أرسل اليه اباضية المشرق من البصرة اعانة مالية فحل الوفد في تيهرت وسأل عن مقر الامام فكانت دهشتهم كبيرة عندما وجدوا غلاما أمام بيت متواضع يعجن طحينا، وعبد الرحمان بن رستم على سطح يصلح شقاقا فيه والغلام يناوله ما يصلح به، وعاد وفد اباضية البصرة إلى تيهرت في جولة ثانية يحملون عشرة جمال من الذهب كإعانة بعد ثلاث سنوات من الجولة الاولى فوجدوا مدينة تيهرت قد تبدلت، اذ أقيمت فيها قصور مشيدة ودور منظمة وأبنية مبهجة وقباب مرتفعة وأسواق مزدحمة ومساجد متعددة بمنارات عالية وحمامات متقنة ويحيط بالعاصمة بساتين متنوعة منتصبة على الانهار الجارية واتخذوها الفرش والستائر المزخرفة والنخيل المسومة وتنوعت الألبسة وتعددت اللغات والأزياء ورأوا ما لم يخطر لهم ببال، ولكنهم رأوا دار الامام عبد الرحمان بن رستم على ما كانت عليه من البساطة وسذاجة البناء.

شكل المدينة

وكانت تيهرت مسورة أي تحيطها الاسوار، ولها أربعة ابواب وهي:

- باب الصفا من الجهة الشرقية
- باب المطاحن من الجهة الغربية

- باب الاندلس في شمال المدينة

- باب المنازل في جنوبها وتستعمله القوافل القادمة من الصحراء.

وبجانب مسجدها الجامع الموجود في المدينة نجد مساجد الاحياء وينسب بعضها إلى الاقليات التي استقرت بتيهرت ومنها على سبيل المثال مسجد القرويين ومسجد الكوفيين، ومن المنشات المعمارية البارزة في تيهرت دار الامارة، اما ابرز اثر معماري في مدينة تيهرت أثناء عهد الرستميين فهي قصبتها المشرفة على السوق وهي تعرف بالمعصومة وهي مؤسسة عسكرية تمتاز بهندستها العسكرية وبقوة بنائها لتكون معصومة من كل هجوم يهدف نظام الرستميين ولكنها كانت تستعمل أيضا في أغراض غير عسكرية فكان ينزل بالمعصومة ضيوف الدولة، وكذلك بعض قضاة المدن للنظر في قضايا المتخاصمين وكانت تيهرت تحتوي على أسواق عامرة وحمامات كثيرة بلغت اثني عشر حماما وهناك أحياء وشوارع وساحات عمومية أطلق عليها أسماء الفئات التي تقطنها، مثل درب النفوسيين وعدوة نفوسة ورحبة القرويين (نسبة لأهل القيروان) وحي اللحم وأقام في مدينة القيروان قوم من القيروان ومن بسكرة والكوفة ومن فاس وكانت تقيم في المدينة مجموعة من العرب وجنود من جيش القيروان الاغلبي الذي نشب الخلاف وبين اميرهم فلجأوا إلى تيهرت وانخرطوا في حرس الامام وكان في المدينة فئة من أهل الاندلس وعدد كبير من الرقيق وبعض المسيحيين منهم بكر بن واحد.

كما كانت مدينة تيهرت كثيرة الغنم، والماشية طيبة المراعي ومنها تجلب الاغنام إلى بلاد المغرب و وبلاد الاندلس لرخصها وطيب لحومها.

وكانت المدينة بمثابة ملتقى تجاريا مهما بين القبائل الرحل التي كانت تأتي لبيع ماشيتها، وشراء ما تحتاجه من حبوب، وثمار وبضاعة مستوردة من الشرق، أما أنواع البضاعة التي كانت موجودة في تيهرت فهي الحبوب والصوف والجلود، وثمار واحات الصحراء وبضاعة بلاد السودان والمشرق، وما يستورد من وراء البحار.

وعرفت المدينة معامل كثيرة كانت تنتج الاواني وما تحتاجه حركة البناء، ولا سيما القصور من الخزف.

الحياة الثقافية

إمتاز أئمة الرستميين بدرايتهم الكبيرة في علم الدين كالأصول والفقه والتفسير وعلم النحو والإعراب والفصاحة وعلم النجوم، ومن كبار علمائهم عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم، و أفلح بن عبد الوهاب وأبا اليقظان، قال أبو زكريا عن الامام عبد

الوهاب أنه سمر ذات ليلة هو وأخوه ليتعلما مسائل الفرائض، فلم يصبحا إلا وهما يورثان أهل المشرق والمغرب، وكان في سمرهما يقدان مصباحا يجعل له عبد الوهاب الفتائل من عمامته حتى اتى عليها.

وكان الإباضية في تيهرت يدعون في اغلب الأوقات أتباع الفرق المذهبية الاخرى لحضور ندوات كان كل مشارك فيها حرا للدفاع عن وجهة نظره وعن مذهبه، وكان يشترط في الشيخ الاباضي أن يكون ضليعا في معرفة اللغة العربية والقران الكريم والحديث والفقه وعلم العقائد وتاريخ الخليفتين الأولين وتاريخ الصحابة رضوان الله عليهم.

وقد عرفت علوم الدين إزدهارا ورواجا في تيهرت، وذلك بفضل وجود ممثلين لكل الفرق في هذه المدينة، فترى السنية والمالكية والصفرية واليزيدية والنكار والمعتزلة والإباضية، وكانت المناظرات بين فقهاء الفرق المختلفة متسمة باللياقة واللطافة.

وكان في تيهرت أدباء وشعراء ومؤرخون وعلماء، وكان من شعراء المدينة الإمام أفلح بن عبد الوهاب، وزيديت الملوشية وهي امرأة شاعرة ومع الأسف لم نجد لها أثرا شعريا ويقال أن شعرها نظمته باللهجة البربرية إضافة إلى شعراء آخرين مثل بكر بن حامد، وسعيد بن واشكل، وأحمد بن أفلح التيهرتي وينسب إلى افلح أبيات في مدح العلم منها:

العلم أبقى لأهل العلم آثارا ... يريك أشخاصا روحا وأبكارا

حتى وإن مات ذو علم وذو ورع ... مامات عبد قضي من ذا أوطار

أما بكر بن حماد (وقد ألف عنه الشاعر الجزائري محمد الأخضر عبد القادر السائحي كتابا) فيعتبر أكبر شاعر في عصر الرستميين، ولد ونشأ في تيهرت وتعلم فيها (200هـ-296هـ) ثم رحل إلى القيروان طالبا للعلم.

رحل بكر بن حماد إلى بغداد ولقى المعتصم العباسي ومدحه، فوصله بصلات جزيلة وله أبيات إلى المعتصم يحرضه فيها على دعبل الذي هجا الخليفة، فقال بكر بن حماد:

أيهجو امير المؤمنين ورهطه ... ويمشي على الارض المريضة دعبل

أم والذي أرسى ثبيرا مكانه ... لقد كادت الدنيا تزلزل

ولكن امير المؤمنين بفضله ... بهم فيعفو أو يقول فضل

وله قصيدة رثاء تيهرت مطلعها:

زرنا منازل قوم لم يزورونا ... انا لفي غفلة عماد يقاسونا

لو ينطقون لقالوا الزاد ويحكم ... حل الرحيل فما يرجو المقيمون

حتى يقول:

فالآن ابكوا فقد حق البكاء لكم　　فالحاملون لعرش الله باكون

ماذا هي تنفع الدنيا مجمعها　　لو كان جميع ما فيها كنز قارون

وقال أحد شعراء تيهرت في مدح مدينته:

فراغ الهوى شغل ومحي الهواء حياة　　ويوم الهوى حول وبعض الهوى كل

وجود الهوى بخل، وسل الهوى عدى　　وقرب الهوى بعد وسبق الهوى فضل

سقي الله تيهرت المنى وسويقه　　بساحتها غيثا يطيب به المحل

قامت الدولة الرستمية في تيهرت على مدى قرن ونصف ويعود سبب زوالها إلى اهمال حكامها تقوية الدفاع عن حوزتها، وتعد اقدم دولة مستقلة سياسيا ومذهبيا في المغرب العربي، كما تعاقب على حكم المدينة الشيعيون والمرابطون والموحدون ودخلها يحي بن غانية مرات عديدة إلى أن هجرها اهلها وخلا جوها وعفا رسمها في 720هـ وكانت المدينة قد بنيت فوق موضوع يسمى تاقدامت جعلها الأمير عبد القادر عاصمة له بعض الوقت مع العلم انها عن تيهرت المعاصرة في عهد الجزائر المستقلة بـ 9 كلم.

قال أحد الشعراء:

خليلي عوجا بالرسوم وسلما　　على طلل أقوى وأصبح أغبر

الما على رسم تيهرت دائر　　عفته الغوادي الرائحات فأقفرا

كأن لم تكن تيهرت دار معشر　　فدمرها المقدار فيمن ندامرا

***

تلمسان عبر التاريخ

في موقع تلمسان الحالي كانت هناك مدينة رومانية تدعى "بومايا" مازالت بعض اثارها ومعالمها ماثلة إلى اليوم.

وتلمسان مشتقة من كلمة "تلمسى" (باللهجة المحلية) وهي تعني المكان الذي استقر فيه الماء. وهناك من يرى أن أصل تلمسان قريتان، الأولى هي "أغادير" التي

أسسها مولاي ادريس الأكبر على انقاض معسكر روماني، والثانية هي" تاقرارات" التي أسسها يوسف بن تاشفين. ثم انضمت القريتان فأصبحتا تلمسان.

تعاقب على حكم تلمسان الأدارسة والمرينيون والزيانيون وعرفت تلمسان أزهى عصورها في عهد الزيانيين وأول ملوكهم هو يمغراسن بن زيان وقد جاء ذكره في نظم الدر لمحمد بن عبد الله التنسي (من مؤرخي القرن التاسع الهجري، الخامس عشر ميلادي) فقال: "فلما بويع أمير المسلمين يغمراسن بن زيان (تولى الحكم سنة 633هـ/1236م)، وأوضح للخلافة الحسينية الاثار، ورفع لمن وصل عن سبيل هداها أعلى منار، فإبتهج الدهر بوجوده وأشرق من فلك اليمين نجم سعوده، وأحضر للملك ما كان قد ذبل بوعوده، وأنجز الزمان للبيت النبوي ما كان يكثر التسويق به من موعود، فظهرت به أبهة الخلافة في بيته، وإستعمل ما يورث الملك كمالا وجمالا في هديه وسمته فإنتخب الوزراء والحجاب وإنتقى القادة والكتاب، ونازعه بنو مظهر وبنو راشد فأظهره الله على الجميع"

وكانت تلمسان في العصر الاسلامي ولا سيما في عهد الزيانيين عاصمة سياسية وتجارية وصناعية يؤمها الناس من كل حدب وصوب فيها جميع الصنائع والتجارات موزعة على مختلف المساحات والأزقة. وكان بتلمسان مساجد عديدة تسر الناظرين، لها أئمة وخطباء وخمس مدارس مزدانة أبنيتها بالفسيفساء، وبها حمامات متفاوتة القيمة، كما عرفت المدينة فنادق على النمط العربي.

كان يرتاد مدينة تلمسان تجار من جنوة والبندقية ابتغاء التجارة والتعامل مع أغنيائها الاوفياء، وكان بالمدينة حارة تضم خمسمائة دار لليهود أغلبهم أغنياء يضعون على رؤوسهم عمامات صفراء ولو أنهم لم يبقوا على حالهم من الثراء إلا فترة من الزمان.

حسبما يذكر أبي الحسن الوازن (المعروف بليون الافريقي) (من مؤرخي القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي) فان مدينة تلمسان كانت أسوارها في غاية الارتفاع. وللمدينة خمسة أبواب واسعة جدا، أقيمت في جوفها حجيرات يقيم فيها موظفون وحراس أما قصرها الملكي فكان يوجد بجنوب المدينة تحيطه أسوار مرتفعة جدا على شكل قلعة ويضم قصور أخرى صغيرة ببساتينها وسقاياها وهذه القصور كانت مبنية بصفة فنية رفيعة والقصر الملكي أي المشور وهو معروف إلى يومنا بهذا الاسم، كان له بابان أحدهما في إتجاه الجبل نحو البادية والآخر يتجه نحو قلب المدينة حيث يقيم رئيس الحرس. وكانت في ضواحي مدينة تلمسان دور جميلة للغاية ينعم أهل المدينة بسكناها صيفا، حيث الكروم الممتازة التي تنتج أعنابا من كل لون طيبة المذاق

وأنواع الكرز الكثيرة التي ليس لها نظير، وفيها تين وخوخ وجوز ولوز وبطيخ وخيار، وكان في ضواحي مدينة تلمسان شرقا عدة أرحية لطحن القمح على نهر يدعى سفسف، وكانت توجد أخرى قرب المدينة على منحدرات رأس القلعة إلى جهة الجنوب.

وكان في مدينة تلمسان قضاة ومحامون والعدول يتدخلون في الدعاوى، وكثير من الطلبة والأساتذة مختصون تنفق على معاش طلابها بكيفية منتظمة.

وحسب الحسن الوزان[33] فان أهل تلمسان ينقسمون إلى أربع فئات، الصناع والتجار والطلبة والجنود، فالتجار أناس منصفون أمناء جدا في تجارتهم، يزودون مدينتهم بالمؤونة على أحسن ما يرام، لهم أسفار تجارية مع بلاد السودان وهم وافروا الأغنام أملاكا ونقودا. أما الجنود المدينة فهم أناس ممتازون لهم أجور ملائمة وكل جندي هو فارس محارب.

ويرتدي التجار الحضريون في تلمسان لباسا جميلا وهو دليل على الأناقة والسخاء. أما الصناع فإنهم يرتدون لباسا قصيرا والقليل منهم يتعمم، ويكتفون بوضع قلنسوة بدون ثنايا على رأسهم وينتعلون نعالا تعلو حتى نصف الساق.

ويلبس الطلبة ثيابا مناسبة لوضعيتهم، فالجبلي يلبس لباس أهل الجبل، والأعرابي يلبس لباس الأعراب.

أما الأساتذة وأهل القضاء والأئمة والموظفون فلباسهم أحسن في العباد وهو مرتفع جميل

خارج مدينة تلمسان يوجد ضريح ولي كبير شهير هو سيدي بومدين شعيب بن الحسن الغوث، ولد باشبيلية وعاش في فاس، ثم انتقل إلى بجاية فتلمسان حيث توفي عام 594 هجرية 189م، ثم سار سيدي بومدين على طريق الصوفية من أشهر شيوخه أبويعزى والدقاق.

اشتهر أمره ببجاية حيث كثر تلاميذه ومريدوه وهكذا أقبل الناس عليه التماسا لعلمه واقتاء بطريقه، استدعاه يعقوب المنصور الموحدي إلى عاصمته مراكش فرحل في اتجاهها ولكنه مرض في طريقه وتوفي قرب تلمسان فدفن في قرية العباد.

---

33) - انظر الحسن الوزان (وصف افريقيا) ص127

سيدي بومدين له شعر صوفي جميل منه قوله:

يا عيني لازمني السهر طول الليالي

عشقي في محبوبي اشتهر وقولوا لحالي ولا

من نعشقوا مالي سواه نسلو ولا نزال رضاه

الدهر كلو نبدا ومن يلومني في هواه

نقولو

وله شعر صوفي اخر منه قوله

دارت علينا كيوس من خمرة البالي

ولا تطيب النفوس إلا بأمثالي

دارت علينا كيومي في حضرة المحبوب

وأهل المعاني جلوس ومن دخل يشرب

ولا تطيب النفوس إلا لمن يقرب

ومن أولياء تلمسان المشهورين سيدي بوجمعة وقبره يوجد عند باب كشوطة التي تحمل الان اسمه وهو القائل شعرا صوفيا مطلعه:

بوجمعة في شعر اقتصر ادع له يامن حضر

عسى ذنوب تغتفر مما يجدد في متداح

الهائمي قطب الفلاح

ومن أعلام مدينة تلمسان أحمد المقري التلمساني (المولود سنة 986 هجرية) صاحب كتاب "نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب"، وقد ألف هذا الكتاب في القاهرة المعزية،وكان في البداية يزمع أن يسميه "عرف الطيب في التعرف بالوزير الخطيب"، فلما رأى أن المادة التي اجتمعت لديه قد استفاضت بحيث شملت تاريخ الأندلس وأدبها وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، وعلى هذا النحو أصبح الكتب قسمين: قسم خاص بالأندلس عامة وقسم خاص بلسان الدين وما يتعلق به من شؤون ترك المقري عدد من المؤلفات منها:

1) روضة الأس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من اعلام الحضرتين مراكش وفاس.

2) أزهار الرياض في اخبار عياض ألفه أثناء اقامته بفاس 1013هـ 1027هـ.

3) الدر الثمين في اسماء الهادي الأمين.

4) أرجوزة في الامامة.

5) وذكر في النفخ أنه كان يزمع تأليف كتاب في تلمسان يسميه:" أنواء نسيان في أبناء تلمسان"

ومن علماء تلمسان زحد بن يحي البلاذري توفي عام 279هـ/892 م وهو بن محمد العقباني صاحب كتاب "نفي الوسن في محاسن أبي الحسن" وهو يتعرض فيه لدولة بني زيان.

اما السلطان أبو حمو موسى الزياني (1359م-1389م)، فألف كتابا في التاريخ السياسي أسماه:"واسطة السلوك في سياسة الملوك" وجهه هدية لسلطان الأندلس، ومدحه فقهاء الاندلس وأعجبوا بسياسته وأدبه وحسن صنيعه.

مدينة تلمسان في العصر الحاضر

تشهد مدينة تلمسان اليوم تطورا ثقافيا وعمرانيا لا مثيل له، فقد تم تطبيق نظام المدرسة الأساسية في تلمسان.

ويوجد حوالي 118,200 تلميذ يدرسون في 415 مدرسة تحتوي على 3093 قسم بمعدل 38 تلميذا في القسم الواحد.

اما التعليم الثانوي فيوجد فيه 15,666 تلميذ منهم 3,246 تلميذ في التعليم التقني، يزداد عدد التلاميذ في الثانوي بمعدل 2300 تلميذ في كل سنة جديدة مما يجعل الدولة تبني ثانويتين جديدتين كل عام وهكذا منذ عام. وقامت ولاية تلمسان بإنشاء ثانويتين احداهما في مدينة ندرومة والأخرى في تلمسان.

أما الزراعة في ولاية تلمسان فتحتل الصدارة والأراضي التي يمكن أن تسقى أو صالحة للسقي تقدر مساحتها بـ 180,00 هكتار سقي منها 30,00 هكتار فقط في الوقت الراهن في منطقة مغنية (على الحدود الجزائرية المغربية).

وتقوم الدولة الجزائرية بعملية استصلاح الأراضي الزراعية الواقعة في هضاب التراس شمال تلمسان، وخصصت برامج تنمية شاملة في هذا المضمار.

في ولاية تلمسان عدة سدود للري الأراضي الزراعية منها سد بني بهدل ولو أن هذا الاخير يمون مدينة وهران بالماء الصالح للشرب، وهناك سد اخر يدعى سد المغروش

وهو الذي يمون مدينة تلمسان بالمياه الصالحة للشرب وغير ذلك، وقد تضرر هذا السد الأخير بسبب الجفاف الذي تعرضت له منطقة تلمسان فقل مستوى المياه في خزاناته.

وهناك مشروعان يخصان بناء سدين هما: سد واد يسر شرق ولاية تلمسان أما السد الثاني فسيتم انجازه في دائرة الغزوات وهو يهدف الى تموين وهران بالمياه اللازمة. مدينة تلمسان مشهورة بصناعتها التقليدية وبخاصة صناعة الزرابي والنسيج ومازالت منتشرة في انحاء المدينة مصانع صغيرة تقليدية لصنع الحياك (أي نوع من أغطية النوم) وكذا صنع البلغة وهو نوع من النعال المصنوع من الجلد الخالص وزرابي تلمسان لها شهرة عالمية فقد تم تصدير 4000,000م من الزرابي إلى الخارج منذ عام 1970 إلى اليوم.

وهناك بعض الصناع التقليديين في تلمسان يصنعون حياك النساء من الطراز العالمي (أي اللحاف) ويصنعون كذلك القفطان بالحرير المطرز بالذهب، اما الحلي فهي تصنع في مصانع صغيرة تقليدية منها حلي النساء كالأساور والخواتم والعقود، وتصنع عادة من الفضة الخالصة والذهب. يقام في مدينة تلمسان كل عام مهرجان الموسيقى الاندلسية احياء للطرب الأندلسي وزرياب، ولها تقاليد عريقة في الموسيقى الأندلسية، ومن اشهر مغنيها في هذا اللون من الطرب ابن زرقة والحاج عبد الغفور، كما يوجد في المدينة معهد الفنون الشعبية يهدف إلى حفظ وتنمية التراث الثقافي الشعبي كالشعر الملحون والموسيقى الأندلسية التي لمدينة تلمسان فيها باع طويل.

تشتهر مدينة تلمسان بأصالة ذويها ورقة ولطافة أناسها ومأكولاتها اللذيذة، ومن ألوان الطعام المشهورة بها مدينة تلمسان طبق الحريرة وهو نوع من الحساء يصنع على الطريقة المغربية فيه انواع عديدة من التوابل والكرافس والقصبر والمعدنوس والحمص والطماطم والفول والشعير وتطحن هذه الخضروات وتطبخ عادة في شهر رمضان، ويستعمل نساء تلمسان في المأكولات بعض التوابل كالفلفل الحار مما يعطي للأكل نكهة ومذاقا خاصا، ويصنع في تلمسان أنواع عديدة من الحلوى منها كعب الغزال من الدقيق واللوز وهو يشبه في شكله الهلال، وقلب اللوز والبقلاوة وهي قطع من الدقيق المعجون جيدا المحشوة في الداخل باللوز المطحون وتصنع هذه الحلوى بالسمن والعسل وهي لذيذة الطعم تقدم في المناسبات والاحتفالات العائلية

مدينة وهران

مدينة وهران تعد اليوم ثاني أكبر مدينة في القطر الجزائري من ناحية تعداد السكان وتورها العمراني، ولها ماضي يضرب في أعماق التاريخ. وكانت عاصمة بايليك الغرب في العهد العثماني، ومدينة وهران تطل شمالا على البحر المتوسط بساحل طويل يمتد من مصب وادي المقطع شرقا وخليج وهران والمرسى الكبير غربا.

وتقع المدينة على السفح لجبل المايدة مرجاجو الجميل الذي يحمل كذلك اسم جبل سيدي هيدور فوق الشاطئ خليجي بحري هادئ عرضه حوالي 21كلم.

وأهل مدينة وهران القدماء ينتمون إلى فروع شتى من مغراوة ونفزاوة، ويعود تاريخ تأسيس المدينة إلى ما قبل عهد الفينيقيين.

أصل تسمية وهران

هناك أقوال متضاربة في أصل تسمية وهران لكن أقربها إلى الصواب بل اطرفها[34]، هي التي تورد أن بني يفرن عندما أرادوا غزوها لم يعرفوا مكانها بالضبط، فعثروا على رجل من أهلها وسألوه عنها فأبى أن يرشدهم اليها فشددوا عليه فصوب عصاه نحو موقع المدينة وقالوا له هي صوب عصاك هذه فقال لهم:

"واه" ثم سمعوا شخصا اخر يقول: أنا فقصدوه (وعثروا على المدينة وسلبوا اهلها، وسبوهم وقالوا: هذه غنيمة "واه" و"أنا". ومع مرور الزمن حذفت الحروف الزائدة وبقي اسم الكلمة المعروفة به اليوم: وهران. وهناك من يرى أن اسم وهران ربما أخذ من اسم أحد الامراء الفاطميين الذي كان يدعى بوشارام وأرهام وهران.

تعاقب على حكم مدينة وهران الخزريين[35] والمغراويين والفاطميين والأمويين وخلوف بن أبي بكر حاكم تيارت الذي تولى حكم وهران وأعلن تبعيته للأمويين بالأندلس. ومر على حكم المدينة المرابطون والموحدون والزيانيون والحفصيون كما احتلها البرتغاليون في بداية القرن وأواخر القرن الخامس عشر الميلادي.

في العهد الاسلامي ابان وجود الزيانيين والمرينيين والحفصيين بمدينة وهران عفت نشاطا ورواجا في عالم التجارة والصناعة، فمن منتوجات المدينة: العاج وجلود النعام، والأبقار والأغنام، والذهب، والحبوب، والخضر، وغزل النسيج، ودباغة الجلود،

---

34) - انظر د/ يحي بوعزيز وهران/ ص 33

35) - نفس المرجع ص33 ومما يجب ذكره ان خزر بن مغراو كان عامل الأمويين بالأندلس خلال مسيرة الخوارج وفرض سيطرته على المغرب الاوسط (اي الجزائر).

وصناعة السيوف والسكاكين، وكان يؤم وهران تجار من البندقية وجنوة ومرسيليا وبيزة وكتلان باسبانيا لشراء بضائعها، ويبيعون سلعا كالأقنعة، والأسلحة، والأدوات الحديدية والزجاجية والعطور.

وزاد تعداد سكان المدينة في العهد الاسلامي ووصل عدد المنازل إلى ستة آلاف منزل، ودام احتلال الاسبان لمدينة وهران ثلاثة قرون وتم تحريرها من نير الاسبان عام 1792م في عهد الباي محمد بن عثمان، فدخلها دخول الفاتحين واهتز الناس طربا بهذا النصر العظيم في جميع انحاء الجزائر كلها، وعرفت في عهد الباي ازدهارا تجاريا وعمرانيا وحضاريا، فقد أسس مساجد ومدارس عديدة منها: مسجد بناصف، ومسجد ومدرسة حنق النطاح (جامع الباي حاليا) كما بنى قلعة البرج الاحمر، ومما يجب ذكره أن وهران العتيقة تقع على السفح الشرقي لجبل المايدة، أو مرجاجو (سيدي هيدور) في حوض واد الرحى، المشهور برحاواته التي أقيمت عليه[36]، والمعروف بواد رأس العين. وتقع أحياء وهران القديمة على حافته الغربية في حين تقع بعض القلع والحصون والأسوار، حافته الشرقية ويقع في الضفة الغربية لواد الرحى حي القصبة القديم بأبراجه، وقلاعه ومساكنه العتيقة وحي لابلانسا الاسباني، وحي البحرية، وبرج المؤنة (أي برج اليهودي). أما الأبواب فهناك اكثر من ستة أبواب في الشرق بابان: باب السوق وباب الجيارة، وفي الجنوب باب البليل، وفي الغرب باب المرسى الكبير وسماه الاسبان باب سانتون وهناك باب القصبة في الشمال وباب عمارة وباب كانستيل وباب الميناء.

وفي مدينة وهران توجد الكثير من القلع والأبراج والحصون بعضها قديم والبعض الاخر يعود إلى عهد المرينيين، وأكثرها تعود إلى عهد الاسبان والعثمانيين. بعد تحرير المدينة في أواخر القرن الثامن عشر من الاحتلال الاسباني أصبحت وهران عاصمة بايليك الغرب لها جهاز اداري يتكون من الأوجاق أي اعضاء الحكومة المحلية الذين يحيطون بالباي علاوة على سلك كبير من الموظفين العاملين داخل قصر الباي وخارجه.

علماء وهران

لمدينة وهران علماء ذاع صيتهم في مشارق الأرض ومغاربها ومن مشاهيرها العالم المحدث أبو اسحاق الوهراني احد شيوخ ابن عبد البر النمري القرطبي ومنهم أبو عبد الله الوهراني الملقب بركن الدين.

---

36) - انظر نفس المرجع ص 34

ومن علمائها أبو تميم الواعظ، والشيخ محمد بن أبي جمعة الوهراني شارح لامية كعب بن ابي زهير التي اسمها بانت سعاد، وله باع في النجوم والحساب توفي عام عشرين من القرن العاشر الهجري، ومن اقطاب العلم[37] في وهران الشيخ محمد الهواري دفين وهران المتوفى عام 843م هجرية وهو المعروف بسيدي الهواري (وكان مصدر الهام للمطرب أحمد وهبي فغنى أغنية وهران بلاد سيدي الهواري) ومازال قبره قائما يزوره الناس والمريدون للتبرك به، وكان سيدي الهواري كثير السياحة اخذ العلم بفاس عن العبدوسي والقباب وفي بجاية عن الشيخ أحمد بن ادريس والشيخ عبد الرحمان الوغليسي، بعد جولة في المشرق استقر في الأخير بوهران بلد أسلافه، وفيها ألف كتاب "السهو" ثم شرحه بكتاب سماه التنبيه فأخذ أبو زيد عبد الرحمان مقلاش كتاب السهو وأصلح فيه أشياء وزنا وأعرابا (وكان معاصر لسيدي الهواري) وأتى به للشيخ فقال له: يا سيدي اني أصلحت سهوك فقال، سيدي الهواري هذا السهو يقال له يقلاش أما سهو الفقراء يبقى على ما هو عليه فأنا أنظر فيه إلى المعنى ومن أين لمحمد الهواري بالعربية والوزن.

ومن أعلام وهران المؤرخ محمد بن يوسف الزياني صاحب دليل[38] الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران ويتعرض في كتابه إلى تاريخ تأسيس المدينة وسبب تسميتها ومؤسسيها وذكر فيه تاريخ الدايات الذين يجعلون من وهران عاصمة البايليك بعد تحريرها من الاسبان وذكر علماؤها وأولياؤها الصالحين.

وهران عبر التاريخ الاسلامي

في 910م (شعبان 298هـ عاد إلى وهران أهلها بعدما هجروها بسبب زحف قبائل عديدة على المدينة، وأعيد بناء المدينة وتعميرها بأمر ومساعدة أبي حامد داوس بن صولات، عامل تيهرت الذي عين عليها محمد بن أبي عون واليا وحاكما ثم ظهرت سلطة بني خزر المغراويين عليها.

كان أول حكامهم عليها "خزر بن حفص بن ونزمار بن صقلان بن مغاور وبعد خزر تولى ابنه محمد حكم وهران، وسكن بها ومد نفوذه حتى جهات تونس شرقا، وسجلماسة والمغرب الاقصى غربا، وقضى على كثير من العصاة، وأخضع محمد بن خزر خصومه العجسيين والوارداجيين وشن عدة حروب على ضواحيها وحارب

37) - انظر نفس المرجع د/ يحي بوعزيز (وهران) ص34-35 نشرة وزارة الثقافة والسياحة.

38) -لمزيد من التفاصيل حول علماء وهران انظر محمد بن يوسف الزياني (دليل الحيران) و (نشر السهران في أخبار مدينة وهران)

الشيعيين في تيهرت وربط صلاته بموسى بن أبي العافية المكناسي وشاركه في نشر دعوة الأمويين وغزا تلمسان وبعض جهات المغرب الأقصى حتى إلى بلاد السوس الادنى.

وعاشت وهران في عهد الفاطميين اضطرابات سياسية كثيرة[39] بسبب الصراع الذي كان قائما بينهم وبين الأمويين في الأندلس، ففي عام 376هـ (987 م) حكمها زيري بن مناد الصنهاجي باسم الفاطميين، تلاه في العام الموالي ابو البهار بن زيري بن مناد، وأعلن انضمامه للأمويين بالأندلس، ثم تركها للفاطميين.

وفي عام 381هـ (992 م) تولى حكمها وإدارتها خلوف بن أبي بكر، حاكم تيهرت وأعلن تبعيته للأمويين بالأندلس، واستمر حكمه حتى عام 387هـ (988 م) ثم تلاه خزرون بن محمد الوزداجي، وبقي تابعا للأمويين كذلك بالأندلس، على اثر ثورة زيري بن عطية الصنهاجي.

وفي مطلع القرن الخامس الهجري الموافق الحادي عشر الميلادي أصبحت وهران قاعدة بحرية للأساطيل الاسلامية، ومركزا لمعظم تجار الحوض الغربي للمتوسط سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين من اوروبا.

وسيطر الوزداجيون على وهران من جديد في 406هـ/1016م، فزارها الرحالة ابن حوقل وأشاد بعمرانها وتحصيناتها ومبانيها العامة وأسوارها الشامخة المحيطة بها، وازدهار ثقافتها وتجارتها، وذكر بمتانة صلاتها مع اهالي الموانئ الأندلسية.

وانتزع المرابطون مدينة وهران عام 473هـ /1081م واتخذوها قاعدة بحرية هامة لجزء من أسطولهم الحربي والتجاري وزارها يوسف بن تاشفين المرابطي وتطورت المدينة في هذا العهد السعيد ونشطت تجارتها البحرية بفضل المبادلات التجارية وازدهرت الحركة الثقافية وبرز عدد من العلماء والفقهاء والأدباء منهم على سبيل المثال:

محمد بن عبد الله بن يونس بن طلحة بن عمرون الوهراني الذي اشتهر بتضلعه في علوم الطب والرياضيات والتصوف وعاش هذا العالم في اشبيلية حوالي عام 427هـ (1037م) فامتهن بها التدريس والتجارة وأخذ التصوف على يد الشيخ أبي زيد. ومن مشاهير وهران الأديب ركن الدين بن محرز الوهراني، الذي هاجر أواخر حياته إلى مصر والشام، وتوفي بأحواز دمشق عام 575هـ (179ام).

39 - Giret, histoire d'ORAN, tome 5, pM45 ORAN

وهران في العهد الموحدي والمريني والزياني

زار الرحالة البكري وهران في ذلك العهد وتحدث عن عمرانها الواسع، ومياهها المتدفقة وتحصيناتها القوية وناعوراتها المائية وحدائقها الجميلة ومساجدها الجامعة[40].

وفي 539هـ (1145م) هاجم عبد المؤمن بن علي الموحدي مدينة وهران التي اعتصم بها تاشفين بن علي، وحاول هذا الاخير أن يفر هو وزوجته ليلا ولكن سقط فرسه فمات مع زوجته وعثر عليهما في الصباح الموالي، فحز رأسه عبد المؤمن بن علي إلى تينملل في المغرب الأقصى[41].

وظلت مدينة وهران تحت الحكم الموحدي حتى ظهرت الدولة الزيانية في حاضرة تلمسان عام 1236 م تحت زعامة يمغراسن وعين حاكما على وهران من بني راشد منهم ابن خالاس الذي حكمها عام 641هـ/1242م وابقاه عليها ابو زكريا يحي الحفصي لما احتلها مع تلمسان عام 646هـ/ 1248م.

وبقيت وهران تحت حكم الحفصيين سنين عديدة حتى قام يمغراسن بتحرير تلمسان عام 668هـ/ 1296م فحرر معها وهران، وعادت إلى السيطرة الزيانية[42].

وحاصر السلطان المريني أبو يوسف يعقوب تلمسان حصارا طويلا عام 669هـ/ 1300م، وتوجه أخاه أبا يحي إلى وهران، فهاجمها واحتلها.

وتواصلت سيطرة المرينيين عليها[43] خلال عهود ابي الحسن، وأبي عنان وأبي سالم، وعبد العزيز، ولم تتأثر كثيرا بالتقلبات السياسية فازدهرت فيها الثقافة، والتجارة، والحرف التقليدية، والفلاحة، وتوسع عمرانها، وارتفعت كثافة سكانها، وزار وهران أبو سعيد الغرناطي وتحدث عن ازدهار فلاحتها، ومنتوجاتها الزراعية والحيوانية، وكثافة تجارتها الداخلية والخارجية واتساع عمرانها وكثرة علمائها، وزار وهران الجغرافي الدمشقي ابو الفداء وأعجب بحيوية سكانها وتنوع نشاطاتهم الاقتصادية ومهاراتهم المهنية.

---

40)- البكري: وصف افريقيا الترجمة الفرنسية.

EL BAKRI description de l'afrique traduction française:P165

41) - محمد عبد الله عنان عصر المرابطين والموحدين في الغرب والأندلس ص249-252.

42) - د/ يحي بوعزيز وهران ص.47

43) - نفس المرجع ص47

وبعد اخفاق أبي الحسن المريني في حملته الافريقية وثورة ابنه أبي عنان ضده اغتنم الفرصة أبو ثابت الزياني وزحف إلى وهران واقتحمها وافتكها إلى أن قام أبو عنان المريني بغزو تلمسان عام 753هـ/ 1352م فغزا وهران واحتلها وعين أحمد بن علي بن أجانا حاكما عليها وخضعت للسلطة المرينية عدة سنوات أخرى حتى مطلع الستينات من القرن الثامن الهجري.

وعندما ظهر ابو حمو موسى الثاني أحيا الدولة الزيانية من جديد فطرد المرينيين من تلمسان ودخل في صراع شديد ضد السلطان أبي سالم الذي ارسل وزيره الحاج بن علي بن برغوث ليفتح وهران وزحف عليها في 28 ربيع الاول عام 760هـ الموافق ل 27 فيفري 1359م ولكنه هزم بها واسترجعها أبو حمو موسى الثاني[44] بعد اقتحام وهران وهدم أسوارها حتى لا يتمكن المرينيون من الاعتصام بها مرة أخرى ووجدها فرصة سانحة لمد حكمه في الجهات الشرقية فسيطر على مزغران، ومستغانم وقرى الأصنام والمدية، والجزائر وبعد خمسة أعوام من هذا التاريخ اعتقل أبو حمو موسى زعيم بني راشد الذي عصاه وسجنه بمدينة وهران عام 768هـ/1366م، وتمكن من الفرار وسعى له بعض اصدقاه لدى أبي حمو موسى حتى عفا عنه وأعاده إلى مركزه كزعيم قومه بني راشد[45].

وعرفت مدينة وهران صراعا شديدا بين ابي حمو موسى وابنيه أبا زياد وأبو تاشفين حول حكم وهران وكان كبش الفداء في هذا الصراع هو يحي بن خلدون صاحب كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد الذي تم اغتياله على يد أبي تاشفين في تلمسان في احدى ليالي رمضان من عام 780هـ/ 1397م، ولما علم أبو حمو بخبر مقتل كاتبه ورئيس ديوانه يحي بن خلدون رضخ لإرادة ابنه أبي تاشفين الذي اغتال ابن خلدون، وعينه واليا على وهران[46] وعزل عنها ابنه أبي زيان ولكن هذا الاخير لم يقنع بهذا فتآمر على ابيه أبي حمو وعزله عن العرش الزياني عام 788هـ/1386م بإيعاز من السلطان المريني أبي العباس أحمد بن سالم. ووضع أبو زيان أباه في السجن بوهران وعزم على اغتيال أبيه ولكن لم ينجح في مسعاه لان أباه فر من السجن مع أنصاره وساعدوه على العودة إلى عرشه بتلمسان وكان ابنه غائبا عن المدينة، فلما علم بأمر أبيه عاد توا إلى تلمسان ولكن عفى أبو تاشفين عن أبيه وسمح له بالذهاب لأداء فريضة الحج ولكنه لم يكمل الطريق بل توفي في بجاية واتصل بأميرها الحفصي فأكرمه وساعده على العودة إلى عرشه بتلمسان[47].

---

44) - نفس المرجع ص50

45) - نفس المرجع ص50

46) - نفس المرجع ص53

47) - نفس المرجع ص55

فانتقل إلى مدينة الجزائر وحشد حوله أعداد كبيرة من الأنصار والأتباع، وتقدم إلى تلمسان ودخلها في رجب عام 790هـ/1388م بينما هرب ابنه أبو تاشفين إلى فاس واستنجد بالسلطان المريني ابي العباس فأنجده وجهز له حشدا من الرجال قادهم نحو تلمسان وخاض معركة أبو تاشفين ضد أبيه ابو حمو في ناحية الغيران بجبل بني ورنيد وراء الجبل بني راشد وسقط ابو حمو على فرسه فمات في 791هـ/ 1389م عن عمر يناهز 68 عاما وابتلى ابنه ابو تاشفين بخديعة السلطان المريني الذي احتل تلمسان وفرض عليه جباية سنوية بقي مستمرا في تأديتها إلى أن وافته المنية في 795هـ/1393م[48]

عانت وهران من المحن ذات الطابع السياسي لسبب الخلاف الذي مس الأسرة الزيانية ومع هذا فان وهران ظلت سائرة في ازدهارها الاقتصادي والثقافي، فنشطت فيها التجارة بكثر ورود قوافل الصحراء عليها ببضائع جنوب الصحراء كما كثر ورود التجار الأوربيين ببضائع لمنطقة الشمال الاوربي فأصبحت مركزا تجاريا ومحورا للتجارة العالمية حيث يعثر فيها المرء على البضائع التجارية الممتازة والمتعاملين التجاريين اللذين ينشدون اقامة الصفقات والتبادل النزيه. وفي عالم الثقافة انشئت في وهران مدارس التعليم وبرز عدة علماء أجلاء أشهرهم الشيخ ابراهيم بن محمد بن علي التازي اللنتي.[49]

وفي عام 828هـ/1425م قام بعض أتباع الشيخ سيدي بومدين شعيب بن الحسين دفين تلمسان ببناء قبة سيدي عبد القادر في قمة جبل المايدة (مرجاجو) وأصبحت مزارا منذ ذلك العهد بخاصة للنساء اللواتي يفدن زرافات أيام الجمع والأعياد، ويطعم الناس تقربا وطلبا للشفاء واستمرت هذه القبة على هذه الحال حتى تم تهديمها بجرافات في 1980 بقرار من ولاية وهران ما يزال يكتنفه الغموض والإبهام[50] ويقع في أسفل هذه القبة المهدمة غار كبير كان رباطا للطلبة والعلماء وهو اليوم ملجأ لبعض الفقراء والمساكين[51] وعندما انتصر ابو يحي الزياني في 840هـ/1437 في ثورته ضد أخيه العباس بتلمسان هرب هذا الأخير إلى وهران واعتصم بها وجعلها مركزا سنين عديدة.

مولاي محمد القشيري في وهران

وهاجر إلى وهران في ذلك العهد مولاي محمد القشيري السلطان الخامس عشر لغرناطة وإستقر بها بعد أن تلقى وعدا من صاحب تونس الحفصي بتقديم مساعدات له في نزاعه مع خصومه بغرناطة وإتخذ المرسى الكبير قاعدة لاستعداداته

48) - عبد الرحمان بن خلدون كتاب العبر، ص 142-148 الجزء السابع

49) - انظر د/ يحي بوعزيز، وهران ص56

50) - نفس المرجع ص56

51) - نفس المرجع ص56

العسكرية[52]، وفي عام 851هـ/1447م استعاد أحمد العاقل مدينة وهران إلى تونس وتوفي بها عام 867هـ/1462م وبعد مدة ثار محمد العاقل وفرض سطوته على مليانه، والجزائر والمدية ووهران، ومنها زحف على تلمسان وسيطر عليها، وقبض على عمه أبي العباس عام 866هـ/1461م وأرغمه على الاعتكاف في مسجد العباد مدة من الزمن[53] ثم نفاه إلى غرناطة، بالأندلس فحاول من هناك أن يسترجع ملكه في تلمسان، وحضر اليها على رأس حشد من أنصاره وحاصرها نصف شهر واخفق في محاولته وانسحب[54]، وهاجر إلى وهران أبو عبد الله بن سعد الزغل عمر اخر سلاطين غرناطة، اخر معقل المسلمين في الأندلس عام 895هـ بعد أن اختلف معه في سياسته وهاجر معه اليها عدد كبير من أهالي غرناطة، بعد أن يئسوا من انقاذ مدينتهم، ومن وهران انتقل إلى تلمسان ليقضي بها بقية حياته حتى وافته المنية في 899هـ/1494م.

واضطر السلطان الزياني محمد السابع أن يذهب بنفسه إلى اسبانيا ليطمئن فرديناند الخامس ليؤكد عدم قيام سلطان "غرناطة بأية محاولة لاسترجاع اعادة غرناطة" وحمل اليه هدية ثمينة تتمثل في خيول عربية أصيلة وأحجار اللؤلؤ الثمينة وصقور ذهبية وفي ذلك التصرف للسلطان الزياني نوع من الغباوة فعلا يدل على مدى عقدة النقص التي كانت تعم ملوك المسلمين في ذلك الزمان الرديء...

الإسبان في وهران

وبعد سقوط غرناطة عام 1492م في أيدي النصارى الاسبان، هاجر إلى وهران عدد كبير من مسلمي الأندلس، واستقروا بها وتولى حكمها في القرن العاشر الهجري 909هـ/1503م أبو حمو موسى الثالث ببوقلمون أمير تلمسان وفي عهده بدأت هجمات الاسبان والبرتغاليين على وهران والمرسى الكبير بصفة مكثفة ومركزة.

في عام 1509م هاجم الكاردينال الاسباني كزيمينيس واستعان ب سطورة المكاس اليهودي الاشبيلي وبعض أعوانه من الخونة أمثال عيسى العربي، والقايد بن قابض ففتحوا له أبواب المدينة غدرا وخديعة فاقتحمها هو وجنوده وهاجموا أهالي المدينة بوحشية لا نظير لها وقتلوا أربعة آلاف رجل وأسروا الناس وأسالوا الدماء حتى احمرت مياه البحر[55].

---

52) - نفس المرجع ص57

53) - نفس المرجع ص59

54) - نفس المرجع ص59

55) نفس المرجع ص59

وقام كزيمينيس بتحويل كل مساجد المدينة إلى كنائس من باب التعصب المسيحي ومنها مسجد البيطار وأنشأ معاقل وحصونا وصوامع جديدة للدفاع ضد الاهالي، ونهب كل ما وجده بالمدينة من تحف ونفائس كالكتب والقناديل وغيرها وشحنها إلى اسبانيا، وحرر بوهران 300 أسيرا مسيحيا وكافأ اليهوديين سطورا وبن زهوة.

وإبقاهما مكاسين على أسواق مدينة وهران، وأوكل إليهما مهمة استخلاص الغرامات من الأهالي واعترف أبو حمو الثالث بتبعيته للإسبان وقبل بأن يدفع لهم جزية سنوية بمبلغ 12 ألف أوقية ذهبية و12 فرسا و6 صقور[56] .

وحاول حسن بن خير الدين بايلرياي الجزائر في الأربعينيات من الفرن السادس عشر أن يحرر وهران و تلمسان من الإستعمار الإسباني و لكن دسائس السفير الفرنسي حالت دون ذلك.

وعندما تولى مصطفى بوشلاغم بايليك الغرب في 1733م جمع مازونة وتلمسان تحت حكمه بعد أن كانت كل واحدة منهما تحت حكم باي مستقل عن الآخر، ونقل عاصمة بايليك منهما إلى قلعة بني راشد، وثم إلى معسكر التي تقع في مركز وسط بين تلمسان ومازونة وتقرب كثيرا من وهران [57] .

وقد أولى بوشلاغم إهتماما كبيرا بأمر وهران والمرسى الكبير، وأظهر إستعداده لتحريرهما، ووجد في الداي مجمد بكداش بمدينة الجزائر العاصمة الدولة الجزائرية خير معين فأعد له حملة من ثلاث ألاف رجل مع الذخيرة 3 آلاف قنطار وأرساها تحت قيادة صهره أوزون حسن الطويل، وعندما وصلت إل معسكر قادها بوشلاغم بعدما ضم إليها قواته، و إتجه إلى وهران وكان جيشه يضم الطلبة والعلماء والفلاحون وعمال الأرض والمجندون وعندما وصلوا إل وهران فرضوا الحصار على برج العيون في 14جوان 1707م وفتحوه يوم 8 سبتمبر1707م وأسروا به 545 رجلا وقتل المئات من الإسبان.

وفتحوا حصن الجبل سانتاكروز في 25سبتمبر1707م وحاصروا زاوي كبيسة اليهودي مدة شهرين و فتحوه في 6 نوفمبر1707م وإتجه الجيش الجزائري إلى مدينة وهران نفسها وحاصرها من كل جهة وتم فتحها في 20جانفي 1708م[58] وإتجهوا بعد ذلك إلى[59] المرسى الكبير الذي حرره يوم 16أبريل1708م، و بعد هذا النصر العظيم نقل

---

(56) - احمد توفيق المدني الثلاثمائة سنة ص 110-118 و انظر ايضا
BLUM NELLU :la croisade deximens en afrique Oran 1898 P:160.

(57) - نفس المرجع ص 89.

(58) - نفس المرجع ص 90-91.

(59) - أنظر لمزيد من التفاصيل محمد بن ميمون : التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر تحقيق د. محمد بن عبد الكريم الجزائر 1972 ص 203.

بوشلاغم عاصمة البايليك من معسكر إلى وهران و شرع في التجديد عمران المدينة وإعادة الوجه العربي الإسلامي إليها، و في 1732م هاجم الإسبان مرسى الكبير ووهران بقوات تعدادها ثلاثون ألفا مع 72مدفعا وألاف القنابل فاحتلوها من جديد نظرا العدم تكافؤ القوتين فانسحب بوشلاغم من وهران في شهر جويلية من نفس العام.

وارتكب بوشلاغم أخطاء منها عدم تحطيميه و تخريبه مدينة وهران التي وجدها الإسبان جاهزة عندما عادوا إليها و استعملوها بسرعة في تحصين مواقعهم ، وتفادي الباي محمد بن عثمان الكبير هذا في فتح وهران الثاني عام 1792م بعد ستين عاما تقريبا.

وقد جرت مراسلات كثيرة بين الملك الإسباني كارلوس الثالث والداي محمد عثمان الباشا حول إبرام الصلح بين الجزائر و الأسبان و ذلك في سبيل أن يكف الجزائريون عن مهاجمة وهران و لكن رفضوا الصلح بدون تحرير وهران والمرسى الكبير.

تحرير وهران

وفي 8 و9 أكتوبر1790م تعرضت وهران إلى زلزال مدمر خرب أكثر من ثلثيها و قتل نتيجة ذلك أزيد من ثلاثة آلاف إسباني ماتوا تحت أنقاظ المدينة وتحطمت معنوياتهم فاستغل محمد بن عثمان الفرصة. وجمع ما أمكن جمعه من رجال والعتاد، وزحف على[60]، وهران و ضيق على مابقي من الإسبان وعددهم لا يزيد على 1526 شخصا من العسكريين فأجندتهم أسبانيا بسبعة آلاف رجل ، وتواصلت المعارك طوال الصيف وخريف 1791م وفي كل مرة يتقدم جيش محمد بن عثمان خطوة نحو المدينة ويحن مواقعه و يسلحها فضاع أمل الإسبان في الاحتفاظ بالمدينة و طلبت إسبانيا من داي الجزائر أن يقبل صلح عام 1785م فرفض إلا إذا قبلت الانسحاب من وهران والمرسى الكبير[61].

وعندما تولى الباشا بابا حسن منصب الداي خلفا لمحمد بن عثمان باشا عام 1791م تقدمت إسبانيا إليه بطلب إبرام الصلح، وقبلت مبدأ الجلاء عن وهران والمرسى الكبير، فأجابها وكتب الملك الإسباني كارلوس الرابع رسالة إلى الداي حسن حدثه فيها عن التزام إسبانيا الجلاء عن مدينة وهران والمرسى الكبير وإخلائهما و تهديم تحصيناتهما، حتى لا تقع في غيدي قوى أروبية أخرى[62]، وجرت مفاوضات عديدة بين إسبانيا والجزائر خلال عام 191 انتهت أبرام اتفاق ديسمبر1791 مما جاء فيه:

(60) - نفس المرجع ص 104.

(61) - نفس المرجع ص 104.

(62) - نفس المرجع ص 105.

1- تنسحب إسبانيا من وهران و المرسى الكبير دون قيد أو شرط.

2- تدفع للجزائر مبلغ 120 ألف فرنك سنويا.

3- تعيد للجزائر كل ما غنمته من وهران عام 1732م من مدافع و أسلحة.

4- ترسل للسلطات العثماني مفتاحين ذهبيين للمدينتين و قلة من مائهما.

5- تسمح الجزائر لإسبانيا بشراء ثلاثة آلاف كيلة من القمح الجزائري.

6- تسمح لها كذلك بأن تؤسس مركزا تجاريا بالغزوات.

7- تسمح لها بأن تصطاد المرجان في السواحل الغربية الجزائرية[63].

وعرف تاريخ مدينة وهران تطورات وأحداث بعد إحتلال فرنسا للجزائر قاطبة حيث كانت مركزا إستراتيجيا إبان مقاومة الأمير عبد القادر فكانت أعيان المدينة والقبائل المجاورة يمدون الأمير بكل ما يحتاجه من مؤونة ودعم مادي إبان فترة المقاومة ولا سيما أن هذه المدينة لم تكن بعيدة من مدينة معسكر مركز الأمير عبد القادر الأول الذي جرت فيها بيعت الأمير وكمحور لانطلاق المقاومة الأولى

وعرفت وهران مساهمة أهاليها الأشاوس أثناء فترةالحركة الوطنية والقوة التحريرية حيث شارك أهالي المدينة ولا سيما النخبة الجزائرية والفدائيون وجنود جيش التحرير كسر سطوة المعمرين بالجهة الوهرانية ومع هذا لا يمكن تكرار التطور الاقتصادي والعمراني الذي شهدته مدينة وهران العهد الاستعماري ولوان هذا التطور كان في فائدة الأقلية الأوربية ولكن هناك منجزات عمرانية وإقتصادية تحققت على يد الأوربيين ونضرب مثلا على ذلك بشق خطوط السكك الحديدية والطرقات وتنمية زراعة الكروم وتطوير زراعة الحبوب في نواحي وهران وغرس أشجار الزيتون والحوامض مما خلق فئة من الأثرياء الأوربيين إستقروا في مدينة وهران في أحياء راقية مثل جهة البحر front de mer وعين الترك وغيرها ومن سلبيات الاحتلال الفرنسي في مدينة وهران هدموا المدينة القديمة أي قصبة وهران ولم ينج من الهدم سوى ضريح سيدي الهوامر والجامع العتيق وبعض الأحياء القديمة ومعالم تاريخية في أعالي مرجاجو وكذا قصر الباي الذي جرى تشويهه بمحاولة إقامة فندق بجنبه مع الأسف ومدينة وهران اليوم تشهد استقباطا كبيرا للمستمرين الجزائريين والأجانب وشيد على أرضها فندق شيراتون بشراكة مع الأشقاء الليبيين وهذه المدينة مشهورة في الوقت بلون موسيقي الراي والشاب خالد من أبناء هذه المدينة المضيافة

---

(63) - انظر أحمد توفيق المدني حرب ثلاثمائة سنة ص 523-527 و كذلك جان كازانوف
Jean Cazanauve,les gouverneures d'Oran pendant l'occupation espagnole de cette 1505- ville 105
Revue africaqaine 1930 P:257-299. وانظر علي بوعزيز . وهران . ص

قالمة...مدينة الذكريات

فهي تمتاز بهدوئها المعبر ، الذي يضفي على النفس الطمأنينة و الإرتياح.

أصل تسمية قالمة

هناك رواية عربية حول تسمية المدينة مفادها أن جماعة من الرحل حلوا في منطقة قالمة. وكانوا قد أرسلوا فارسا منهم يبحث عن منبع للماء فبعد جولة يبشر أصحابه انه عثر على المنبع فاهتزوا فرحا و قالوا : فلان ألقى الماء فاشتق اسم المدينة من هذه الكلمة، وهناك مؤرخون يرون أن اسم قالمة مشتق من كالما CALAMA ومن أثارها الباقية. المسرح الروماني الكائن في وسط المدينة و ميزة هذا المسرح أن الأعيان و القياصرة يجلسون في المقصورات الموجودة في أعلى طابق بينما الطبقات الشعبية تجلس في المدرجات، ومسرح قالمة يشبه كثيرا المسرح الروماني في سجيست بصقلية لأنه نصف دائري.

واكتشف نقش قرب قالمة جاء فيه ذكر تأسيس هذا المسرح، فقد أنشأته سيدة نبيلة تدعى أنيا ايليا رسيتيتوتا، وكانت راهبة ثرية أنفقت على هذا المسرح ثلاثين ألف قطعة ذهبية من مالها الخاص و يخبرنا النقش الحجري أن مجلس المدينة قرر أن يقيم على شرف هذه المرأة التي اسست هذا المسرح خمسة تماثيل و لكن ايليا ريستيتوتا رفضت ذلك تواضعا.

وإكتفت بأن يوضع لها هذا النقش الذي يتحدث عن كرمها و تواضعها في آن واحد، على كل حال فان مدينة كالما CALAMA الرومانية كانت مدينة لها أهميتها بلا ريب والالما كان لها مواطنة غنية إلى هذا الحد.

وأقام باترتيوس سالمون قلعة كالما البزنطية BELISAR في إدارة الولايات الافريقية ولعل الزلزال الذي ألم بقالمة كان سببا في تهديم قلعة سالمون ولكن بقي منها سور عال يحيط بها وثلاثة عشر برجا في حالة جيدة غلى حد ما.[64]

وفي العصر المسيحي المتأخر كانت قالمة عبارة عن مستعمرة بها مقر أسقفية شهيرة ومن أساقفتها الأربعة، دوناتوس الذي شارك في مؤتمر الزعماء الكنيسة المشكوك فيه الذي عقد بمقرطة، حيث اتهم بالزندقة فأعتذر بأنه لم يسلم غير الكتب الطبية ولكن هذه الكتب في الحقيقة الإنجيل أو أنجيله

---

(64) - انظر هاينريش فوز مالتسان (ثلاث سنوات غرب إفريقيا) ج 2 ص 262.

اثار عنونة

ومن معالم منطقة "قالمة" (آثار عنونة) و هي مدينة رومانية كانت تدعى تبيليس عثر على آثار هذه المدينة في جنوب غربي قالمة على مسافات قصيرة وجاء ذكرها في رسائل القديس أو غسطين و تحت إسم "تبلين" TIBILIN ولو أن النقوش اللاتينية تشير إليها باسم تبليس ، ومن آثارها الباقية الأعمدة و التيجان ، والنقوش اللاتينية ومعاصر الزيت و هناك مدينة اخرى مجاورة و هي تيبير سيكوم نوميداروم (ومعروف بإسم خميسة في العربية) وأن وجود نقوش و قبور بونية فيها يدل على سدى تأثرها بالحضارة القرطاجنية وكان للمدينة إعتبار إقتصادي و ثقافي.

أسطورة حمام المسخوطين

هناك موقع اثري روماني هام يتجلى في اثار (أكي تيبيليتاني) ويعرف اليوم بحمام المسخوطين وهو حمام معدني يمتاز بمياهه الحارة ذات البخار الشديد وهناك أسطورة عربية تفسر تسميته بحمام المسخوطين ولو انها خالية.

فقد تداولها الناس هناك و هذا يعبر عن خوفهم من سخط الله تعالى على العاصين أي المسخوطين.

تقول الأسطورة أن سيدي أرزاق كان أميرا غنيا يسكن هذه المنطقة ، وكان له قصر رائع قرب قالمة، يحتفظ فيه بأجمل النساء وكان يحصل على أشدهن فتنة مما يقدمه سوق الرق.

وهكذا كان في إستطاعته أن يكون سعيدا، ولكن لم يجد ضالته أي المرأة التي يميل غليها من آلاف النساء ، فقد كان سيدي آرزاق يحب واحدة فقط هي أخته الشقيقة ولم يصرف عن هذا الحب الأثم شيء، وظل هيامه ينمو و يكبر و يشتد إلى أن أصابه الجنون و أرغمها على أن تكون خطيبته، وتم الزواج الرهيب و انتصر سيدي آرزاق، غير أن إنتصاره لم يدم طويلا فقد حلت به لعنة الله ، فتحول إلى كتلة من الكبريت وتحول قصره و بساتينه إلى مستنقع من المياه الساخنة.

وحمام المسخوطين به مياه معدنية تفور من عشر عيون شديدة الحرارة تتراوح بين49 و98 درجة تعلوه تعلوها كثيفة الدخان و تنبع تلك العيون على نسبة 3.000 ليتر في الدقيقة و لما يبرد الماء السائل منها يترك متجمدا ما كان به من كربونات الجير فتتكون من ذاك أكداس كلسية بديعة اهمها هو شلال، ولمياه هذا الحمام قيمة طبية عالمية خاصة لمعالجة أمراض البرد و الأعصاب، والروماتيزم.

وعلى مقربة من الحمام توجد بحيرة الخفية و هي بحيرة يبلغ طولها 80 مترا تقع داخل كهف كبير يمكن الدخول إليها ، والصيد فيها بواسطة القارب.

بقر قالمة

ومنطقة قالمة مشهورة بتربية نوع من البقر مازال موجودا إلى يومنا هذا ، يعد من اخمل أنواع البقر في الجزائر،[65] و أن كان لبنه قليلا و هو صبور متحمل و به صفات لا توجد في غيره ، فإذا اشترك في النسل مع الثيران شويئز الشهيرة جمع إلى جمال الهيأة و الصبر و الجلد كثرة اللبن ووفرته، وحسب ما يرويه لنا الشيخ أحمد توفيق المدني في كتابه الجزائر كان يقام في قالمة سوق شهيرة كل يوم اثنين أبان الاحتلال الفرنسي، وكان في قالمة مدرسة فلاحيه تطبيقية. وفي جنوب قالمة على بعد 15 كلم يوجد جبل ماهونة وكان مشهور بالوحوش الضارية التي ترتع فيه ، وقد انعدمت الآن، وبه غابات كثيفة جميلة ترتفع على 1411م من سطح البحر.

عالم الثقافة في قالمة

ظهرت في مدينة قالمة جمعية الاستقامة في فترة مابين الحربين ، وكان لها دور فعال في بعث الثقافة العربية الإسلامية في قالمة و نواحيها عن طريق تعليم اللغة العربية، ويعود فضل إنشاء هذه الجمعية إلى بعض التجار الميزابيين بمدينة قالمة ولا ننسى مساهمة الشيخ محمد التمني بن الحاج صالح ، وكانت باكورة أعمال الجمعية فتح مدرسة حرة بقالمة في 1930.

واستمر إشعاع هذه المدرسة الحرة مستمرا من 1931م إلى 1974، وتخرج من هذه المدرسة الحرة مئات من رجال الإصلاح وإنشاء فرع لمدرسة الاستقامة بسوق أهراس، ولكن هذا الفرع لم يكتب له البقاء زمنا طويلا مع الأسف.

وكان يأم المدرسة الحرة في قالمة تلاميذ من أبناء المدينة و كذا أبناء الميزابيين المقيمين في البلدة نفسها أما برنامج مدرسة الاستقامة الحرة في القالمة[66] من موارد أساسية تشمل القرآن الكريم، و التوحيد، و الفقه، و النحو و الصرف، والإنشاء، والتاريخ، والجغرافيا، والمحفوظات، والإملاء، والأشياء وكل هذه المواد تمكن التلاميذ من تعميق معلوماتهم التي تخص الثقافة العربية الإسلامية و تجعلهم يملكون زمام اللغة العربية على أحسن ما يرام حديثا وكتابة.

---

(65) - كتاب (الجزائر) لاحمد توفيق المدني -ص 231.

(66) - قام بتدريس في المدرسة السيد عبد الله محمد الكاملي بوراس و هو من مواليد بني يزقن بجامعة الزيتونة فتحصل على شهادة [illegible]

ويشهد التاريخ أن المدارس الحرة قبل وما بعد الاستقلال الوطني كونت رعيلاً جزائريا متشبعا بالقيم الحضارية والثقافية العربية ولا ننسى دور الزوايا العربية الحرة و لها دور من ناحية تعميق جذور الثقافة العربية في أوساط الجماهير أكثر من المدارس المزدوجة (67) أو مدارس الإرساليات في الجزائر.

مساهمة جمعية التاريخ و الآثار

وفي عهد الحرية و الاستقلال تم تأسيس جمعية التاريخ و الآثار في 1984 وهي تقوم بتنظيم ندوات تاريخية في مدينة قالمة كل عام و تشرفت بحضور أغلب ندواتها ويشعر المرء بتجاوب عفوي مع أعضاء الجمعية، وميزة الندوات هذه أنه يأمها مؤرخون وأدباء وشعراء من كل حدب و صوب من أرض الجزائر ويتمتع الحاضرون من أساتذة وطلبة ومعلمين وموظفين بمناظرات فكرية تجري في جو فكري حر وودي للغاية، أما المواضيع المطروحة فهي تخص تاريخ الجزائر القديم، والوسيط، والمعاصر. أما أعضاء جمعية التاريخ والآثار لمدينة قالمة دفهم من خيرة المثقفين الجزائريين الذين وهبوا حياتهم للعلم ورفعوا عن المدينة العزلة الثقافية التي كانت تعانيها قالمة قبل إنشاء هذه الجمعية الفتية. إن أعضاء المكتب التنفيذي للجمعية التاريخية لقالمة هم كما يلي:

- اسماعيل السامعي رئيسا.
- الهادي تمسال نائبا.
- محمد شرقي كاتبا عاما.
- دسيبتس شواني نائبا.
- عزيز قالمي امينا للصندوق.
- سعيد مشري نائبا.
- الداودي زمالي عضوا.

و يوجد أربعة عشر عضوا في الجمعية علاوة على الأعضاء الموجودين خارج قالمة كأعضاء شرفيين و تجري محاضرات ومناقشات في الندوات التاريخية للجمعية التي تعقد سنويا و تتسم عادة بالدقة و الغزارة و الرزانة.

(67) - إن المقصود بالمدارس المزدوجة تلك المدارس التي أنشأها المحتلون الفرنسيون في الجزائر كالمدرسة الثعالبية مثلا و التي كونت بعضهم من مزدوجي اللغة من الجزائريين . أصبح بعضهم يشك في سياسة التعريب و فعاليته بعد الإستقلال مع الأسف.

ومن أعلام مدينة قالمة في عالم الشعر السيد رقطان وهو شاعر بارع له قصائد شعرية علياالوزن العربي التقليدي و إشتغل أمين محافظة الحزب لولاية المدية إبانعهد الحزب الواحد قبل ظهور التعددية الحزبية بسنين عديدة وكان عضوا شر فيا في الجمعية التاريخية لمدينة قالمة من شعره قوله:

بعيد إلى القابعين اليقين **بأن جزاء الكفاح الظفر**

ويشهد هذا الوجود الوقور **و مسافيه من بصيمات عزر**

ومن أعلام المدينة فنانة ألمانية تدعى بتينا هاينن والدة عضو الجمعية التاريخية هارون عياش، وميزة هذا الابن البار معرفته الجيدة للغات عالمية كالعربية و الفرنسية و الألمانية و الإنجليزية رغم أنه مازال طالبا في الثانوي يومئد.

الفنانة بتينا BETINA أحبت قالمة فإنعكس حبها هذا في لوحاتها الجميلة عن هذه المدينة الحالمة.

وبتينا من مواليد ألمانيا عام 1937م، وهي تنتمي إلى عائلة مغرومة بالأدب و الموسيقى والفنون الجميلة، و كان والد بتينا هانس هاينن HANS HAINEN عالما لغويا و اقتصاديا، وصحفيا، وشاعرا غنائيا، قرر قرار بتينا على إختيار الرسم عندما كان عمرها إثنى عشر عاما، وتحقيق أمنيتها هذه ارتادت بتينا مدارس الفنون الجميلة بكولونيا، وميونيخ، وكوبنهاجن و النرويج.

كان اكتشاف بتينا لمصر أرض الكنانة عام 62 له أبلغ الأثر في حياتها الفنية حيث سلب لبها سحر الشرق وروعته اللامحدودة .

أما اكتشافها للجزائر فجرى بعد استقرارها في البلد المضياف كزوجة محترمة فتألقت إبداعاتها الفنية عن طريق الريشة الرقيقة و الألوان الزاهية و لا سيما الأخضر والأحمر الذي يطبع لوحتها في الغالب و التي تنقلنا إلى عالم فسيح يمثل الجبال والمروج والصحاري، واللوحات و المدينة الحالمة والقرية البريئة .

ذكريات الكفاح

لقد أبلى أهل قالمة بلاء عظيما في مقاوماتهم للمحتلين الفرنسيين والدليل على ذلك يكمن في عدد المحتشدات التي أقامتها فرنسا الاستعمارية في منطقة "قالمة" من أجل

تعذيب و سجن و تقتيل الجزائريين وكان عددها عشرون محتشدا إبان الثورة التحريرية[68].
فيما يخص أحداث 8ماي1945، فكانت بمثابة مجزرة حقيقية سقط أثناء ذلك الآف الشهداء في قالمة وغيرها من المدن بعد مظاهرات صاخبة، مطالبة بتقرير المصير والاستقلال فكان رد الفعل الاستعماري يتسم بوحشية وعنف.

وبمناسبة إحياء الذكرى الأربعين لهذه الأحداث الأليمة التي وقعت في ماي 45 تمت بزيارة كهف البومبة في ناحية قالمة في ماي 86 و تشرفت بزيادة عين المكان مع وفد الجمعية التاريخية و شخصيات سياسية وولائية وحزبية وقد شاهدنا عن كب مواقع سقوط مئات الضحايا في دلك الموضع الذي شهد مواجهة مباشرة بين الجماهير الجزائرية الرافضة للاستعمار الفرنسي والقوات الفرنسية الغاضبة وتذكرنا هذه المواجهات بانتفاضة الفلسطينيين ضد الصهاينة في الضفة الغربية اليوم وكان المشهد مؤثرا فعلا عندما وصف أحد المجاهدين ما وقع في كهف البومبة من مواجهة مباشرة بين الجزائريين و الفرنسيين الطغاة.

قالمة في العصر الحاضر

لقد تم إستثمار مشاريع إنمائية هامة في ولاية قالمة منها على الخصوص تعبيد طرق وطنية عديدة و لرفع العزلة عن المراكز القروية الموجودة في المناطق الجبلية ثم شق طرق تربطها بعاصمة الولائية فالسياسة المعمول بها الآن أدت إلى تعبيد ما قدره 80 كلم من الطرق الوطنية ، و200كلم من طرق ولاية قالمة و 100كلم من طرق البلديات هذا ما بين 85 و1986 وجرى توسيع و تعبيد الطريق الرابطة بين قالمة و"سدرا ته".

ويدخل في نطاق البرنامج التنموي تعمير و إصلاح مدينة وادي اسخون و تدعيم المركز الجامعي الجديد بقالمة الذي يدرس فيه هذه السنة 400 طالب و طالبة أما العلوم و المواد المقررة في المركز الجامعي فتشمل الميكانيكا و الكيمياء الصناعية.

في الميدان الزراعي يوجد في ولاية قالمة مركز تربية الدواجن المنتجة للبيض ينتج 10 ملايين بيضة في العام الواحد.

وهناك وحدة إنتاج البيض أخرى طاقتها الإنتاجية السنوية تقدر بـ 12 مليونا ونصف من البيض.

(68) - من المعارك المشهورة في منطقة قالمة معركة جبل مرمورة التي جرت في 1958م إبان الثورة التحريرية المباركة و هي ملحمة حقيقية إذا التقى عدد محدود من الثوار الجزائريين بجيش جرار و رغم ذلك انتصر الجزائريون و سقط الطاغية الفرنسي (الكولونيل) الحقود جنيورو استشهد من أبطالنا المجاهدان سي خليفة و الطاهر دحمون رحمهما.

أما التعليم في ولاية قالمة يشهد تطورا كبيرا ومدهشا حيث وصل عدد التلاميذ في المدار الأساسية والثاوية والتقنية 93%.

ومن المشاريع الهامة الموجودة في الولاية مصنع الدراجات ومصنع الخزف، ومصنع الخميرة.

***

بجاية... المدينة الوديعة

بجاية مدينة وديعة حباها الله بجمال طبيعتها الخلابة أنها من أجمل مدن البحر المتوسط، وطابع المدينة وضرافة أهلها وودهم يذكرنا بخصال أهالي مدن متوسطية مثل وهران ومالقة، وبالما، واليكانتي، وسبته، وعنابة، وطنجة.

إن بجاية، يشبه موقعها مسرحا رومانيا عتيقا في شكله الدائري. تاريخها حافل بالأمجاد، إنها مدينة الفن، والشعر، و المجد. على يمين المدينة ترتفع قمم جبال توجه الشاهقة ويحاذيها على الشاطئ جبال بوعنداس، جبال بني تيزي الصخرية، وأدرار املال و تيزي وزو المتفرعة عن جبال البابور.

أن يقع في قمة رأس جبل جورايا قبر ولية صالحة تدعى "جورايا"، يقصده الناس للتبرك. و هناك من يرى أن اسم جورايا مشتق من كلمة جورا GAURA الوندالية و تعني : الجبل و هذا الجبل يحمي بجاية و مينائها من تيارات الرياح، وتعيش فيه القرود.

بجاية في القديم

في القديم كانت بجاية كمحطة تجارية، بحرية فينيقية ، واسمها القديم هو صلاد وربما ورث الرومان هذا الاسم في وقت لاحق، بعد سقوط قرطا جنة في 146ق.م وكانت بجاية ضمن ممتلكات الملك النوميدي ماسينيسا.

أعاد القيصر أوجست بجاية إلى يوبا الثاني في 25ق.م لترضيه في مقابل ضم الرومان بقية المملكة التي ورثها إلى مستعمراتهم .

وبني الرومان في عهد أوجست قلعة حصينة على الضفة اليسرى لوادي الساحل لا تزال ماثلة في تلات فوق جبال فنادين.احتل بجاية الوندال البيزنطيون.

وفي العصر الإسلامي كانت بجاية عبارة عن قرية صغيرة كان أهلها بسطاء يحترفون صيد السمك، وكانت ملكية أرصض المدينة في حوزة قبيلة بربرية تدعى بجاية، وحافظت المدينة على هذا الاسم على مخر زمن في العصر الإسلامي.

واختار الحماديون بناء مدينة بجاية كعاصمة ثانية بسبب تدهور مركز القلعة نتيجة هجمات بني هلال.

ووجدت الصناهجة ضالتها في بجاية حيث يوفر موقعها حماية البلاد القبائل من شلل الهلاليين فضلا عن توفر الشروط الضرورية لإنشاء شبكة جديدة من مواصلات وقوة عسكرية بحرية.

كان المرسى بجاية في العصر الحمادي تامة السفن العربية، والأوروبية والصينية، الهندية من أجل تجارة وتبادل السلع. وكان في المدينة دار لصناعة السفن وكان الخشب الخاص لصناعة المراكب يجلب من غابات منطقة القبائل.

ومن عادات الطريفة التي اشتهرت بها بجاية في أوروبا إبان العصر الوسيط صناعة الشمع وكانت بجاية تصدر منه الكثير، حتى أصبحت شمعة، كما جاء ذكرها في القواميس الفرنسية تحمل اسم المدينة باللغة الفرنسية حتى الآن إنه اسم La Bougie بوجي وهو مشتق من اسم بجاية.

بجاية عبر التاريخ

وآثار مدينة بجاية عف رسمها اليوم ولم يبقى سوى سور يتيم و ضريح سيدي التواتي و هو يمثل آية من الفن المعماري الحمادي.

وكان لمدينة بجاية أبواب عديدة بعضها معروف منها باب اميسون لا تزال بقياه ، ماثلة إلى اليوم في الطريق المؤدية إلى جبل القرود، وباب المرسى ربما يقع في منطقة بريجة السفلى، وفي جانب الشمالي الغربي يقع باب البنود وهو بمثابة المدخل الرئيسي إلى بجاية و يمكن معرفته في باب فوكة الحالي ومن أبواب المدينة التي ذاع صيتها باب اللوز.

ومن هذا الباب و لج بنو غانية إلى القصبة ، وكان هذه الأبواب ضاعت بسبب نكبات الدهر التي لا ترحم، وأشد المؤرخون والشعراء بقصور الملوك والأمراء في مدينة بجاية وكان فيها المساجد الفخمة، والمدارس، والمكتبات، والحمامات والقصور الحكومية ، ولكن كل شيء من ذلك اندثر وكان قصر النجم الذي جاء ذكره في قصيدة

ابن حمديس الصقلي يقع على تلال حصن موسى (ويدعى اليوم حصن برال) قال ابن حمديس الصقلي:

أوجبت للمنصور سابقة العلى وعدلت عن كسرى أنو شروان

قصر يقصر وهو غير مقصر عن وصفه في الحسن و الإحسان

أما قصر الؤلؤ فكانت تعلوه منارة عالية، وكان يحتوى على مجموعة قصور مزينة حيطانها الرخامية البيضاء بالذهب و الازورد، قال عنه ابن خلدون ان هذا القصر من أعجب قصور الدنيا وقد تم بناءه على يد المنصور بن الناصرفي 494هـ .

وكان في بجاية قصر اميمون وربما كان موقعه في أعالي المدينة، وأنشأ بنو حماد في بجاية الصهاريج المائية والقنوات.

إبن الأبار في بجاية

وعاش في بجاية ابن عبد الله محمد بن الآبار البلنسي (595هـ/658هـ) اشتهر بلقب ابن الآبار لأن أجداده كانوا يحملون هذا الاسم.

ولد ابن الآبار في مدينة بلنسية (Valencia) التي أنجبت كثيرا من العلماء والشعراء والشخصيات في ربيع 595هـ/1198م.

نشأ في بيئة تمتاز بجمال الطبيعة، و بين أهل عرفوا بحسن الطباع، وكرم النفوس وأناقة الأزياء، و في جو علمي مثقف متفقة، كان والده من علماء بلنسية، واهتم والده بابنه وكان يصحبه معه إلى مجالس العلم وزيارة العلماء، ويستجيز له الأعلام وهو بعد لم يتجاوز مرحلة الطفولة والصبا.

كانت حياة إبن الأبار العلمية حافلة و جليلة، ولذلك لا يأخذنا العجب إن رأيناه يأخذ عن أكثر من مائتي شيخ خلال حياته، وكان إلى جانب طموحه العلمي مبتلى بلاطات الأمراء وفي الأندلس عاصر و شاهد سقوط بلنسية مسقط رأسه على يد الأرغونين في 1239م.

في أواخر 637هـ/1240م. غادر إبن الآبار بأسرته الأندلس بنية الهجرة و الإقامة في ظل الحفصيين، فاتجه أولا إلى بجاية التي كانت المرسى الرئيسي الذي يمثل صلة الوصول بين شرقي الأندلس والجزائر و تونس، وهناك استقبله أبو يحيى بن أبي زكريا وولي عهده و مدحه بقصيدة بكى فيها ووصف مأساة أمته وكارثته وضياعه.

لم يقم ابن الآبار كثيرا في بجاية التي وجد لدى أميرها كل الإكرام و الترحيب إذا كانت تونس هدفه وهو لا يزال مثخنا بجراح النكبة و مثقلا بهموم الغربة.

وعمل في بلاط الأمير الحفصي في تونس كاتبا بارعا عندما توفي ابن عبد الله البجائي المعروف بابن الجلاد و لكن تم عزله فيما بعد فلجأ إلى بجاية و استعطف ولي العهد أن يشفع له عند الأمير فألف إبن الآبار كتاب "أعتاب الكتاب ليخف غلو الأمير وغضبه و يستدر حلمه وعطفه .

وتوفي أبو زكريا و خلفه ولده و لي عهده أبو عبد الله الذي الحق ابن الآبار بحاشيته و لكن سرعان ما عزله و نفاه لبجاية بسبب تامر حساده و طيش أمير المؤمنين.

وأتاحت له إقامته الجديدة في أحضان بجاية أن يقوم بنشاط علمي أخذا وعطاء و تدوينا وتأليفا و دامت إقامته بها سبع سنوات 650هـ/657هـ .

وعاد بعدها إلى تونس من جديد لخدمة الأمير ، ولكن خصومه دسوا عليه لدى أمير المؤمنين ابن عبد الله فقتله أعوانه و أحرقوا جثته مع كتبه ، وأنها لفاجعة أليمة ألمت بعالم جليل ، وكان مقتله في 658هـ/1260م .

وبعد فوات الأوان ندم ابن الآبار على خدمته للأمراء فقال:

حرمت الرشاد لاني سفاها   **خدمت الملوك وهم أعبد**

وفي رغباتي لهم جئت ادا   **فهلا رغبت لمن أعبد**

وربما حدسه أخبره بما سيقدر له فقال :

أما أنه قد خط في اللوح ما خطا   **فلا تعتقد للدهر جؤرا و لا قسطا**

وله شعر جميل ، منه قوله في حمامة مبلولة:

لما بكت من غير دمع جرى   **أعارها أدمعه المزن**

فكلما إهتز جناح لها   **نظم ما ينثره الغصن**

وقال أيضا :

حيث المغاني حبيب زادني شجنا   **أن حل دار الهوى داري وأن سكنا**

و الله ما قر قلبي بعد فرقته   **شوقا لرؤيته حينا و لا سكنا**

و أهله سكنا لو ذهبت أرقي   **أو سكنت قلقي ، واها له سكنا**

العبدري في بجاية

وجاء ذكر بجاية في رحلة العبدري[69] المغربي المولود في حاحة بمنطقة الصويرة و الذي عاش في القرن السابع الهجري الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي.

قال العبدري عن بجاية : ثم وصلنا إلى مدينة بجاية الإتقان والنهاية وهي مدينة كبيرة حصينة منيعة شهيرة برية، بحرية سنية سرية وثيقة البنيان عجيبة الاتقان رفيعة المباني غربية المعاني موضوعة في أسفل سفح جبل وعر. ومقطوعة بنهر وبحر ومشرفة عليها اشراف الطليعة متحصنة بهما منيعة، فلا طمع فيها لمحارب. ولا متسع بها لطاعن، وضارب لها جامع عجيب منفرد في حسنة غريب من الجوامع المشهورة الموصوفة المذكورة وهو مشرف على برها وبحرها.

وموضوع بين سحرها ونحرها، فهو غاية في الفرجة والانس، يشرح الصدر لرؤيته وترتاح النفس، وأهلها يواظبون على الصلاة فيه مواظبة "رعاية"، ولهم في القيام بهت همم وعناية، فهو بهم مأهول عامر، يتخلل انسه مسلك الأرواح و يخامر، وهذا البلد بقية قواعد الإسلام ومحل حله من العلماء إعلام، وله مع حسن المنظر طيب المخبر الرائق، المعنى الفائق ومن الحضانة ووثاقة البنيان، ما أزرى بارم، وغمدان.[70]

ولأهله من حسن الخلق والأخلاق. ما أنبأ عن طيب الهواء والماء والتربة والأعراق، غير أنه قد إعتره من الغير ، ماشمل في هذا الأوان البدو والحضر، وقد غاص بحر العلم الذي كان به حتى عاد و شلا، وعفا رسمه حتى صار طللا وبه آحاد من طلبة العلم قد إقتصروا على مطالعة الصحف و سلكوا في ترك تصحيح الرواية طريقا لم يرضه الإعلام الأكابر.

لقاء العبدري بالفقيه الخطيب المسند أبي عبد الله الكناني الشاطبي[71].

عندما إلتقى العبدري بالعالم الكناني الشاطبي من علماء بجاية المشاهير قال: ولم أر بها من أهل الشيمة الفضلى، والطريقة المثلى أمثل من الشيخ الفقيه الخطيب الصالح المسند الرواية أبي عبد الله محمد

بن صالح بن أحمد الكناني الشاطبي حفظه الله، مهو شيخ على سنن أهل الدين، سالك لسبيل المهتدين.

---

(69) - يرى محمد الفاسي محقق رحلة العبدري أن من الخطأ إعتبار العبدري اندلسيا من بلنسية و قد ذهب في ذلك يونس بويكس المستشرق الإسباني و بروكلمان و محمد بن سنب في مقاله عن العبدري في المعارف الفسلامية و جرجى زيدان في تاريخية للأدب العربي و في الحقيقة أن العبدري هو من حاحة في منطقة المغربية وهو من عربي و بدأ رحلته من المغرب و ليس بلنسية أنظر محمد الفاسي في تحقيقه العبدري المقدمة (ث) لأبي عبد الله محمد العبدري الحيحي المسماة الرحلة المغربية ، جامعة محمد الخامس -الرباط 1968.

(70) - نفس المصدر ص

(71) - 26 نفس المصدر العبدري ص 26.

مقبل على ما يعنيه مشتغل بعمر في طاعة الله يفنيه. دابة الاقتصار على تجويد الكتاب ، والتردد مابين بيته و المحراب و لقد لقي من الشيوخ إعلاما، صيره لقاؤهم والأخذ عنهم إماما. وله علو الرواية، حظ وافر من الدراية.

إلى خلق لو شاب ماء البحر صار فراتا، ودين ألزمه خشوعا و أخباتا، وقد شاهدت له من غزارة العبرة (يواصل العبدري) ما هو من أعظم العبرة قال لي إنك توحشني بفراقك . وقد أقبل عليك قلبي لأول ما رأيتك. و ما كانت مدة إقامتها ببجاية إلا يومين قرأت عليه فيها مع كثرة الشواغل و تسلط الهموم التي تخل عقل العاقل بعض كتاب الموطأ رواية يحي بن يحي و ناولني سائره، و بعض كتابي التسيير و المقنع للإمام ابلي عمرو الداني وناولنها و قرأت عليه قصيدة الشيخ إمام أبي القاسم قاسم ابن فيره الرعيني الشاطبي في القراءات و حدثني بها عن الشيخ الفقيه الخطيب أبي بكر محمد بن وضاح اللخمي سماعا عن ناظمها الشيخ أبي القاسم المذكور[72].

هل هو أبو القاسم أو أبو محمد قلت وهما مع صحيحان وأهل مصر لا يعرفونه إلا بأبي القاسم ولهم نظم هذه القصيدة وعندهم توفى في عقب جمادى الأخيرة عام تسعين وخمسمائة ومدفنه بققبرة البيساني وكان يكني في الأندلس بأبي محمد وبه كناه جميع شيوخه الأندلسيين الذين قرأ عليهم فيما كتبوه له كأبي الحسن بن هذيل وغيره وعاد الناس إلى الآن مختلفة لي تكنية قاسم على الوجهين المذكورين، وقرأت (يواصل العبدري) عليه بعض كتاب الشمائل للترميذي وبعض كتاب رياضة المتعلمين للحافظ أبي نعيم و ناولني سائرهما و ناولني المفردات لأبي عمرو و كتاب فضل قيام الليل و فضل تلاوة القرآن للإمام أبي بكر الأجري و اجازني إجازة عامة و كتب لي[73] ذلك بخط يده و قيد لي جملة من أسماء شيوخه و مروياته و قد جمع ذلك في برنامج له قرأته عليه حين لقيته المرة الثانية حسبما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى وسألته عن مولده فاخبرني أنه كان في التاسع والعشرين من دي القعدة عام أربعة عشر وستمائة وقرأت عليه حديث كميل بن زياد بن علي بن ابي طالب رضي الله عنه من رياضة المتعلمين و حدثني به عن الشيخ الرواية أبي الحسين أحمد بن محمد بن أحمد بن السراج سماعا عليه بقراءة الشيخ العالم أبي عبد الله القضاعي عن أبي القاسم بن بشكوال بسنده فيها إلى كميل قال أخذ على بن أبي طالب ري الله عنه بيدي فأخبرني إلى ناحية الجبان فلما أصحر تنفس الصعداء ثم قال ياكميل أن هذه القلوب أواعية فخيرها أوعاها للخير ياكميل أحفظ. عني ما أقول : الناس ثلاثة عالم رباني ومتعلم

---

(72) - نفس المصدر ص 27.

(73) - نفس المصدر ص 27.

على سبيل نجاة و هجم رعاع لكل ناعق غتباع فيميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم و لم يلجؤوا إلى ركن وثيق ياكميل العلم خير من المال ، العلم يحرسك و أنت تحرس المال والمال تنقصه النفقة والعلم يزكوا على الإنفاق ياكميل محبة العالم دين به يكسبه الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته [74] ومنفعة المال تزول بزواله والعلم حاكم و المال محكوم عليه ياكميل مات خزان المال و العلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة و أمثالهم في القلوب موجودة ثم قال أن ها هنا علما و أشار إلى صدره لو أصبت له حملة بلى أصبت لقنا غير مأمون يستعمل آلة الدين في طلب الدنيا ويستظهر لحمله العلم لا بصرة له في أنحائه الشك في قلبه بأول عارض من شبهة إلا لاذا ولا ذاك. فمن هو منهوم بالذات، سلس القياد إلى الشهوات، مغرم بالجمع والادخار وليس من دعاة الدين أقرب شبها به الأنعام ، وكذلك يموت العلم بموت حامليه ، ثم قال اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لك بحجة أما ظاهرا مشهورا، وأما خافيا مغمورا ليلا تبطل حجج الله و ميثاقه و كم وابن أولئك الأقلون[75] عددا و الأعظمون قدرا بهم يحفظ الله[76] حججه حتى يودعها في قلوب أشباههم هجم بهم العلم حتى حقائق الأمور فباشروا روح اليقين و إستلانوا ما أتوعر المترفون و آنسوا بما استوحش عنه الجاهليون صحبوا الدنيا بابدان أرواحها معلقة بالملكوت الأعلى ياكميل أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه هاه شوقا إليهم و إلى رؤيتهم واستغفر الله لنا ولهم انصرف إذا شئت[77].

وقرأت عليه (يواصل العبدري روايته عن الفقيه) أبي عبد الله الكناني الشاطبي قال أن حق العالم أن لا تكثر عليه السؤال ولا تعنته في الجواب ولا تلح عليه إذا كسل و لا تأخذ بثوبه إذا نهض ولا[78] تشير إليه بيدك ولا تفشين له سراولا تغتابن عنده أحدا ولا تطلبن عثرته فإن زال انتظرت أوبته وقبلت معذورته وأن توقره وتعظمه لله ولا تمشي أمامه وأن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته ولا تتبر من طول صحبته فإنما هو بمنزلة النخلة تنتظر ما سقط عليك منها منفعة وإذا جئت فسلم على القوم وخصه بالتحية واحفظه شاهدا و غائبا وليكن ذلك كله لله فإن العالم أعظم أجرا من العائم القائم المجاهد في سبيل الله وإذا مات العالم انثلمت في الإسلام ثلمة إلى يوم القيامة لا يسدها إلا خلف مثله وطالب العلم تشيعه الملائكة من السماء .

---

(74) - نفس المصدر ص 27 .
(75) - نفس المصدر ص 28 .
(76) - نفس المصدر ص 28 .
(77) - نفس المصدر ص 28 .
(78) - نفس المصدر ص 28 .

وذكر العبدري أن الفقيه أنشده شعر إبن برطله:

أسلمني للبلاد و حيدا	من هو في ملكه و حيد
قضى على الفناء حتما	فلم يكن عنه لي محيد
و كيف يبقى غريب ترب	بدأته أولا صعيد
بعيد آخر إليه	من تحته المبدئ المعيد

وأنشدني أيضا:

قالت لي النفس أتاك الردي	وأنت في بحر الخطايا مقيم
وما انتقيت الزاد قلت أرعوي	هل يحمل لدار الكريم [79]

بجاية ... حاضرة العلم و الثقافة

عرفت بجاية نهضة فكرية هامة في العصر الإسلامي وهذا بفضل رعاية امرأة المدينة للعلم والعلماء وشعور أهل بجاية بالوحدة الفكرية والروحية، التي تجمعهم بأبناء المغرب العربي وكما هو معلوم فان الحدود المصطنعة لم تكن موجودة يومئذ بين بلدان المغرب العربي مما عمل على تسهيل التواصل الثقافي و التفاعل الفكري بين العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء سواء أكانوا أندلسيين أو مغاربة ومن هؤلاء "ابن الآبار" الأديب الأندلسي الشهير الذي أعجب ببجاية فجعل منها مقاما ردحا من الزمن (وقد سلف ذكره).

وهناك كتاب قيم ألفه "أبو عباس الغبريني" ولد سنة 644هـ/1246م. عنوانه الدارية ممن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية، يتحدث في هذا الكتاب عن العلماء المغاربة الذين إستقروا في بجاية وكذا علماءها الأفاضل الذين برزوا في شتى العلوم.

والغبريني يعود بنسبه إلى بني غبري وهو بطن من البربر في الجزائر، نشأ في ضواحي العزازقة بالقرب من بجاية؛ وقيل في بجاية بالذات، حفظ القرآن وتغفه في علوم الدين على يد سبعين شيخا من الجزائر والأندلس وإفريقية، ولي القضاء في أمصار عديدة، أخرها بجاية ، كان حكمه شديدا، مهيبا ذا معرفة بأصول الفقه، وحافظا لفروعه وقائما على النازل، ومحققا لمسائل .

وكان الغبريني يميل إلى بعض التصوف الخرافي والبدع جليا في رواياته عن العلماء في مؤلفه.

---

(79) - نفس المصدر ص 30.

ومن العلماء الذين جاء ذكرهم في كتابه ، أبو الفضل القرشي القرطبي وهو عالم جليل ، مولده في قرطبة و بها نشأ ، عاش في بجاية خلال هذا القرن السعيد أي القرن السابع هجري.

خرج من بلده دون العشرة أعوام مهاجرا إلى الله مقبلا على العبادة بعد أن ترك مالا و عقارا .

وذكر الغبريني أن محمد عبد المعطي[80] حدثه بتدلس قال خرجنا مع الشيخ وركبنا البحر وحملنا الة لصيد الحوت، ولم نزل نتصيد إلى قرب الظهر فلم يفتح لنا بشيء، ثم نظر إلينا و سكت ساعة ثم أخذ الكلام في الأحوال والمعارف إلى أن انهمك فيها وتمكن وقت الصلاة ثم رجع إلى حاله، فصلينا الفريضة بالساحل، ثم عدنا لنتصيد فقال:

الآن يفتح لكم به قال فرأينا على وجه الماء حيتانا قد أخرجت رؤوسا من الماء كالمصابيح، ثم صارت تترامى علينا في الزورق حتى امتلأ حوتا ، ما أطيب وقتنا حينئذ وما أبركه ومن المشهور عنه (أي القرطبي) يواصل الغبريني، إنه بات مع قوم من خواصه في موضع "بتازروت" فعمل لهم ميعادا طيبا وأصاب القوم وخشية ، فلما مضى الليل أكثره، نفذ الزيت من المصباح فطلبوا له دهنا فلم يجدوه فقال لأبي زكريا الكماد أجعل في المصباح ماء، فصبه من الإبريق، فاتقد المصباح وأضاء إلى المصباح.

وجاء في الدراية للغبريني ذكر أبو عبد الإله ابن شعيب وهو عالم و فقيه ومتصوف أصله من هسكوره بالمغرب الأقصى زار المشرق العربي، وأقام في بجاية مدة من الزمن.

قال الغبريني عن هذا الشيخ إبن شعيب نقلا عن بعض الصحابة أنه كان إذا ورد على طنجة لزيارة بعض أصحابه كأبي العباس الفتيجري وغيره أنه لا يبيت إلا في الجامع و لا يبيت بمنزل أحد، أنه كان إذا دخل الجامع يضطجع، وإذا كان وقت صلاة الصبح يقوم فيصلي من غير تجديد طهارة وأن بعض المؤذنين يقوم فيصلي من غير تجديد الطهارة وأن بعض المؤذنين رأوه على هذه الحالة وتكرر هذا منه فتكلم فيه وقال أنه يصلي بغير طهارة ونمى الخبر إلى أبي عباس الفتيجري، فأمر المؤذن المذكور بالتوبة وقال له ذلك رجل ورده في مضجعة فاستغفر الله مما وقع فيه...

هذه الرواية التي أوردها الغبريني فيها مغلاة وخوارق لا علاقة لها بالإسلام الصحيح، وهذا يدل على أن صاحب الدراية كان يؤمن بتصوف الدراويش أي التبرك بالأولياء الصالحين الذين يرون حسب اعتقادهم إمكانية تحقيق المعجزات و الخوارق بيد أن الإسلام السلفي ينفي هذه البدع التي هي مجرد افتراء.

(80) - انظر الغبريني (عنوان الدراية فمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية) ص 174.

وعاش في مدينة بجاية سيدي بومدين الأندلسي دفين العباد بتلمسان ولا عجب إذا قلنا أن بجاية كانت واحدة من كبريات العواصم العلمية في العالم الإسلامي فقد أنجبت علماء إجلاء شاع ذكرهم في مشارق الأرض و مغاربها ومن مدارسها المشهورة مدرسة سيدي تواتي تخرج فيها فقهاء و علماء كبار واستمر إشعاعها في العهد الحمادي و يكفي مدينة بجاية فخرا أنها شهدت لقاء عبد المؤمن بن علي الندرومي بالفقيه السوسي المهدي بن تومرت في جامع إيكجان بالقرب من بجاية حيث اتفقا على ما يجب فعله من اجل محاربة التسيب الخلقي الذي كان سائدا في بجاية وغيرها من مناطق المغرب العربي وكان لليهود ضلع في هذا التسيب الممقوت فعقد هذان الزعيمان العزم على بث الأخلاق الإسلامية الرفيعة عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

مدينة بجاية في العصر الحاضر

تعيش بجاية اليوم تطورا ملحوظا في جميع القطاعات وهذا بفضل حرص الدولة الجزائرية على تنمية ولاية بجاية من الناحية الاقتصادية والزراعية والثقافية وقد أنشئت في بجاية مصانع عديدة لتشغيل اليد العاملة فقد تم توسيع مصنع الملابس الجاهزة حيث تم تأسيس مصنع حديث للباس الرجال أي شركة إيكوتيكس هو بمثابة مضرب لمثل في الجودة و المتانة و الأناقة ويوجد بولاية بجاية مصنع للأحذية ومركب بتر كيماوي ومصنع مصبرات السردين ومعمل لخشب السنديان.

وتشتهر مدينة بجاية بصناعتها التقليدية فأهالي بجاية يجيدون نسج الزرابي الجميلة ذات الألوان الزاهية وكذا الأغطية، ويحسن أهلها نحت الخشب حيث يصنعون منه صناديق وكراسي و موائد ذات نقوش مميزة تعبر عن ماض تليد، أما صناعة الخواتم والعقود الفضية فأهل المدينة لهم في ذلك باع طويل وتقاليد أصيلة.

وميزة البجائيين تعلقهم بالموسيقى الأندلسية الأصلية و هذا يدل على مدى تشبثهم بالحضارة العربية الإسلامية عبر التاريخ ، ومدينة بجاية تمثل مدرسة قائمة بذاتها في العالم الموسيقي الأندلسية.

ولأهالي المدينة ميل كبير للعمل المسرحي من النوع الممتاز حيث تكونت فرقة مسرحية تابعة للمسرح البلدي لمدينة بجاية لها ممثلون وممثلات لهم مستوى عالي في تأدية الأدوار المسرحية وقد حظيت بحضور مسرحية "اشكون" قبل سنة خلت بمناسبة انعقاد ندوة تاريخية حول الدولة الموحدية أشرفت عليه ولاية بجاية ومديرية الشؤون الثقافية بها، والمركز الوطني للدراسات التاريخية، فلمست خلال هذه المسرحية مدى تفاعل المخرج والممثلين مع النصوص المسرحية العالمية الحديثة.

تاريخ مليانة مدينة الجهاد و الشرف والمجد

مليانة مدينة تاريخية تقع فوق هضبة ترتفع 900 مترا عن سطح البحر و يحيط المدينة جبال غنية بالنباتات القصيرة و تمتاز منطقة مليانة بحقول العنب و الكرز التي زرعها الفلاحون الجزائريون واليهود والمعمرون و بالقرب من مليانة يوجد جبل زكار الذي يبلغ إرتفاعه4000 آلاف قدم، وتقع المدينة في سفحه، وقد برهنت الآثار القديمة التي عثر عليها في مليانة، من أحجار منقوشة و تماثيل و بقايا الأعمدة التي استغلها الأتراك في بناء سور المدينة على الأهمية التي كانت لمليانة في العصر الروماني[81]، وقد عرف الدكتور شو مونسيبيروم مليانة الرومانية و ادعى أنه عثر هنا على قبر أحد أحفاد بومبيوس و الواقع أنه يقرأ فوق تابوت روماني وضع في مكان غير بعيد من المسجد اسم[82] بومبيوس كيني فيليوس، و المعروف من مارتيال إن حفيد بومبيوس الكبير قد مات بعيدا عن وطنه في مكان غامض، إذن كانت مليانة الرومانية، رغم أثارها التي تدل فخامتها مكانا غامضا مثل كثير من المدن الإفريقية، ايكوسيوم.

مليانة في القديم

وهناك من يرى في قبر بومبيوس ضريح بومبيوس الكبير نفسه و لكن لا نعرف شيئا عن قبر آخر لثالث حكام روما و يقول مارتيال و هو شاعر روماني توفي في بداية القرن الثاني الميلادي[83] كان أحفاد بومبيوس في أسيا و أوروبا أما هو نفسه فقد في ليبسا إن كان ما روي صحيحا[84]، حقا أن عبارة دفن "بليبيا" تدل على هذا غير أن مليانة بعيدة نوعا ما من بليزيوم التي لقي حتفه فيها.

وكانت مليانة في العهد المسيحي مثل أية قرية في إفريقيا مقر الأسقف، وقد وصل إلينا إسمان من أسماء هؤلاء الأساقفة، حيث تم ذكر الأسقف الكاثوليكي فيكتور.

وعن أصل مليانة القديم تذكر الآداب الرومانية مدعمة بالحفريات الأثرية التي أجريت في القرن 19 ميلادي على أنه وجدت مدينتين هما منليانة MANLIANA وزوقبار ZUCCHABAR في دليل المسافر لانتونين ITINEAIRE D'ANTONNIN وجاء ذكر اسم مليانة في الجغرافية بطليموس GEOGRAOGHIE DE PTOLEMEE

---

(81) - انظر هاينريش فون مالتسان ، ثلاث سنوات في شمال غرب إفريقيا / الجزء الأول /ص 177.

(82) - نفس المرجع ص / 177.

(83) - نفس المرجع ص 178.

(84) - نفس المرجع ص 178.

ورد اسم مليانة وفي سجل المحاضرة الأسقفية Confeance EPISCOPALE بقرطاجة عام 484 ميلادية ورد اسم أسقف مليانة وهو فكتور[85] VICTOR وقد درس بربروجر BERBRUGGER كتابة منقوشة على قبر اكتشف قرب خميس مليانة عام 1849ميلادية تعني فتاة اسمها منليا MANLIA بنت لوكسيوس LUCCIUS وهو من أثرياء زمانه وكان له أملاك واسعة.

ويرى الحاج صادوق أن هذه الأسماء المتشابهة توحي بأصل لاتيني[86] لكن اسمها يطلق على فرع من قبيلة بربرية في ناحية بني هندل جنوب الأصنام وعلى قصر بربري من قصور توات واعتمد الحاج صادوق في رأيه هذا على ما كتبه روني باسي BASSET RENE في دراسته لقبيلة زناتة الموجودة في الونشريس و المغرب الأوسط ص1-2 باريس 1895، ويستنتج من ذلك أن اسم مليانة مستمد من البربرية دون أن يعرف معنى ذلك بالضبط .

أما زوكبار فهي تقع في موقع جري تحديده بين عريب و عين الدفلة على الشط الأيمن من نهر الشلف و قيل أن هذه المستعمرة كانت موجودة حوالي 27 ق.م و و25 قبل الميلاد أثناء عهد يوبا الثاني الذي جعل عاصمته يول مقر موريتانيا القيصرية و ذكر بلين القديم[87] في كتابه "الطبيعيات" اسم سوكبار SUCCHABAR بينما ذكر بطليموس المذكور أعلاه زوكبار ZUCCHABAR وكان عبارة عن باب من أبواب شرشال الذي سمي بـ"باب زوكبار" و ذكر اميامرسلان سوقبريتم SUCCHABARITUM، وفي سجل محاضرة قرطاجية في عام 411م و484 ميلادية ورد ذكر أساقفة زوكباريتا نوس.[88] ZUCCHABARITANUS

وزوكبار أبت أثناء القرن السادس الميلادي بسبب الفتن و الثورات فضاع إسمها معها.

واختلف في موقعها بين خمسة مواقع هي :

1 - مزار سيدي عبد القادر المشرف على خميس مليانة.

2 - بلدية سيدي لخضر لا فارند سابقا.

3 - خميس مليانة .

4 - جمعة عمورة.

5 - أخيرا مليانة[89].

---

(85) - محمد حاج صادق ، مليانة / ص 20.

(86) - نفس المرجع /ص 20.

(87) - نفس المرجع ص 21.

(88) - نفس المرجع ص 21.

(89) - نفس المرجع ص 21.

غير أن مليانة أو منليانة اسم مستعمرة في حوز زوكبار الحاضرة المعروفة ولكن وزكبار غير معروفة عند الجغرافيين والرحالة العرب ولا الأوروبيين.

وجاء ذكر مليانة عند ابن حوقل وقال أن مليانة على مرحلة من الخضراء (عين الدفلى الحالية) وأنها أزلية ولها أرحية على نهرها وسقي كثير من واديها[90].

العبدري في مليانة

وزار العبدري صاحب الرحلة المغربية مدينة مليانة فقال ...ثم و صلنا و قد ألقى جمل الإعياء جرانه وغني بليل العناء ألوانه، إلى البلدة الخصيبة مليانة وهي مدينة مجموعة مختصرة، وليست مع ذلك عن أمهات المدن المقصرة[91]، أشرفت من كثب على وادي شلف، واستشرفت نسيم طرفها من شرف، في روضة جمة الأزهار و الطرف، فرعت في سفح جبل حمى حماها أن يرام، وشرعت في أصل النهر يشفى المقيم من الهيام شاق منظرا وراق مخبرا و شفا الظمأ موردا ومصدرا، يشتهى الناظر إليه وهو ريان الشروع ويقول لورش به لأفاق المصر وع كان حصباءه جمان والماء من رقته دموع ، وبها جامع مليح عجيب يدعو الشوق من رآه فيجيب، ولكن الزمان قد عوضه من حلي عطلا، وأداله من حكمة خطلا و أبدل هالته السهى من تلك الأقمار، وكساه بعد الخبر الأطمار وأحل جلاله بعد الإنس بأنسها وخشة الغمار، فلو صرحت في الجوى بالجواب وأفصحت عن وقوع النوى بالنوائب النواب لأنشدت باستعجال وقالت بارتجال:

زمان لدى عهد الشبيبة قد سعى ... أعلل فيه النفس على أوعسا

لعل ربوعا من حلاها عواريا ... تعود لها تلك المغافر ملبسا

لعل نجوما كنت هالة بدرها ... ستجلو[92] أظلاما حل أفقي فالبسا

وعلى كل حال فإن مدينة مليانة قديمة تاريخيا، كان لها وجود في العهود الفنيقية والبربرية والرومانية مع هذا ففي العهد الإسلامي أصبحت ذات أهمية تاريخية واختط المدينة بلكين بن زيري بن مناد وهو من أشهر أمراء صناهجة، كان في خدمة الفاطميين قضى حياته كلها في محاربة زناتة في المغرب الأوسط حتى أقصاهم عن البلاد واستولى على المسيلة والزاب (منطقة بسكرة) وفاس وسجلماسة وهزم برغواته حتى وافاه الأجل وهو في طريق العودة 373هـ/984م[93] .

---

(90) - نفس المرجع ص 22.

(91) - نفس المرجع ص 22.

(92) - رحلة العبدري تحقيق محمد الفاسي الرباط 1968، ص 14-25.

(93) -نفس المرجع ص25

وعرفت مليانة ازدهارا مرموقا في الزراعة و التجارة في العهد الزيري.

أرسل الخليفة أبو يوسف يعقوب جيشا كبيرا لمطاردة بقايا المرابطين فثار أهل مليانة و خرجوا على طاعة ابن غانية وبايعوا الموحدون مرة أخرى و لم يستطيع ابن غانية مواجهتهم فغادر مليانة فارا بين الجبال الناحية إلى أنهم ألقوا عليه القبض وقتلوه وبقيت مليانة تحت أمر بني منديل[94]

وكانت مليانة إبان قرنين كاملين موضوع نزاع وسبب حروب بين الحفصيين والزيانيين وبني مرين ، وكانت هناك خلافات شديدة بين المرنيين وبني عبد الواد سببها الجوار في المواطن والملك والمنافسة في استقلال بزعامة ورياسة زناتة.

وفي القرن الثالث عشر تولى أبو محمد عبد الله الحفصي قيادة الناحية الشرقية واستقر في تونس، ومنها واصل الحرب ضد يحي بن غانية في منتصف 624هـ/1227م ثم انتقل إلى مليانة مقر بن غانية وطرده منها فاضطر إلى الفرار بعيدا إلى أن وصل إلى سجلماسة غير أنه عاد إلى مليانة في 633هـ/1237م فوافاه الأجل في ضواحيها.

وعندما استغاث بني توجين وبني مديل ببني حفص، جاء أبو زكريا الحفصي إلى تلمسان غازيا ووقف مدة وجيزة في مليانة و قام حكم العباس بن منديل على مليانة ومغراوة ككل، فانتهز الفرصة ولما توفي العباس جاء بعده أخوه محمد بن منديل فاستتب الأمن و الهدوء مع سلطان تلمسان وخرج أبا العناس أحمد الملياني عن طاعة الحفصيين ومكث مدة ثم خلفه إبنه الذي واصل مقاطعته للحفصيين حيث منع الدعاء لبني حفص في مساجد مليانة فبعث الخليفة المستنصر الحفصي أخاه في عسكر من الموحدين و هاجموا مليانة و دخلوها عام 659 وفر أبو علي الملياني ليلا من بعض قنوات المدينة.

ونزل على يعقوب بن موسى أمير العطاف[95] من بطون زغبة فأعانه إلى أن وصل إلى يعقوب بن عبد الحق ، و انصرف جيش الموحدين والأمير الحفصي إلى تونس وجعلوا محمد بن منديل أميرا على مليانة. وبعد عامين من حكمه للمدينة تآمر عليه ثابت و عايد بن منديل (وهما إخوانه) فقتلاه، وحكم عمر بن منديل مليانة بمؤازرة يغمرا سن.

---

(94) - أنظر الدكتور مولاي بلحميسي له مقالة عن تاريخ مدينة مليانة نشرها في الكتاب الذي أشرف عليه الشيخ عبد الرحمن الجيلالي بعنوان تاريخ المدن الثلاثة الجزائر ومليانة و المدية ص 303.

(95) - نفس المرجع ص 303.

مليانه عبر التاريخ

وتعاقب على حكم مليانة المرينيون و الزيانيون ثم جاء بعدهم العثمانيون، فقام عروج وخير الدين ببسط نفوذهم على مدينة الجزائر بعدما طلب الجزائريون يد العون لكيلا يستعمرها الأجانب المسيحيون ، فقام بابا عروج برضع مليانة و تنس تحت حكم الأتراك مابين 1561م-1517م و قد أبدى صاحب الإمارة حميد العبد مقاومة لبابا عروج[96].

وإبان عهد الدايات و البايات الأتراك أصحبت مليانة تابعة لبايلك الغرب الذي جعل من مازونة عاصمته ثم عند تنظيم الإدارة العثمانية في الجزائر أصبحت مليانة تابعة لدار السلطان و تحت حكم الداي مباشرة .

وكان لأتراك الجزائر وعي تام بالمكانة الإستراتيجية لمدينة مليانة لأنها همزة وصل بين مدينة الجزائر ومدن بايلك الغرب مثل مستغانم ووهران، واسكنوا بضواحيها قبائل المخزن وجعلوا مليانة "قناق" أي نهاية مرحلة غير أن أهالي الناحية من ريغة رفضوا الإنضياع إلى الحكم الجديد فقاموا بثورات مشهورة منها ثورة "بوطريق" عام 1544 قتل فيها الحاكم التركي حسين بمليانية فأعلن داي الجزائر الحاج بشير الحرب عليهم فهزمهم و بدد جموعهم[97].

وقامت في ناحية مليانة في أوائل القرن التاسع عشر ميلادي أي في أقل من عشرين عاما من الغزو الفرنسي للجزائر ثورة بني مناد في 1831 خلال عهد قارة باغلى ، واقع تمرد قبائل العطاف تحت قيادة الشيخ البغدادي الذي أصبح صهرا لأسرة الأمير عبد القادر و له أحفاده في وادي الروينة في أيامنا هذه، وقامت ثورة براز تحت قيادة الشيخ جلول بن عبد السلام ضد الأتراك و هناك ثورة بني زقزق قادها الشيخ ملوك.

الأميرعبد القادر في مليانة

أثناء مقاومة الأمير عبد القادر للفرنسيين كانت مليانة تحت نفوذ الأمير إبتداء من 15ماي1835، و قد أسند إدارتها للحاج محي الدين الصغير و إبن أخيه محمد بن علال. وكان محي الدين هذا قد ساهم في تحقيق الإنتصار السياسي الحربي الذي أحرزه الأمير و قدم شتى الدلائل على أخلاصه للأميرعبد القادر فشغل منصب الخليفة للأمير على مليانة بلقب باي على مدى عامين ماي1835 إلى يوليو1837 وقام

---

(96) - نفس المرجع د مولاي بلحميسي تاريخ مدينة مليانة ص 303.
(97) - نفس المرجع ص 304.

بنشاط ملحوظ خلال هذه المدة، فقد أمر بقتل علي الغرناجي قائد بني موسى لأنه كان يعمل لصالح الفرنسيين و عرض على قاتله خمسين دورو من العملة الجزائرية لذلك العهد التي كان لها قيمة كبيرة[98].

وألقي القبض في سبتمبر 1835 على ابن الغبان الحضري الذي أقر بأنه عزم على تسميم الأمير و الخليفة و بعد ضرب ابن الغضبان ضربا شديدا إعترف بفعلته الشنيعة هذه و تم سجنه من أجل محاولة الإغتيال.

بعد وفاة محي الدين خليفة الأمير على مليانة خلفه محمد بن علال و كان يقوم بجمع الضرائب و يقوم بتطبيق أحكام الشريعة العامة و الخاصة.

وقد شارك محمد بن علال في 3يوليو1839 بتازة في جنوب مليانة في إجتماع شرعي ترأسه الامير وحضره جميع الخلفاء و أعيان الناحية وقرروا بالإجماع إستئناف القتال ضد الفرنسيين وقام محمد بن علال بهجوم على وادي العلايق في 2نوفمبر1839 أسفر عن مقتل 108 فرنسي وجرح بن علال في كتفه واستشهد 15خمسة عشر من قادته[99].

جهاد مليانة ضد الفرنسيين

واظهر أهالي مليانة تحت قيادة محمد بن علال شجاعة كبيرة ضد الفرنسيين حتى بعث وزير الحربية الفرنسي يوم 30أكتوبر1841 إلى فالي رسالة جاء فيها :"هل البقاء بمليانة ضرورة حقيقية وهل في ذلك منفعة مفيدة مع ما في ذلك من الأضرار بسبب بعد مليانة و صعوبة تموينها...؟

أو ليس من الأفضل الجلاء عن مليانة بعد تخريبها وتدميرها ولكن فالي كان معارضا لفكرة الجلاء، فأصر على تموين الحامية، وتكبد في طريق عند مروره ببوركيكة.

وشعاب القطاع بخسائر فادحة بسبب هجمات محمد بن علال فقرر في إبانه يوم 9نوفمبر1941 الانتقام من الجزائريين فمر بقبيلة ريغة و سمح لجيشه بان ينهب كل ما يجده وإضرام النار في الديار فدمر الفرنسيون قبيلة كاملة وأحرقوا الكلاء ومطامير الشعير و القمح وسلبوا من الناس الدجاج والثيران والخيول والعملة النقدية والملبس وهربت جماعات كثيرة من ريغة نحو قمم الجبال زكار. وواصل محمد بن علال مقاومة للفرنسيين في ضواحي مليانة[100]

(98) - انظر محمد حاج صادق تاريخ مليانة / ص 40-41.

(99) - نفس المرجع ص 41.

(100) - نفس المرجع ص 45.

وأقام الأمير عبد القادر بهذه المدينة لما كانت تحت نفوذ دولته الفتية وكان مقر سكناه بالقرب من ساحة الساعة و التي كانت حتى بداية الاستقلال الجزائر في 1962 مقرا لرئيس فرع الجيش الفرنسي رائد الجوق التاسع من القواسة المشاة، وهناك أطلال بناية في الجانب الشرقي من الوادي الموازي لسور مدينة مليانة كانت هي المسبك الذي أسسه الأمير لصناعة السلاح و العتاد .

أسرة الأمير في مليانة

عندما أصبحت مليانة في حوزة الأمير لم يكن ضروريا لقاء الأمير فيها لأنه كان عليه العودة إلى الغرب الجزائري لمواجهة صعوبات الحرب التي تجعل حضوره أمر لا بد منه ، ولكن أسرة الأمير كانت مقيمة في مليانة و ضواحيها من أبريل1838 إلى يوليو1839 وقامت أمه وزوجته و بعض افراد أسرته في 14ابريل1838 بزيارة لسيدي أحمد بن يوسف، وبعد ذلك توجهوا إلى بوخرشفة و أقامت أسرة الأمير تحت سور مليانة في 19أوت1838م ولعلهم لجأوا إلى هذا الموقع بسبب شد الحر في سهل لف، وكانوا هناك في بداية سبتمبر من نفس العام بصحبة أسرة الحاج مصطفى بن أحمد التهامي خليفة معسكر الذي قرر هو الآخر إرسال ذويه إلى مليانة بسبب عداء الدواير و الغرابة له[101]

عاد الأمير عبد القادر في 9 فبراير1839 من الجنوب و أقام في بوخرشفة و ترأس مجلس الخلفاء و العلماء للبث في أمور الجهاد ضد[102] الفرنسيين واحتمالات السلام ،وفي17فبراير إلتحق الأمير بأسرته في مليانة و كان في صحبته المولود بن عراش، وتفاوض الأمير في مليانة مع العقيد الفرنسي دي سال صهر الماريشال فالى جاء لمفاوضاته في تحوير بعض الشروط من اتفاقية تافنة.

مليانة في العهد الأوروبي

قام الفرنسيون بعد احتلال مدينة مليانة لوضع تعميم لها على الطراز الأوروبي لجنوب فرنسا و طبقوا قواعد التخطيط التي سنها هصمان HAUSSMANN، فخطوا أزقتها بخط مستقيم و جعلوها متقاطعة، بزاوية مستقيمة وأحدثوا حولها الشوارع وغرسوا أشجارا من نوع الساج فنما نموا عجيبا وأضفى عليها طابعا جميلا ومحيطا من الظل والبرودة، وشيدوا عمارات عمومية منها البلدية ومقر الدائرة مدرسة تكوين المعلومات والمدرسة الابتدائية العلا ومدارس ابتدائية للبنين والبنات، وقشلة الجوق

(101) - نفس المرجع ص 48.

(102) - نفس المرجع ص 48-49.

التاسع للقواسة[103] ومستشفى ومسبح وعمارات سكنية وحديقة عمومية مع قاعة سينما في الهواء الطلق داخل المدينة الحديثة نفسها وبنى الفرنسيون سورا بأسلوب فوبان السور الذي بناه الأتراك في مليانة و يعد ذلك تشويها للمآثر التاريخية ، في المدينة ومسخ لطابعها المميز وقد عانت من هذا التشويه مدنا جزائرية عديدة مثل مدينة الجزائر، ووهران، وقسنطينة، والمدية والبليدة وغيرها من المدن.

وإن الزحف الأوروبي العمراني على مدينة مليانة التاريخية العتيقة أدى إلى ضياع طابعها العربي الإسلامي فلم ينج من هذا التشويه إلا جزءا صغيرا من المدينة القديمة في الجانب الشرقي حيث هناك بعض الأزقة العربية التي مازالت فيها بيوت ذات طراز عربي، وبقيت ماثلة إلى اليوم دار الأمير عبد القادر التي جعلها الفرنسيون نزلا[104] لشعبة الجيش الفرنسي ، ونجا من الضياع منارة المسجد الموجودة في ساحة الساعة بقلب المدينة وهي شاهد حي على مسجد دمروه بسبب الحقد الدفين لكل ما هو عربي إسلامي عند أقلية مسيطرة أوروبية و سلم من الضياع مسجد سيدي أحمد بن يوسف الذي يعد أحد معالم مليانة العتيقة لعهد ما قبل الاحتلال الفرنسي.

أما القاطنون في مدينة مليانة عند نهاية الحرب العالمية الأولى فكان تعدادهم 8.824 نسمة من بينهم 1020 فرنسيا من العنصر الأوروبي و744 يهوديا حاصلين على الجنسية الفرنسية و467 أجنبيا من أوربا تجنسوا بالجنسية الفرنسية و981 أجنبيا و5.414 جزائريا و198مغربيا، كل هؤلاء كانوا مقيمين في بلدية مليانة وحدها. وكان الأوروبيين و اليهود يحتكرون الأمور التجارية مع وجود بعض الجزائريين التجار فالمقاولات و المؤسسات الخاصة كلها كانت تابعة في اغلبها للأوروبيين واليهود في نهاية الحرب العالمية الأولى و بقيت وتيرة سير دوالب على نفس المنوال بعد ذلك عن طريق هيمنة تلك الأقليمة المسيطرة تجاريا إبان الحرب العالمية الثانية و ما بعدها حتى نهاية الإحتلال الفرنسي في مدينة مليانة[105]

وكان الرئيس البلدية غير جزائري و كان مساعداه إبان نهاية الحروب العالمية الأولى كارو CARRU وجردان JOURDAN وكاتب البلدية كلهم أجانب أما المكلف بالأحوال المدنية الأهلية فكان يهوديا يدعى بوشناق سليمان ، ومهندس الطرق يدعى لوساج LESAGE أما سؤول الكهرباء فهو ماركال والبيطار بن دانو وهو يهودي[106] وفي مصلحة

(103) - نفس المرجع ص 57.

(104) - نفس المرجع ص 57.

(105) - نفس المرجع ص 58.

(106) - نفس المرجع ص /58-59.

الضرائب نجد برنهاردت- BERNHART وقيتون ودادون، أما وكلاء السمسرة فكان يشرف عليها بناديرة قابرييل وقرازياني GRAZIANI وسنانج SNANEDJ وكان في مليانة مزارعون كولون منهم أدريان ADRIEN وكازانوقا CASANOVA وشالم وهو يهودي ودنجي DANGER وهو قون HUGON ولافون- LAFON و ملبار MALBERT ومريني MARINI وهي إمرأة ورستيكلي وسرلات SARLA وسبيارد SPIARD وركادال وفولكان VULCAIN، أما و كلاء التأمين فكان يمثلهم أندري ودهان DAHAN وهو بدون شك من يهود الأندلس الذين هاجروا إلى الجزائر بعد سقوط الأندلس واسمه مشتق نسبة لمدينة طليطلة الأندلسية، والحدادون منهم شيشة وبونفو BANNEFOY وليوارت وبريز PERES أما بائعو الأحذية منهم بجائيي BEDJAI وبناديرا ولكار ودرعي DRAI وقراندو أما الحلاقون فمنهم بن طليله وغناسيا GHENASSIA وفريسييري و قبالي و بائعو المياه المعدنية مادام كارو وسيشي عنري، اما القصادرة فمنهم يوسف قيقي و مخلوف و زناتي وعبادية OBADIA وسعيد وكلهم من يهود الجزائر، أما مساحو الأراضي فمنهم كور COURT وريشارد كابانيس ، والميكانيكي وهو لوش(107) LOUCHE.

أما الجزائريون فكان من المالكين التجار فلاح واحد هو أحمد الشرشالي، وبائع لعب قوجعلي و خباز يدعى السعودي وتاجر في الحبوب هو محمد الشرشالي واما مالك الطاحونتين للحبوب هما من عائلة شرشالي الآنف ذكرها، وكان في مدينة مليانة أربعة جزائريين من صناع التبغ هم عزيزي والحاج مولود بن نابي، وإسماعيل دهلوك ومحمد بن مصطفى بن نابي وكان في ضاحية مليانة سبعة و ثلاثون مزارعا للكروم كلهم أوروبيين غبر جزائريين وهذا في نهاية الحرب العالمية الأولى.

وكان للشوارع والأزقة "أسماء فرنسية" ونضرب مثلا على ذلك بشوارع سن بول وسان جان وكليبير وفلوروس وموقادور ولو أن هذا الاسم الأخير ليس فرنسيا بل فنيقيا نسبة لجزيرة موقادوربالقرب من الصوبرة المغربية، وكان في مليانة مقاهي بأسماء فرنسية مثل "كافي ليون، وكافي دي كومرس و كافي بروقري أوتيل دولابي(108) HOTEL DE LA PAIX.

وكان الجزائريون من أهالي مليانة يمثلون ستين في المائة من مجموع سكان المدينة كانوا يعملون في بساتين مليانة كأجراء و عمال زراعيين وعمال منجم الحديد و كناسين للأزقة ، وماسحين للأحذية و حمالين و منهم حتى الشحاذين أو المتسولين بسبب شدة الفقر الذي كان يعم بعض الناس المعوزين من الجزائريين.

(107) - نفس المرجع ص 59.
(108) - نفس المرجع ص 60.

وكان بعض الجزائريين يعملون في الإدارة الفرنسية في منصب مساعد عدالة وترجمان وقاضي وشاوش ومساعد الإدارة وخوجة وقائد ومخازني عمل بعض الجزائريين في التجارة كعطار و تاجر حبوب وبائع وخباز وطباخ وخياط[109]

من أعلام مدينة مليانة سيدي أحمد بن يوسف

إنه الوالي الصالح لمدينة مليانة، ولد في 1442م ولا ندري تاريخ صغره القراء والكتابة و حفظ القرآن في احد مساجد رأس الماء أو قلعة بني راشد وتتلمذ سيدي احمد بن يوسف على يد العالم أحمد زروق البرنسي (846هـ/1442م/899-1493) الذي كان له تأثير كبير في الوالي سيدي أحمد و قد ذهب إليه من رأس الماء إلى بجاية وأخذ عنه مبادئ صوفية وأدخله الخلوة وألبسه الخرقة ودرس بن يوسف عند زروق الروايات السبع والسيرة النبوية على كتاب الشفاء للقاضي عياض[110] و التصوف على كتاب ابن عطاء الله تاج الدين المتوفي عام 709هـ/1309م[111]

ويقال أن سيدي احمد بن يوسف تأثر بأفكار كبار الصوفية في المشرق إبان صدر الإسلام، منهم مالك بن دينار ابو يحي الشامي المتوفي بالبصرة عام 130هـ/747م، وغبراهيم بن الأدهم أبو إسحاق المتوفي بخرسان عام161هـ/777م وذو النون المصري المتوفي بمصر في الجيزة عام 246هـ/861م فمن شدة تأثره بهم وصل به الأمر إلى الدخول في الطريقة الشاذلية، اخذ بيده في ذلك معلمه زروق[112]والشاذلية حركة صوفية تطالب إتباعها بالسياحة على وجه الأرض عملا بالحديث الشريف " سيحو تصحوا" وبالقول المأثور لا خير في رجل لم يجل و لهذا ساح سيدي أحمد بن يوسف طيلة خمسة عشر عاما فقضى عامين بالريف في شمال المغرب الأقصى كمجاهد و أقام بفاس في جوار أجداده: من سلالة مولاي إدريس، ومكث مدة من الزمن في تازة و السوس كمجاهد صوفي ، ووجده و تلمسان و تيهرت وفيجيج بقي فيها ثلاثة أعوام و الشلالة الغربية و العامرية بالقرب من وهران وفي كريستال ومزغران ويلل وسيرات و مليانة و قضى ثلاثة أعوام في الوانشرس ، وثلاثة أعوام في جبال جرجرة وبنى منجلات، وأسس فيها و مكث في بجاية و جبل زغوان عام ونصف، وعرج على الذاب و الجريد و القيروان و طرابلس و الإسكندرية و القاهرة و جدة و مكث في مكة ثلاثة أعوام و في المدينة عام[113] وهناك من يشك في هذه المرحلة الطويلة .

---

(109) - نفس المرجع ص 60.

(110) - نفس المرجع ص / 82-83.

(111) - نفس المرجع ص 82.

(112) - نفس المرجع ص 82.

(113) - نفس المرجع ص 83.

واتصل سيدي أحمد بن يوسف بعلماء عصره من أمثال محمد السنوسي ابن زكري، وابن مرزوق الخطيب.

وكان في أواخر حياته مقيما عند بني راشد في الظهرة شمال وادي الفضة ولما أحس بقرب أجله أوصى إتباعه بأن يجعلوا جثمانه بعد مماته على ظهر بغلته وأن يدعوها تسير حرة ففعلوا ذلك وسارت البغلة شرقا ووقفت بمليانة حيث بركة في قمامة اليهود وماتت فدفنه المليانيون في المكان الذي بركت فيه البغلة و دفنت بقرية.

أبو العباس احمد الملياني

من مشاهير مليانة أبو عباس احمد الملياني فقيه محدث بارع خرج على يده عدد من العلماء و كان ذوهمة وديانة، جلب له مودة أولى الأمر من معاصريه أمثال أبو يوسف يعقوب المنصور سلطان المغرب بفاس الذي كلفه بإدارة مليانة[114] ومن أعلامها يحي الشاوي الملياني .

وليس لنا علم بتاريخ ولادته و لا سبب نسبته إلى الشاوية وأولاد نايل تابع دراسته الأولى في مليانة وأقام في تلمسان فدرس بها على يد سعيد المقري[115].

وفي الجزائر أخذ العلم من العالم المغربي أبو حسن علي أحمد بن الواحد الأنصاري السجلماسي، وسعيد قدورة وعيسى الثعالبي، واجتهد الشاوي لتعميق معارفه في الفقه و البيان و النحو و المنطق والحديث والتفسير والتصوف.

وعاضش ردحا من الزمن في بجاية وقسنطينة وعنابة ثم رحل إلى مكة لأداء فريضة الحج في 1074هـ/1663م ثم مكث مدة من الزمن في القاهرة حيث قرأ على مشاهير علمائها البابلي والشرابلي والمز رعي ثم علم في جامع الأزهر وتولى قضاء الملكية بعد عزل الشيخ عملا فكرون. وتولى فتوى المالكية، وألقي الدروس في ثلاث مدارس بالقاهرة هي الإشرافية و السرغتمية، ثم مضى إلى دمشق و ألقى دروسا بمسجد بني أمية بمحضر علمائها الأجلاء الدين إلتمسوا منه الإجازات فأجار محمد الأمين بن فضل الله المحبي صاحب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر[116].

سمي الشاوي في أواخر حياته أمير الحج على المركب المغربي وقاد قافلته عدة مرات إلى مكة مفضلا طريق البحر فمات على ظهر سفينة في البحر الأحمر عام 1685م ودفن برأس ابن محمد ثم في جبانة القاهرة بفضل مساعي إبنه عيسى.

---

(114) - نفس المرجع ص 114.

(115) - نفس المرجع ص 115.

(116) - نفس المرجع ص 115.

وترك يحي شاوي الملياني آثار ومؤلفات كتبها في القاهرة و هي خمس رسائل في توحيد وأربعة في النحو وواحدة في التفسير يوجد منها مخطوطات بخزانات الرباط وتطوان وتونس وإستانبول و القاهرة وبرنستون.

***

قسنطينة عبر التاريخ

سميت مدينة قسنطينة بهذا الإسم نسبة إلى منشئها القيصر المسيحي الاول قسطنطين إذ أنها كانت قد هدمت بشكل كبير أيام تلك الحرب التي وقعت قبل إعتلاء هذا الحاكم العرش ببضع أعوام، بين مارينتيوس MARENTIUS ومنافسة الأسكندر، وهو فلكي برهن للأهالي على اعترافه بجميلهم لأنهم بايعوا ملكا بعد موت مارينتيوس مباشرة، فأمر بإعادة بناء الوكر الإفريقي ، وسماه باسمه و كانت قسنطينة قبل ذلك الفترة تحمل اسما ساميا ر بما فينيقيا أو قرطاجيا، أو بربريا وهو قرطة، وكانت تستحق فعلا هذا الاسم و أقام فيها النومديون وأهالي قرطة في مدينة، ولا أعتقد أن الفينيقيين أو القرطاجيين هم بناة قرطة بل بناها النوميديون وهناك تأثيرات قرطاجية بونية في مدينة قرطة القديمة في كتابات قرطاجنية، ونصب تذكارية وشواهد القبور وهذا لا يعني إطلاقا أن مدينة كانت قرطاجينية وأن بناتها هم القرطاجيون .

فآثار الحفرة قسنطينة تبرهن على أن هناك تفاعل حضاري وإشعاع قرطاجني جرى في قرطة من خلال التواصل الحضاري الذي جرى بين القرطاجنيين والنومديين وأن تبنى النوميديون للغة القرطاجنية يدل على أن القرطاجنيين كانت لهم تأثيرات لغوية وحضارية على النومديين وقسنطينة القديمة أي قرطة كانت موجودة فوق صخور منعزلة، فتبدو شبيهة بوكر النسر و تحيط بها في السهل من جميع النواحي منحدرات سحيقة، وثمة نهر تجرى مياهه مخترقة صخورها. ولا شك أن هذه المنحدرات السحيقة، التي تحيط بالهضبة الصخرية، كانت في الحروب القديمة تحول بين العدو المحاصر و بين الدخول إلى هذا الحصن الطبيعي وتجعله مستحيلا عليه تقريبا، وذلك ما يفسر لنا لماذا تحدث قسنطينة عوائد الدهر واستعصت على الغزاة المدمرين من فاتحي إفريقيا.

وكانت قرطة عاصمة ماسينيسا في القرن الثالث قبل الميلاد أي بمثابة عاصمة الموحدة للمملكة النوميدية حيث حكم ملك الماسيلس والمازيسيلس، وكانت هذه المدينة عاصمة صيفاك بصفة مؤقتة ردحا من الزمن قبل أن ينتصر عليه ماسينيسا لأن عاصمة صيفاك الدائمة كانت سيغا بالقرب من عين تموشنت وغير بعيد عن جزيرة رشيقون المتوسطية التي يناها الفينيقيون والتي نجد فيها آثار فينيقية ماثلة فيها حتى اليوم، على كل حال إستولى ماسينيسا والرومان على قرطة بعد فترة وجيزة من إنتصارا صيفاك.

وكانت قرطة عاصمة يوغرطة الذي اعلن حربا ضروسا ضد الرومان وجعل عاصمة ملكه هي قرطة التي كانت مركز إستراتيجي ومنطق للمقاومة النوميدية تحت قيادة يوغرطة ضد الرومان في الفترة الزمنية تمتد من 111 إلى 106 قبل الميلاد.

وجعل القيصر أحد قادته العسكريين حاكما عليها، وظل إسمه فيما يبدو مرتبطا بالعاصمة النوميدية قرطة مدة من الزمن ويدعى بوليوس سيتيوس نوسيرينوس Publiussittius nucerinus وبومبونيوس ميلا وصفها بأنها مستعمرة سيتيوسية-Sittianorum Colonia وعاشت تحت هذا الإسم الغامض مدة ثلاثو قرون إلى أن وقعت في يد قسطنطين، فجعل لها أهميتها واطلق عليه إسما ملكيا جديدا[117].

ولكن اسم قسنطينة لم ليبث أن لحقت به وصمة عار ، وذلك من طرف المجمع الكنسي، الذي عقده فيها سوكوندوس التغيسي و برأ فيه جميع الأساقفة الذين نشروا البخور حول الأوثان أو حرصوا على تسليم المسيحيين أي الإنجيليين، وقد شارك أسقف قرطة (أي قسنطينة) باولوس Paullis نفسه أثناء عملية الإرهاب الأخير الموجهة ضد المسيحيين في تسليم الإنجيليين و الأواني المقدسة للجلاد الوثني ، أما مساعده هيبودياكنوس سيلفانوس hybobiaconus silvanus الذي كان في مقدمة من أشار عليه بتسليم الإنجيليين عقابا لهم ، فقد عينه سوكوندوس التغيسي المذكور بعد موت باولوس أسقفا[118].

ونجت قسنطينة من غضب الوندال المدمر، ذلك أنهم اكتفوا بتحطيم أسوارها، التي أمر جوستينان بإعادة بناءها وأطلق عليها اسم جوستينيانيا، ولكنها فيما يظهر لم يحتفظ به، وكانت قسنطينة مركز عبور الرحالة العرب التي وصفوها وصفا جميلا.

---

(117) - انظر هاينريش فون مالتسان ، ثلاث سنوات في شمال غرب إفريقيا ص 32تعريب د/دودو .

(118) - نفس المصدر ص 32 .

البلوي في قسنطينة

زار خالد بن عيسى البلوي الأندلسي قسنطينة وهو صاحب كتاب تاج المفرق في تحلية علماء المشرق وهو من الرحلات، وصف[119] قسنطينة التي زارها اثناء رحلته نحو الحجاز عام 737هـ/فقال: فسرنا على تلك الحال، ونحن من طوفان تلك السحائب في أعظم الأوحال، وقد أعيا الركوبة ما أدهى حمله من مستتقع الأثقال، حتى وصلنا إلى قسنطينة والركاب فاشلة، والنفوس ذاهلة، والتلاع سائلة، وجفون السحاب هامله هطالة، والشابيب مستمرة وحلاوة العيش ممره والأوحال تمنع من خروج يعيد الأبدان مغفرة والثياب معصفرة، فحللنا منها في حصن حصين ومكان مكين وربوة ذات قرار ومعين و قاعدة أمن و تأمين، وتمهيد و تسكين، صحيحة الهوى وبسبب ذلك تنسب إلى الهوى المقصور، فيقال : قسنطينة الهوى، ناهيك من مدينة تحوم حول السحاب القطر، وتسوم بارتفاعها مراقي الكواكب الزهر، وتصون بإمتناعها من حدثان الدهر وتصول ببساط الملك وبسيط الزهر وتروق بناعم الروض وهامر النهر، وتفخر بجمال المحاسن كل الفخر، ويخترق بطاحها نهر ينساب فيها انسياب الأرقم ويدور بها السوار بالمعصم، ويغوص ببعض حافلتها فيغيب عن عين، ثم يبدو بخارجها كأنه سبائك اللجين، فيسيل على تلك البطاح سيلا، ويتخللها جداوله فتجر بها ذيلا، وتعمها شربا وتسقى منه بماء واحد ورياه تعود منه بما شئت من صلة وعائد :[120]

نهر يهيم بحسنه من لم يهم — و يجيد فيه الشعر من لم يشعر

ما اصفر وجه الشمس عند غروبها — لا لفرقة حسن ذاك المنظر.

بها تتوفر الأرباح وبأعلاها تتبارى الرياح، وبشتى أقطارها يتلاقى التجار والفلاح، ويعتز الساكن منها في حصن الحمى[121] والمواطن الاسمي، والمحل الأسنى والعيش الاهنى ويمسك له في خزائنه الواسعة من ياقوت القوت ما يفنى الدهر وهو لا يفنى، تهابه النفس عند موافاته وتأوي الفتح الكواسر بأدنى حافاته، وتزل أقدام الصاعدين غليه على أكثر صفاته وتعجز أوصاف الواصفين عن بعض صفاته :

و يكاد من برقي إليه مرة — من دهره يشكو انقطاع لأبهر.

وبادرت فدخلتاها في يوم جمعة السادس عشر لرجب المذكور، وبادرت إلى لقاء الفضلاء ومباحثة النبلاء، اجتلى واجتنى ولا اجتنب، أنا والطرس في ملأ انتقى منهم

(119) - انظر خالد بن عيسى البلوي تاج مفرق في تحلية علماء المشرق مقدمة و تحقيق الحسن السائح ص /159.

(120) - نفس المصدر ص 159.

(121) - نفس المصدر ص 159.

وانتخب، فمما أنشدني المنزل، رب المنزل الشيخ الإمام الراوية الحاج الفاضل المتفضل : أبو الحسن علي بن عبيد الله لبعضهم.

وذكر لي قال كتب بعض السؤال إلى بعض أهل هذه المدينة يستجديه و يستحثه بقوله :

ماذا أقول إذا سئلت و قيل لي

ماذا لقيت من الجواد المفضل

وأنشد الحاج الفاضل أبو حسن عبيد[122] الله إلى البلوي قصائد تقيدت في غير هذا، وقال البلوي أجازني جميع مروياته ، فهو روضة الأدب الناعمة الغضة، وصحيفة "الرواية النقية" المبيضة، وحامل المكارم المنقضة والمحامد المرفضة، وجامع المحاسن التب بها أدمع الصبابة منفضة، السنالمن وأخاه السنى في كل ما يتوخاه، العاكف ما يحمد عقباه العارف بما رواه و رواه الحفى بمن أثاه المنيب إلى أواه الخاشع لمولاه أبو الحسن بن عبيد الله تغمده اله برحمته و جعل الجنة نزله ومثواه برحمته ولم أزل أوالى أهل الولا، وإختص بذزي السؤدد والملا، حتى جاء الفراق ومارق ولا رق فأنشدهم و قد قوى العزم لأبي المغيرة بن حزم

وخرج البلوي من قسنطينة ضحو يوم الأحد ثامن عشر من رجب المذكور في جمع وافر ذي خف و حافر[123]

العبدري في قسنطينة

العبدري مدينة قسنطينة و هو يخالف في نظرته ما تصوره البلوي في رحلته حيث نلاحظ العبدري يبدي تشاؤمه في المدن التي ينزلها في البلاد الجزائرية و منها قسنطينة و لا ندري ما هو السبب ؟ و عن و صوله إلى هذه المدينة المشهورة قال العبدري: ثم وصلنا إلى البلد الذي نشفت الخطوب معينة و أبت الأقدار ان تكون له معينة بلد الوضع العجيب و الموضع الخصيب مدينة قسنطينة جبر الله صدعها و كفاها من نوائب الدهر ما واصل قرعها وهي مدينة "عجيبة" حصينة غير أنها لخطوب الزمان مستكينة[124]

قد ذبلت ببوارج الغير، وفوادح الضرر، رياضها و نضجت بسهائم الأفات وعظائم الملمات حياضها، حتى صارت كالحسناء لبست أسمالا ، والكريم فقد مالا، والبطل أثخنته الجراحة.

---

(122) - نفس المرجع ص 160.

(123) - نفس المصدر ص 160.

(124) - انظر أبي عبد الله محمد العبدري ، الرحلة المغربية تحقيق محمد الفاسي ص 32.

حتى لم يطلق إحتمالا ، فهي ترى الحوادث لمكا باصرا وتنادي بلسان الحال ذل لو أجد ناصرا.

من رأيت المنون خلدن أمن وبها للأوائل أثار عجيبة ومبان متقنة الوضع غريبة وأكثرها من حجر منحوت ، يعجز الوصف عن إتقانه و يفوت و قد دار بها واد شديد الوعر بعيد القعر أحاط به كما يحيط السوار بالعصم، ومعناها كما يمنع النوق الأعصم، ولكن سهام الدهر لا تقيها الجبن ولا تمنع منها الفتن وريب المنون وصرف الزمن ... قد أعيت الحيلة فيها من ومن.

لقاء الشيخ أبي علي ابن بادس

ولم أرها من ينتمي إلى طلب ، ولا من له في فن من فنون المعارف أرب سوى شيخ يعلى حسن بن بلقاسم ابن بادس وهكذا قيد لي اسم أبيه بخطه مخطوطا وقال لي أنه إسم و كنية وهو شيخ من أهل العلم يذكر فقها و مسائل[125] ذو سمت و هيئة ووقار وليس في البلد من يذكر بعلم سواه البتة له بالرواية عناية ولم يرو إلا الموطأ وحده فإنه قد قرأه على الشيخ الفقيه المحدث ابن يعقوب يوسف بن موسى الغماري الحساني حين خطر على قسنطينة راجعا من المشرق فأقام عندهم لتوالي الأمطار فقرأ عليه وهو ذاك كبير و فارقه و هو عنده مجهول وما عرف من هو حتى عرفته به حين رأيت خطه كتب على الموطأ و قد قرأت عليه صدرا منه و حدثني به عنه وسمعته يقول سمعت الشيخ الصالح الحاج المسن حسنا الحلفاوي يقول عمرت خمسا و ثمانين سنة ماتم لي بها سرور قط ألا ثلاثة أيام يوم دخولي غلى مكة و يوم وقوفي بمعرفة ويوم دخولي مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم و سمعته أيضا يقول وقع الكلام بين يدي الفقيه الإمام أبي الحسن اللخمي في حكم السفر إلى الحج مع الفساد الطريق و هل الأولى تركه احتياطا على النفس و الاستسلام في التوجه غليه و كان اللخمي مائلا إلى ترجيح الترك قال و كان في المجلس ر جل و أعظ فقال له يا فقيه تسمع ما أقول فقال نعم فانشد :

إن كان سفك دمي أقصى مرادهم فما غلت نظرة منهم بسفك دمي

فإستحن كل من حضر منزعه و انفصل المجلس على ان الأولى هو تحمل الخطر في التوجه و الأعراض عن تلك و سألته عن الأديب أبي علي حسن بن علي بن محمد القسنطيني المعروف بابن الفكون فذكر لي أنه أدركه و هو طفل صغير و لم يحفظ له

---

(125) - نفس المصدر ص 32.

مولدا و لا وفاة و رمت أن أجد من أروى عنه قصيدته المشهورة في رحلته من قسنطينة إلى مراكش فلم أجده فقيدتها غير مروية و كان القسنطيني كتب بها إلى أبي البدر بن مردنيش وهو بقسنطينة وهي هذه[126] رحلة ابن الفكون من قسنطينة إلى مراكش[127]

الأقل للسري بن السري   أبي البدر الجواد الأريحي

أنا معنى السيادة و المعالي   و يا بحر الندي بدر الندي

أما و بحفاك المبدي جلالا   وما قد حزت من حسب علي

وما ببني و بينك من ذمام   وما أوتبت من خلق رضي

لقد رمت العيون سهام غنج   وليس سوى فؤادي من زمي

وحسبك نار قلبي من سعير   وحسبك دمع عيني من أتى

و كنت أضن أن الناس طرا   سوى زيد و عمرو غير شي

فلما جلت ميلة خير دار   أما لتني بكل رشا لبي

وكم أورت ظياء بني ورار   أوار الشوق بالريق الشهي

فجئت بجاية فجلت بدورا   يضيق بوصفها حرف الروي

وفي أرض الجزائر هام قلبي   بمعسول المراشف كوثرى

وفي مليانة قد دبت شوقا   بلين العطف و القلب القسي

وفي تنس نسيت جميل صبري   وهمت بكل ذي وجه وضى

وفي مازونة مازلت صبا   يوسنان المحاجر لوذعي

و في وهران قد أسميت رهنا   لضامر الخضر ذو ردف روي

و أبدت لي تلمسان بدورا   جلبن الشرق للقلب الخلي

ولما جئت و جدة همت وجدا   بمنخنث المعاطف معنوي

وحل رشا الرباط رشا رباطي   وتيمني بطرف بابلى

واطلع قطر فاس لي شموسا   مغاربهن في قلبي الشجي

وما مكناسة الأكناس   لا حوى الطرف ذي حسن سني

وأن تسلا عن أرض سلا ففيها   ظباء صائدات للكمى

---

(126) - نفس المصدر ص 33.

(127) - نفس المصدر ص 34.

وفي مراكش ياويح قلبي أتى الوادي فطم على القرى[128]
بدور بل شموس بل صباح بهي في بهي في بهي[129]
آتخن مصارع العشاق لما سعين به فكم ميت وحي
بقامة كل أسمر سمهري و مقلة كل أبيض مشرفي
إذا انسوني الولدان حسنا أنسيهم هوى غيلان مي
فها أنا قد تخذت الغرب دارا وادعي اليوم بالمراكشي
علي أن اشتياقي نحو زيد كشوقي نحو عمرو بالسوى
تقسمني الهوى شرقا وغربا فيا للمشرقي المغربي
على قلب بأرض عان وجسم حل بالغرب القصى
فهذا بالغدر و يهيم غربا وذاك يهيم شرقا بالعشى
ولولا الله مت هوى ووجدا وكم لله من لطف خفي[130]

كان لمدينة قسنطينة في بداية القرن التاسع عشر أربعة أبواب، وهي باب القنطرة الذي يقع في الشرق و لكنه يتجه نحو الجنوب الغربي ويؤدي إليه فوق هوة الصخور جسر حجري قوي يقوم فوق ثلاثة أقواس، أما الأبواب الثلاثة الأخرى فتقع في الجنوب الغربي في صف واحد، يبعد الواحد منها عن الآخر بحوالي 200 خطوة، فيقع في الناحية الغربية باب الرحبة وقد أصبح أهالي قسنطينة منذ عام 1836 يطلقون عليه اسم الباب الجديد لأنه كان بابا بسيطا ولكنه قوس بقوس وباب وقربه بطارية تحتوي على خمسة مدافع.

أما الباب الشرقي، الذي يدخل الوادي منه، فهو باب الجباية، وباب الوسط هو باب الواد[131] كانت هذه الأبواب كلها تتجه نحو الخارج، بحيث كان في وسع المرء حتى عام 1836 أن ينظر بعيدا عبر الباب المفتوح، وبعد أن أطلق عليها القرنسيون النارنبي أمام كل منها قوس كثافته 12 قدما، فلم يعد من الممكن أن تصيبها القذائف مباشرة، والمدينة مرتفعة في الزاوية الشمالية التي يغادرها مكنها النهر بالنسبة للأرض المنبسطة، ولكنها أقل علوا في الجنوب الشرقي و أكثر انخفاضا في الجانب الغربي والمدينة محصنة في هذا الجانب بواسطة أربعة حصون وأعلى نقطة فيها هي القصبة.

---

(128) - نفس المصدر ص 34.
(129) - نفس المصدر ص 34.
(130) - نفس المصدر ص 34.
(131) - انظر فندلين شلوصر قسنطينة أيام أحمد باي ص 73.

إذا دخل المرء المدينة من باب القنطرة فسيحل إلى الرحبة التي توجد عن يمينها وفوقها قليلا صخرة أقيم فوقها عام 1836م حصن يحتوي على مدفعين ومن هذه الرحبة يصعد الشارع نحو الشمال في اتجاه باب القصبة و في وسط هذا الشارع يقع سوق السلاح[132] ويدعى سوق العصر و حتى هنا يمكن أن تمر به العربات، ولكنه يتجه بعد ذلك نحو الشمال ويصبح عبارة عن زقاق ضيق، وهناك وعن يساره ثلاثة شوارع تمتد أفقيا، أحدها يفضي إلى باب الماء فيؤدي أولا إلى سوق العسل، ثم إلى وسط الشارع والمدينة ويمر قرب دار الباي القديمة وكانت في القصبة مجموعة من الأسواق مقسمة حسب الحرف العربية الشهيرة مثل سوق السلاح، وسوق الجلد وسوق القمح، وكان هناك شارع يقع بين باب الجابية وسوق القمح تنتشر فيه الحمامات العامة والمقاهي، وهذه الشوارع الأفقية ترتبط فيما بينها بعدد كبير من الأزقة المتقاطعة من أهمها زقاق عريض ملتو يمتد من الشارع المذكور أخيرا نحو سوق القمح، ويمتد من دار الباي القديمة زقاقان هامان في زاوية حادة ويمضيان معا إلى باب الماء، الزاوية الواقعة بينهما، وهي مليئة بالأزقة الصغيرة، تدعى كلها سوق السراجين، إذ تطرز فيها السروج وتعد المصنوعات الجلدية الملونة، و إلى جانب سوق القمح مباشرة توجد دكاكين الحدادين، وبعدها بقليل حوانيت الأقمشة[133] التي يملكها اليهود، يوجد هناك حيث يجتمع الزقاقان سوق صغير للخبز، وخلفه في اتجاه باب الماء، توجد دكاكين العطارين الجزائريين[134].

وهناك زقاق آخر أفقي نحو باب من دار الباي القديمة، وتتجه غربا نحو باب السوق، أما دار الباي القديمة، فهي مرتبطة بدار الباي الجديدة بواسطة زقاق الحظيرة، الذي يقع شمال الزقاق السابق وإذا نحن أخذنا، الذي يؤدي من باب القنطرة إلى قصبة، فإننا نجد إلى الجانب الأيمن، فيما بينه وبين الصخور المنحدرة، شارع اليهود. الذي يربطه بسوق السلاح زقاق وفيه يسكن صانعي الذهب و الفضة من اليهود وهذا السوق ، وكذالك الشارع الممتد حتى باب القنطرة يحتوى على بيوت أثرياء اليهود، وهناك أخيرا أشارع يمتد من القصبة إلى باب الرحبة و لا يسكنه إلا الخاصة من مجتمع قسنطينة[135] وباب القصبة القديم، وتسنده أربعة أعمدة يحتوي على قصر الباي على أربع أجنحة في مربع مائل مع ثلالثة حدائق مربعة مفصولة عن بعضها وتربط بينها طرق و قد أقيمت حولها أبار محاطة بجدران تربها و يحمل إليها الماء،

(132) - نفس المرجع ص 74 .
(133) - نفس المرجع ص 74 .
(134) - نفس المرجع ص 74 .
(135) - نفس المصدر ص 80.

والذي يجلب بالبغال من خارج القصر، بواسطة مجار مائية والقصر المحاط بسور من الطين الخام و لذلك فالسور تافه جدا، وهناك جناح يمتد إلى حد ما إلى سوق العسل، مزود بنوافذ زجاجية، وفيه تقع أحب غرفة إلى الباي يجلس فيها ساعات طويلة، يتأمل جياده المقابلة له أو المارة من الآهالي.

وفي عهد أحمد باي كان الخمر محرما على المسلمين وكان شرب العرق وبيعه ممنوعا منعا باتا و إذا ضبط مسلم و هو يتناوله فيتلقى خمسمائة ضربا على رجليه(136)، وقد أعدم يهودي في قسنطينة أيام هذا الباي الشهير.

ويرى فندلين شلو صر وهو أسير ألماني كان رهن الأسر في قسنطينة أيام أحمد باي أن اليهود كانوا محتقرين في قسنطينة و هي ظاهرة مؤسفة، فكان اليهودي يعامل معاملة العبد، فإذا احتاج الباي إلى المال فإنه يطلبه من اليهود، وحين يكون لشخص ما عمل لا يليق به فإنه يأخذ اليهودي ليقوم بذلك العمل، وإذا وصلت مثلا الرؤوس المقطوعة إلى المدينة و أصابها الفساد لبعد مسافة النقل و شدة حرارة الشمس فإن اليهود يأخذون من بيوتهم ودكاكينهم ، ويعطي لكل واحد منهم رأسان يطوف بهما في المدينة ، ثم يحملها غلى الرحبة، أن امتنعوا عن ذلك فإنهم يتعرضون لإهنات مختلفة (137).

ولا أعتقد أن الباي كان يطلب المال من اليهود لأن كان له مدخول من الولاية يغنيه عن مساعدة يهود المدينة وفي هذه الحالة فإن رواية فندلين شلو صر مشكوك في صحنها.

وفي احتفال البيعة لأحمد باي، وكان على الموظفين وأعيان الأهالي أن يركبوا جيادهم ثم ينزلون على بعد مائة خطوة من الباي و ينحنوا أمامه و أيديهم معقودة فوق صدورهم، ثم يقبلوا عمامة الباي إقرارا بالاعتراف به والطاعة له وبينما كان الشعب العادي يقبل ظهر يده وبطنها كان على اليهودي أن يكتفي بتقبيل يسراه(138).

وفي العصر العثماني كانت قسنطينة عاصمة ولاية الشرف الجزائري حي كانت مقر الباي ومن أشهر أحمد باي الذي قاد المقاومة المسلحة ضد الفرنسيون بعد الاحتلال الفرنسي في 1830 وأبدى بطولة و شجاعة وبسالة في القتال تستحق وقفة تاريخية طويلة يضيق المقام عنها الآن.

وكانت قسنطينة مركز حركة تجارية كبيرة في العصر الإسلامي الوسيط حيث كانت لها علاقات تجارية مع تجار جنوب الصحراء وتجار إيطاليا من مدينة البندقية

(136) - نفس المصدر ص 80.

(137) - نفس المصدر ص 83.

(138) - نفس المصدر ص 82-83.

حيث فتحوا دكاكين في هذه المدينة وكان التجار الجزائريون في قسنطينة يشترون من الأوروبيين بضائعهم مثل الأرز والأقمشة الراقية الحمراء المصنوعة من القطن، وأدوات الزينة. وكان الإيطاليون يشترون بالمقابل المواد الخام وفي مقدمتها الصوف، وكان الأوروبيون في ذلك العهد السعيد يتمتعون بحرية تامة لا في المدينة فحسب، بل كان لهم أيضا حرية الاتصال بالقبائل المجاورة وكانت علاقات بالجزائريين دون أن تهتم الحكومة بصلاتهم هذه، وهناك من يرى والله أعلم عندما بدأ الحكم العثماني في الجزائر، طرد التجار و توقفت الحركة التجارية في قسنطينة كلها، وبهذه الطريقة أصبحت هذه المدينة[139] على غرار ما حدث في غيرها من المدن الجزائرية، محرمة على الأوروبيين، وهو ما لم يحدث حتى في الصين... ولا اعتقد أن ذلك كان سائدا فهدف نظرة تطرفية للأمور ويري هاينريش مالتسان أن وضع قسنطينة في انغلاقها على الخارج كان يشبه وضع المغرب الأقصى، حيث انغلقت قسنطينة أمام السواح طيلة ثلاثون قرون من الحكم التركي، والسائح الأوروبي و الوحيد الذي استطاع أن يزورها هو الدكتور شو.

رمضان قسنطينة

حضر هاينريش فون مالتسان أيام رمضان في قسنطينة و كان ذلك في1862م. وقد تعود أن يجتمع كل مساء بعد المغرب عند سيدي علي في بيته وهو ينحدر من أسرة عربية عريقة ولذلك كان حريصا على صيانة التقاليد المهذبة والتصرفات اللائقة فقبل طلقة المدفع كان يجتمع عادة الصديقان وهما السيد عويمر و سيدي محمد في بيت سيدي على الذي كان ثريا وكريما وإذ أصبح بيته منذ أن طلق زوجته مفتوحا لكل شخص وسارت مائدته في متناول الجميع، وحين يدوي صوت مدفع، فإنهم لا يندفعون في الحال ونحو قصعة مملوءة بالكسكس، التي وضعت أمامهم ، ذلك أن الطعام يعد في الوقت المحدد له، فلا يكون جاهزا على عند المغرب والضيوف سيد علي لا ينقضون على الطعام في نهم وجش، فكلما كان عربيا اقدر على التصنع كان أكثر أدبا وخلقا، وذلك يتظاهرون بان حلول الموعد الإفطار لا يهمهم إطلاقا ! .

ولقد كان الطعام أمامهم، وكانوا جياعا إلى درجة رهيبة وكان غليون التبغ معدا، وكانت لهم رغبة في الدخان الذي امتنعوا عنه طويلا وكانت علبة السعوط بأيديهم[140] وأخيرا صدرت عن صاحب البيت إشارة الهجوم على "حبل" الكسكس، فأخذ كل منهم

---

(139) - انظر هانريش فون مالتسان ، ثلاث سنوات في شمال غرب إفريقيا الجزء الثالث ص 56.
(140) - نفس المصدر /ص 58.

ملعقته الخشبية أيضا و هذا عكس ما يفعله الجائع عادة بل راح يأكل بأدب جم وقناعة ملائمة وأخذ الضيوف كفايتهم من الطعام، فقد اعد سيدي علي أنواعا كثيرة من الأطعمة بحيث أنه كان في أماكن الضيوف، حتى لو اقتصروا على تناول القدر المعتدل من كل طعام، أن يتناولوا ما يطرد جوعهم وأهالي قسنطينة لا يستطعون صنع الحلويات دون عسل و الزيت، وكان أحد .هذه الأطعمة يدعى المشلوش، وهو عبارة عن قطع صغيرة من الطحين تشبه الشعيرية، تصنع من العسل وفي الزيت ثم فوقها السكر، وتوضع فوقها بعد ذلك من البيض المسلوق، وهناك نوع أخرمن الحلوى يدعى الزلابية، وهذا النوع زيتي دسم طري يشبه الشطائر السويسرية[141] .

والبوراك طعام الثالث يمتاز بصلابته، وكان مجوفا، في وسطه لحم محلي ومشرب بالعسل وكان هناك نوع من المأكولات يدعى القطائف وهو يشبه الشغيرية ايضا، ولكنه دقيق جدا وعلى شكل دود من العجين المقطع، وكانت القطائف محلاة بالعسل والسكر والبقلاوة حلوى أخرى محبوبة، وهي في الواقع تركيبة الأصل[142].

لها شكل الكعك الألماني، ومحشوة باللوز والزبيب دسمة جدا، مرتوية ومشربة بالعسل أيضا، ومع هذا فقد كان لهذه المأكولات شيء يميت إلى إنسان بصلة، أما أنواع الأخرى فقد كان لها شبه قوي بعضها ببعض .

وكانت بالبلورة مستحضرة بالسكر والنشاء، وكان من بين الضيوف سيدي علي رجل قصير القامة متغضن الوجه، أبيض اللحية يدعى ابن عيسى وكان جميع الحاضرين يحيونه بنوع من التقدير والجلال وكان لهما علاقة بلقب غريب خلع على الرجل العجوز،إذ منح لقب ضخما وهو أبو مدفع، وهي في الواقع تسمية أصلية بنسبة لهذا العجوز المدعي الذي كان يرتدي في القمة : رأسه غلى أخمس قدميه لباس أبيض مصغر مصنوع من الصوف، وهو مظهره أقرب إلى طه منه إلى مدفعي، وكان وجهه هادئ يتناقض تناقضا غريبا مع هذا اللقب الحربي و كان ابن عيسى يشغل وظيفة صغيرة لم يكن لها من فعالية إلى في شهر رمضان وتتمثل في أنه كان قد عهد إليه أن يخبر الجنود الدين كان عليهم أن يطلقوا النار المدفع مساء كل يوم من أيام رمضان إيذانا بإنهاء صوم ويخبرهم بأن موعد الإفطار قد حل[143].

---

(141) - نفس المصدر ص /59.
(142) - نفس المصدر /ص 59-60.
(143) - نفس المصدر ص /59-60.

ولكن رمضان لا يعتبر شهر الصيام، وإنما هو شهر الأفراح للمسلمين، فليالي رمضان عامرة بالبهجة والسرور والمرح. ومع ذلك فإن الحفلات التي يقيمها الجزائريون لا تتسم بالصخب والضوضاء وهاذا ما يشاهده المرء في قسنطينة فلا وجود للراقصين والراقصات هنا ولا تعزف الموسيقي إلا نادرا فالإحتفلات تقتصر على تناول الأطعمة و تبادل الأحاديث الودية أما الحفلات الوحيدة الصاخبة، التي حملها الإنكشاريون الأتراك إلى الجزائر فهي حفلات القرقوز فهاينريش فون مالتسان لم يستطع حمل معارفه على مرافقته إلى مسرح القراقوز لأن له سمعة سيئة مع الأسف فليس هناك عربي واحد مهذب يعترف بأن قد سبق له أن شاهده بل الذهاب إليه بصورة علانية .(144)

وهكذا كان على مالتسان أن يحضر بمفرده حفلة تلك الليلة وكان مقر فرقة القراقوز في الزقاق من أزقة قسنطينة، وهو زقاق ضيق جدا وذو زوايا ولا يصل المرء إلا ما يسمى بالمسرح إلا عبر رصيف خطر.

والمسرح عبارة عن قبو موجود تحت الأرض، إتخذته الطبقات الدنيا مقهى لها. وكان قد جلس في هذه المغارة مئات من أهالي البلاد ولم يكن بين أولئك الريفيين والأجراء سوى عدد قليل من الحضر هم من الشباب الطائش ورغم ذلك فإن تصرفاتهم كانت أحسن بكثير من تصرفات رعاع أوروبا ، وقبل أن يبدأ العرض تطفأ المصابيح الزيتية الصغيرة التي تضيء المغارة إضاءة قليلة، إذ لم يكن من الضلام الشامل بد فقرقوز "هو خيال الضل و كان هناك في جانب من جوانب الغرفة منصة من نوع الشاشة الإسبانية، شدت فوقها ستارة مصنوعة من القطن.. ودخل القرقوز في البداية، بمفرده البلوشينيل التركي هذا الشخصية المنفردة جدا ن فالقرقوز مسخ، مع ذلك فقد كان في وسعه أن يثير الضحك بين الجمهور من المشاهدين(145).

وأما ما يتميز به هذا المهرج الجزائري فهو الحب المضحك المبالغ فيه وجميع الشخصيات المسرحية، صغيرة كانت أم كبيرة تشكل موضوعا لنزوات القرقوز الظريفة وهو لا ينتقي دائما أحسن الألفاظ لتعبير حبه لذلك، ومن النادر أن يرضى الذوق عن نكته لقد كانت هناك فتاة شابة أحبها قلب قرقوز الناعم، فاعترف لها بحبه وهي واقفة في النافذة غير أن حارس الحريم جاء لإبعادها عنه وبعد ذلك مباشرة حظرت أمها وراحت تعاتب قرقوز على سلوكه المشين تجاه ابنتها ولكن قرقوز كان ينعم بقابلية التحول، و ذلك

---

(144) - نفس المصدر ص /66.

(145) - نفس المصدر ص / 66-67.

نقل حبه على أم في الحين، وطلب منها أن تبدله حب بحب، غير أن الأم تمتنع عليه وتستغيث فتسرع لنجدتها امرأة عجوز وهي آمها وجدة الفتاة الشابة وبعد اختفاء الأم ينفرد قرقوز بالمرأة العجوز فتصب فوق رأسه سيلا من الشتائم إلا أن قرقوز كان يعرف الوسائل اللازمة لجلب قلبها إليه فيحدثها عن الحب أيضا وعندئذ تتلطف في إصغاء إليه و تستمر المشاهد التمثيلية على هذا النمط ويدخل عشرات منهن وما من واحدة تسعى لمساعدة الأخرى إلا وتجد نفسها مهددة من طرف قرقوز، إلا انه يعترف لكل منهن بالحب نفسه ولكنه ينوع في الكلمات التي يستعملها و لم تكن مسرحية تحتوي على مناظر جميلة وفي اليوم التالي أكدت إلى سيدي علي دونما نفاق بأن لن أشاهد قرقوز مرة أخرى(146) هذه رواية مالتسان حول مسرح القراقوز الذي شاهده في قسنطينة وهو بين نفور أجنبي من تراث جزائري لتسلية النفس ويعبر عن وسيلة سلوى لدى الجزائري فوجدها الأوربي غريبة عنه وهذه وجهة نظرة لانشركه فيها بالضرورة

***

مدينة تيبازة

تقع مدينة تيبازة غرب مدينة الجزائر وهي تبعد عنها بخمسة وسبعين كيلومتر وتيبازة قريبة من يول أي شرشال بمسافة قصير، ولا ندري كيف كانت طريقة التعامل التجاري بين المدنيين من أهالي تيبازة والقرطاجيين، هل كان هناك نوع من المقايضة التي ذكرها هيرودوت في كتابه التاريخ بين القرطاجيين بين أهالي تيبازة، أم كان هناك طريقة أخرى في التعامل التجاري بينهم .

وليست لنا اي فكرة تذكر حول التنظيم السياسي والإداري لهذه المحطة التي قام القرطاجيون بإنشائها في تيبازة هل كانت تحت الحكم المباشر للقرطاجة أم كانت مجرد محطة عبور .

POINT D'ESCALE بينما بقي ساحلها تحت سلطة الملوك المور أو الملوك النومديين الذين كانت لهم سلطة ملكية بعد الحرب يوغرطة إبتداءا من القرن الثاني قبل الميلاد .مع العلم أن أصل تسمية تيبازة يعود ذلك إلى كلمة فينيقية تدل على مكان للمرور او العبور LIEU DE PASSAGE وهذا يبرهن على أقدمية تيبازة ودورها المبكر كمستوطنة فينيقية ثم قرطاجية(147)

---

(146) - نفس المصدر ص /67-68.

(147) - انظر الكتاب منير بوشناقي ، تيبازة ، بالفرنسية ص /17-18.

ومن العناصر التي تبرهن أهمية تيبازة وجود آثار بونية متفرقة على طول ساحل تيبازة، وهناك عدة مؤرخين يرون أن تيبازة تعد امتدادا لمحاطة قرطاجية أخرى على طول الساحل النوميدي (الجزائر القديم) حيث نجد أن المحطة الواحدة تبعد عن الأخرى بمسافة خمسين كيلومتر وتدخل في هذا النطاق ضمن المحطات الممتدة على الساحل شمال إفريقي وقد ذكر هذه المحطات العديدة من المؤرخين القادمون منهم صاحب الرحلة سيلاكس و التي تم تحريرها في أواسط الفرن الرابع قبل الميلاد أو في خطوط العبور لأنطوان و تيبازة تقع في ارضي ملوك المرور[148]. وهي لا تبعد كثيرا عن يول (شرشال) التي كانت عاصمة ملكية ليوبا الأول ويوبا الثاني مثلما حضت به قولوبوليس VOLUBILIS أي وليلى في المغرب الأقصى التي كانت عاصمة ملكية لموريتانيا وما يجب ذكره أن قولوبوليس قد شهدت نوعا من التأثر القرطاجي البوني عليها.

وهناك آثار قرطاجية عثر عليها في تيبازة بالميناء الصغير للصيد فهناك حجر ضخمة ذات شكل مكعب وهي عبارة عن مخزن بوني UN CAVEAU PUNIQUE يعود إلى القرن الثاني و الثالث قبل الميلاد، وفي شرق ميناء تيبازة عثر على مقبرة بونية و تم تعرف عليها و جرى الحفر فيها إبان نهاية القرن الماضي أما المقبرة البونية الثانية فقد اكتشفت في غرب تيبازة و تمت عملية الحفر فيها عام 1964 أما الأدوات التي عثر عليها في المقبرتين أدت إلى تحديد تاريخ هاتين الجبانتين إلى القرن الخامس و القرن الأول قبل الميلاد وهناك صناديق ونصب وتماثيل عليها إثارة تانيت تبن لنا بوضوح تأثير قرطاجة ونفوذها على مدينة تيبازة وهذه أدوات نراها اليوم بشكل جالي في معروضات المبحث تيبازة، وتبرهن أن تيبازة كانت بمثابة مدينة ذات أهمية عمى أكثر منها مجرد محطة عبور عادية، فقد كانت مدينة تيبازة في أول وهلة وفي بداية عهدها تحت حكم ونفوذ سيادة السياسة القرطجانية ثم انضمت تيبازة غلى الملوك النوميدية تحت قيادة صفاك وماسينسيا أي أصبحت تحت رعاية المملكة النوميدية وأضحت تيبازة في ما بعد مع يول وبعض مدن اخرى نواة للمالك الموريتنية.

أثناء الحرب يوغرطة كانت تيبازة تحت حكم هذا الباطل الجزائري ولا كن لم تستمر على هذا الحال بل انتقلت السلطة إلى ملك موريتنية بوخوس أول الذي حكم تيبازة حتى عام 80 و70 قبل الميلاد ثم حكمها بعده بوخوس الثاني وبوقود اللذان عاش في فترة حكم القيصر وأوكتاف وأنتوان وتجد أن الريح الملكي الموريتاني يعود إلى الأثر الوحيد الذي بقي موجودا متجديا عوائد الزمن والذي لا يبعد كثيرا عن مدينة تيبازة في مرتفع الجبل.

---

(148) - نفس المرجع ص /18

وبعد وفاة بوخوس الثاني في34 قبل الميلاد نجد، أن اوكتاف يشرف على الأراضي موريتانية بدون أن يدمجها تحت حكم روما تحت حكم روما وفي25 ق.م قام غست بتسليم مقاليد الحكم الملكي إلى ابن ملك يوبا الأول، خصم القيصر في تابسوس مع العلم أن يوبا ثاني تربى في روما على يد المقربون من أغست في البلاط إمبراطوري وتعرف هناك على كليوباترا سيليني بنت كليوباترا ملكة مصر الشهيرة وهي زوجة أنطوان المعروف.

وكان يوبا الثاني يجيد اللغة الإغريقية واللاتينية والبونية، ونال شهرة كبير كملك العالم محب للعالم والعلماء وله ذوق مميز في الفنون الجميلة والعلوم، ولم تزل اثار كنوزه ماثلة إلى اليوم في متحف مدينة شرشال بالقرب من تيبازة .

وجاء بعد يوبا الثاني بطليموس الذي استمر متبعا سياسة أبيه حيث أظهر تأييده للرومان ضد ثورة تاكفرناس ولكن هذا الملك صاحب سوء الطبع أغتيل بالقرب من مدينة ليون الفرنسية بامر من إمبراطور كاليغولا.

وأن الحفريات التي أجريت حتى الآن في تيبازة لم تحدد مع الأسف مراحل التي مرت بها المماليك الوطنية المورية ولكن تم العثور على بقايا أبنية وأضرحة تعود للقرن الأول قبل الميلاد l'époque Julio claudienne ولكن نجد أن المرور من حكم إلى آخر ليست لدينا معلومات عنه.

وفي 42 قبل الميلاد جرى دمج المملكة الموريطانية و تم تقسيمها إلى إقليمين وكان ذلك في عهد الإمبراطور كلود : الإقليم الأول يتمثل في موريتانيا القيصرية وكانت عالمتها القيصرية أي شرشال وكانت تمتد من وادي الكبير شرقا إلى الملوية غربا والإقليم الثاني وهي موريتانيا الطنجة وتمتد حدودها من غرب الملوية وكانت لها مدينتان هما طنجة وقولوبوليس .

أما المدن الساحلية مثل تيبازة فكانت تحت حكم روما ويذكر لنا بلين أن الإمبراطور كلود جعل تيبازة كمستعمرة يتم حكمها بالقانون الروماني ومعنى هذا أنه جعلها في مصاف المدن والبلديات الرومانية بحيث أن الحكام البلديين ومن معهم يتمتعون بنفس الحقوق التي نجدها لدى المواطنين الرومان في مدينة روما نفسها .

ومدينة تيبازة في القرن الثاني الميلادي كانت موجودة من الناحية العمرانية ومركز المدينة كا ن في الواقع الذي يوجد فيه اليوم القوروم وهو موقع المدينة الأولى وحسب وثيقة تعود إلى أعوام 150-145 ميلادية نلاحظ وجود تيبازة ضمن مصاف المستعمرات الرومانية في أفريقيا الشمالية بحيث أصبح لأهاليها نفس الحقوق للمواطنين الرومان وفي

هذه الفترة تم تشييد حزام من الأسوار طوله 2200 مترا مازالت بقياه ماثلة إلى اليوم و لكن هذا الحزام تهدم بعد ثلاثة أو أربعة قرون بعد ذلك .[149]

وقد شيدت مدينة تيبازة داخل هذا الحزام الجداري في منتصف القرن الثاني وبداية القرن الثالث الميلادي بنيت في تلك الفترة أحياء جديدة في المدينة .

وكان يسير مدينة تيبازة مجلس بلدي وأعضاء بلديون جاء ذكرهم في عدة نقشات في مدينة تيبازة القديمة و قد تم توسيع الساحة العمومية و تحوير المباني الملتحقة بالفوروم في القرن الثاني الميلادي، أما مركز الحياة الإدارية فكان موجودا في موقع المدينة البدائية الأولى أما المباني الأخرى الدينية والترفيهية مثل المعبد والمسرح والمدرج فقد جرى تشييدهم في أسفل المدينة أثناء غزو الوندالي لإفريقيا الشمالية تم احتلال تيبازة على يد الوندال في 430 ميلادية وهدمت الأسوار مما جعل تيبازة مدينة مفتوحة.

وعاني أهالي تيبازة الأمرين لأن الوندال الذين حكموا موريطانيا القيصرية وموريتانيا الطنجة كانوا يعتقدون أن المسيح نبيا وليس إلها كما يعتقد الكاثوليكيون الذين كانوا لهم أتباع عن تيبازة فحارب الوندال المسيحيون هؤلاء بأساليب قمعية وعنيفة في بعض الأحيان.

وانحاز الو ندال غلى ديانة مسيحية آرية أي تنتمي إلى العنصر الآري فنتج هذا الصراع في تيبازة إلى هجرة أهاليها نحو إسبانيا وبعد وفاة هنريك ملك الو ندال ضعف حكم الونداليين في تيبازة وموريطانيا على العموم وعادا الأهالي الذين هاجروا إلى مدينتهم وحكم المدينة حكام محليون وأثناء الحكم البزنطي ليست لنا أي معلومات حول تاريخ تيبازة مع العلم أن المدينة القيصرية يول احتلها البزنطيون في 534 ميلادية وبسبب نقص المعلومات التاريخية لا نستطيع أن نتعرف هل استمرت الحياة الاجتماعية و الاقتصادية في تيبازة خلال القرن السابع والقرن الثمن الميلادي ولكن على كل حال فقد عانت مدينة تيبازة من الهدم المنظم على يد الو ندال والبزنطيون أو بسبب الكوارث الطبيعية مثل الزلازل.

(149) - نفس المرجع ص /20-21.

مدينة يول (شرشال اليوم)

إن يول مدينة قديمة بناها الفينيقيون وهم الذين أطلقوا هذا الاسم عليها واستمرت في ازدهارها كمستوطنة قرطاجية وبعد زوال الإمبراطورية القرطاجية ... البحرية أصبحت يول جزءا من المملكة النوميدية و كانت عاصمة الملك بوخوس و لكن أضحت للمدينة أهمية كبرى في عهد يوبا الثاني الذي جعل منها عاصمة ملكية لها طابع عالمي.

فارتدها الفنانون المثقفون والعلماء من جميع أنحاء المعمورة للمشاركة في النهضة العلمية التي كانت سائدة في عهد هذا الملك العالم.

مع العلم أن يوبا الثاني حمل في طفولته أسيرا إلى روما فنشأ في بلاط أغسطس، ونال حظا كبيرا من الثقافة، ولم يلبث أن امتاز بعلمه وشغفه بالمعرفة... فزوجه أغسطس برفيقة له عاشت نفس المصير، وهي الأميرة الأسيرة كليوباترا سيليني وابنه ماركوس انطونيوس وملكة مصر كليوباترا الشهيرة، وكانت كليوباترا سيليني فائقة الجمال وهذا ما نلاحظه تمثالها الموجود في متحف حديقة الحرية بمدينة الجزائر.

وحكم يوبا الثاني مدة ثماني وأربعين عاما و ضربت النقود اسمه وهي تعود إلى فترات مختلفة من حكمه.

وكان يحيط المدينة في عهد يوبا الثاني يزيد عن ميل وقطرها ستة الاف قدم وماتزال آثار قديمة لمدينة يول عاصمة يوبا الثاني في شرشال الحديثة. منها بقايا المدرج الفخم أمام المدينة الشرقي، وأثار بلاط الحاكم وأثار المسرح وسط مدينة شرشال الحالية والينابيع في غربها وحمام ديانا في شمالها قرب المنارة، وآثار معبد نبتون.

كل هذه المعالم الأثرية تبين لنا بوضوح عظمة يول عاصمة الموريتانية، وبعد موت يوبا الثاني تولى حكم في مدينة يول ابنه بطليموس، الذي استمد اسمه من سلالة البطالمة في الإسكندرية بمصر القديمة التي تنحدر منها أمه كليوباترا سيليني، ولم يحتفظ هذا الملك بحكم العرش الملكي فيقال أنه كان يحكم حكما صوريا لمدة طويلة، فقد دعاه القيصر كالغير لا القديمة التي تنحدر منها أمه كليوباترا سيليني، ولم يحتفظ هذا الملك بحكم العرش الملكي فيقال أنه كان يحكم حكما صوريا لمدة طويلة ، فقد دعاه القيصر كالغيرلا إلى روما و عامله في بداية بلطف كبير، باعتبار ما بينهما ومخلة فقد كانا من جهة أمهما حفيدي ماركوس انطنيوس، ثم غار من الشاب النوميدي حين ظهر بالمسرح في هيأة عظيمة، فأعجب الشعب بثوبه الأرجواني وهلل له فأمر بقتله فزالت معه أسرتان كان لهما

في الماضي شأن كبير، بطالمة مصر وملوك نوميديا يوبا، يوغرطة وماسينيسا.

وهكذا انتهى آخر ملك نوميدي من سلالة نوميدية إفريقية فأصبحت موريتانيا منذ ذلك الحين مقاطعة رومانية بصورة نهائية.

وفي منتصف القرن التاسع عشر إبان الاحتلال الفرنسي كانت موجودة بقايا كنيسة كاثوليكية، تقع في الساحة، ففي هذه الكنيسة جرت مناقشة شهيرة بين القدسين أغسطين والأسقف الدوناتي اميريتوس، التي نجدها في مؤلفات القديس او غسطين. وكان الدوناتيون في عهد او غسطين يمثلون المستضعفين من أبناء إفريقيا الشمالية حيث أعلنوا التمرد ضد مبادئ الكنيسة الكاثوليكية المهيمنة على عقول الناس في ذلك العهد القديم.

وكان الأسقف فورتوناتوس قد حضر اجتماع زعماء الكنيسة، الذي عقد عام 314 ميلادية بمدينة آرل الفرنسية بصفته الممثل الوحيد لموريتانيا القيصرية، مما يدل على أن يول أي شرشال كانت لا تزال في ذلك الحين تعتبر عاصمة.(150)

وفي مدينة شرشال اليوم متحف مليء بتماثيل الآلهة والأبطال والملوك القدماء يعود بعضها إلى الفترة التي ازدهر فيها الفن، وبعضها الآخر إلى الفترة التي بدأ فيها التدهور وأصاب بعض هذا التماثيل بتر لحق بها كله على وتيرة واحدة، فقد كانت كلها بلا أنوف ولا شك أن الوندال أرادوا أن يسخروا من الفن الروماني بهذه الطريقة الهمجية.

ومتحف حديقة الحرية بمدينة الجزائر بالقرب من متحف باردو غني بالآثار القديمة، التي اكتشفت في شرشال وخطفها بيربروجير مما أثار حنق وغضب أمين متحف شرشال وكان ذلك في منتصف القرن الماضي أي التاسع عشر، فتمثال بنتون الجميل حلية المتحف الرئيسية، وتمثال فينوس الناقص، وتمثال فتاة رومانية ومجموعة الخناث وشياطين الغاب وتمثال فينوس البرونزي الصغير، وعدد كبير من ألواح النقوش الهامة، كل ذلك قد عثر عليه في ينابيع يول المدينة القيصرية وحماماتها التي تقع غرب المدينة.

وكانت لمدينة يول في القديم ساحة عمومية مثل باقي مدن إفريقيا الشمالية القديمة مثل صبراتة ولبدة وقرطاجنة وعويتقة وعنابة وطنجة. وكان لهذه المدن طريقان يلتقيان في الساحة العمومية.

وكانت الساحة العمومية في يول أي شرشال عبارة عن بطحاء مستطيلة الشكل تحيط بها أزقة صغيرة تؤدي إلى المعابد والمحلات الإدارية كقاعة اجتماع المجلس

(150) - نفس المرجع. ص/235.

البلدي[151] وقاعات الاقتراع ومنابر الخطباء والمباني بأصحاب الشكايات ورجال الأعمال فكانت الساحة العمومية رمز الحياة العامة ومحورها، فيها يدلي الحكام بتصريحاتهم ويشرفون على مواسم الغداء ويجرون المناقصات ويفصلون في قضايا بين الناس وفي رحابها كان يصوت المواطنون ويدفعون الأداء ويتاجرون ويقضون أوقات فراغهم بين الأعمدة.[152]

***

مدينة عنابة

على ضفاف نهر السيبوس على بعد نحو أربعة كيلومترا من عنابة الحديثة تقع آثار هيبو الملكية HIPPO REGINS أو هيبونا HIPPONA، واسم بونة الذي كانت معروفة به في العهد الإسلامي علاوة على اسم عنابة، هذا الإسم أي بونة محرف عن هيبونا، ولكن مدينة القديس أوغسطين القديمة لم تكن واقعة في مكان[153] مدينة عنابة الحديثة ويعتقد شو الانجليزي SHAW أن بونة هي افروديسيوم كولونيا التي ذكرها بطليموس.

وسترابون يتحدث عن مدينتين ملكيتين HIPPONE REGLI تقعان على الساحل وهذا مجرد احتمال لا غير وعلى أساس أن هيبو أخرى موجودة في السهل وهي غير ملكية، وهذا لا يمنعنا من الافتراض بأنه كانت هناك ثلاث مدن تسمى باسم هيبو، اثنتان من نوميديا وواحدة في زوينغينا ZENT GITTINA[154] وعلى كل حال فإن المدينة القديمة الأثرية بونة موجودة آثارها بين وادي بوجمعة الصغير ووادي السيبوس الكبير.

وكان الفينيقيون قد أطلقوا عليها اسم اوبو فأنشأ القرطاجنيون مستوطنة هنا بالذات ويشتق غيسينيوس اسمها من كلمة، ايبو التي تعني الجمال أو الفخامة، إذن معنى هيبو هو المدينة الفاخرة، وكانت بونة مقر الملك الماسولي عند فتحها خلال الحرب البونية الأولى، فأصبحت تدعى هيبو ريغيوس أي المدينة الملكية، وبقيت عاصمة من العواصم النوميدية إلى أن ضمت إلى الإمبراطورية الرومانية، ويقول عنها الشاعر الروماني سيليوس أتالكوس: كان الملوك القدماء يحبون فاغا وهيبو.[155]

---

(151) - نفس المرجع . ص/235.

(152) - نفس المرجع . ص/237.

(153) - أنظر هاينريش فون مالتسان ثلاث سنوات في شمال غرب إفريقيا ج/الثاني/ص234 ترجمة د دودو.

(154) - نفس المرجع . ص/234.

(155) - نفس المرجع . ص/234.

لقد كانت للمدينة مكانة سامية لدى الملوك القدامى، ففي البداية جعلت مقرا لملوك الماسيلس فقط، ثم أصبحت عاصمة ولاية بالتناوب مع قرطة، وذلك عندما انتصر مسينيسا بمساعدة روما على صيفاك ملك المازيسيليس ووحد المملكتين في دولة واحدة، ورقيت بونة إلى مستعمرة في ايام اغوسطوس، ولكنها لم تزدهر إلا فينا بين القرنين الثاني والرابع.(156)

وكانت التجارة مزدهرة في مدينة بونة (أي عنابة القديمة وكان هناك عدد ضخم من اليهود في العصر المسيحي الذين امتهنوا تجارة العبيد، وكانت روما تستورد من هيبو أي عنابة العاج الذي كان الإقبال شديدا عليه ورمان نيغيريتيا، وفلين غابات نوميديا، وتوابل السودان، وكانت هيبو تمتاز بصناعة الموائد من خشب الحمضيات (157) الذي كانت له شهرة كبيرة في رومة، وقد اشترى شيشرون مائدة بمائة ألف قطعة ذهبية، وانفق القيصر هليوغابال HELIOGABAL إتاوة ولاية كاملة من أجل شراء عشرين منها.(158)

لعبت هيبون، كما هو معروف دورا هاما في تاريخ المسيحية الدخيلة علينا في افريقيا الشمالية ولعلها أهم اسقفية في افريقيا بعد اسقفية قرطاجنة، فقد كانت مقر القديس أوغسطين الذي يعتبره الكاثوليكيين في كتابه مدينة الله CIVITAS من أقوى أعمدة السلطة البابوية ومن مآخذ القديس أوغسطين أنه هاجم في مؤتمر زعماء الكنيسة بقرطاجنة عام 411 م الدوناتيين بدون رحمة مع العلم أن هؤلاء يمثلون اتجاه ثوريا في المفاهيم المسيحية.

وكان الدوناتيون استشاروا القديس أوغسطين، وكانت الغلبة في هيبون لهؤلاء الدوناتيين خصوم أوغسطين، لمدة طويلة بل ظلوا أقوياء حتى عندما أصبح أوغسطين أسقفا، وقد سمحت لهم قوتهم بأن يمنعوا خبازي المدينة من بيع الخبز الضروري لإتباع الكنيسة الكاثوليكية.

وبعد مؤتمر قرطاجة الكبير- الذي لعنهم فيع أوغسطين صارت روما تضطهدهم لهذا السبب اضطهادا كبيرا، واصدر القيصر الحقير الضعيف هنوريوس HONORIUS مرسومين دمويين ضدهم وبالمناسبة لا بد أن نذكر أن كاثوليكيي هيبون أي عنابة كانوا طغاة إلى حد ما ودنيويين، ذلك أن اوغسطين نفسه يحدثنا عن نبيل روماني، يدعى بنيانوس Pinianus جاء إلى افريقيا فأرغمه سكان على تولي منصب القس حتى

(156) - نفس المرجع، ص/235.
(157) - نفس المرجع، ص/235.
(158) - نفس المرجع، ص/237.

يستطيعوا الاحتفاظ به وبأمواله في بلديتهم وتوفي اوغسطين عام 429م اثناء محاصرة الوندال لمدينة عنابة، وكان القديس اوغسطين ألزم نفسه بالصوم أحد عشر يوما قبل موته، وحافظ على ذلك حتى ساعته الاخيرة.

وهدم الوندال هيبون تهديما كاملا، باستثناء الكنيسة الاسقفية ومنزل القديس اوغسطين كعلامة تسامح من هؤلاء الاريين.

ولم يبق من اثار هيبون القديمة سوى قناة تنقل مياه عيون جبل ايدوغ إلى المدينة الرومانية، وأنقاض ابار كبيرة، وحجارة رصيف كبير على شاطئ البحر، وبقايا كنيسة القديس اوغسطين، وهذا ما بقي من عظمة المدينة الملكية القديمة.

وكان لمدينة عنابة تاريخ مشهور في العصر الاسلامي نزل بها العديد من الرحالين المغاربة في طريقهم إلى المشرق العربي والحجاز، امها خالد بن عيسى البلوي صاحب تاح المفرق في تحلية علماء المشرق، وهو عالم أندلسي ورحالة عاش في القرن الثامن الهجري[159]، وصف عنابة قائلا:.... إلى أن وافينا بلد العناب (وتسمى أيضا بونة) وصلناها أيضا بيمن الله على أفضل الأحوال، ودائرة البيضاء يمنى مركز الزوال، فدخلناها في يوم الجمعة الثالث والعشرين لرجب المذكور، فرأيت مدينة مكينة وقلعة حصينة شهيرة الامتناع، بائنة الارتفاع، ومعدومة الشبيه والنظير في القلاع تنزهت حصانة أن ترام أو تستطاع قاعدة كبيرة ومائدة من الأرض مستديرة سامية الارجاء واسعة الفناء، موضوعة على نسبة حسنة في الاعتدال[160] والاستواء، والمدينة العجيبة كالعروس في ناديها قد رفلت في درع واديها وامتنعت بحماسة المسلول من غير الأيام وعواديها، فأخذت به من المطالب معتصما وتجلت في أسواره، معصما فبكل مسقط نظرة ما اشتهت الأنفس من نعيم ونضرة، نهرتان، يحفه بستان ومرأى لخواطر الأدباء فتان:

نهريسيل كما يذوب نفار ... وتدور في أيدي السقاة عقار
ماذا استقام فصارم دامي الطبا ... واذا انحنى جزع به فسوار
مغروق التيار ملتطم كما ... خفقت بظهر مهب ريح نار
فأحمر وأخضر النبات يكشطه ... فكان ذا خد وذاك عذار

(159) - انظر خالد بن عيسى، تابع المفرق في تحلية علماء المشرق الجزء الأول ص/ 163/ مقدمة وتحقيق الحسن بن السايح.
(160) - نفس المصدر ص163

لها أرض تقتنص النظر بتدبيج أزهارها، وأطراد أنهارها، وتؤمن الراكض بها من هفوة غبارها وكبوة عثارها، كأنما نسج أديمها منسج، واستوت أطرافها أطرافها وأوساطها فجوها بسجسج ومتى تكلمت الفصول أعاد الله شبابها، فأنشأها خلقا جديدا، وجعل عودها مثمرا وظلها ظليلا مديدا، فيا لله اتساع ظواهرها وبواديها، والحسن البادي ببحرها وبواديها، وارتفاع تلك القلعة والحصن، وما أوتي متن النعمة والحسن[161].

وزار مدينة عنابة أبي عبد الله محمد العبدري صاحب الرحلة المغربية عام 688هـ الموافق لـ1289م فقال عنها: ثم وصلنا[162] إلى مدينة، فوجدنا بلدة بطوارق الغير مغبونة، مبسوطة البسيط ولكنها بزحف النوائب مطوية مخبونة، تلاحظ عن كثب فحوصا ممتدة، وتراعي من البحر جزره ومده، تغار لها العيون من جور النوائب، وتأسى لها النفوس من الأسهم الصوائب، وقد أزعج السفر عن حلولها، فلم أقض وطرا من دخولها، ومن أغرب المسموعات أنا صادفنا وقت المرور بها زورقا للنصارى لا تبلغ عمارته عشرين شخصا وقد حصروا البلد حتى قطعوا عنه الدخول والخروج وأسروا من البر[163] أشخاصا فأمسكوهم للفداء بمرسى البلد وتركناهم ناظرين في فدائهم ومن مولانا اللطيف الخبير نسأل اللطف بنا في أحكام المقادير.

***

مدينة المدية في العهد القديم

عندما ننظر إلى مكانة المدية عبر التاريخ القديم يواجهنا بصفة مستمرة سؤال ملح كيف كانت المدينة في القديم وفي أي عصر ظهرت بالذات...؟

ولكن حسب المعطيات التاريخية والنصوص والوثائق التي هي بين أيدينا نجد أن مدينة المدية في العهد القديم لم تكن مدينة كبيرة لها وزنها الاقتصادي والسياسي مثل قيرتا وقرطاجنة وايكوسيوم ويول، ولا أعتقد أن المدينة كانت موجودة قبل القرن الأول الميلادي أي في عهد موريطانية القيصرية التي تميزت ببروز نجم يوبا الثاني الذي حكم في يول (أي شرشال) والذي تزعم عهدا جديدا عهد مملكة موريطانيا القيصرية، وهو يمثل الملك

---

(161) - نفس المصدر ص163

(162) - أبي عبد الله العبدري الرحلة المغربية ص37

(163) - نفس المصدر ص37

المثقف الذي شجع وناصر الفنون والعلوم بكل ما أوتي من قوة وقد ازدهرت في عهد هذا الملك الشاب الفنون الجميلة من نحت ورسم ونقش وطرب وموسيقى وغناء ورقص فكان عصره عصرا ذهبيا، وفي هذا العهد بالذات برزت إلى الوجود مدنا جزائرية رومانية الثقافة لكنها جزائرية الروح ونعني بذلك أن أهالي الجزائر أي النوميديين قد ساهموا مساهمة فعالة في ظهور الحضارة الرومانية في الجزائر فعمال النحت وعمال البناء والرسامون والنحاتون كان كثير منهم جزائريون، وحتى في عالم الفلسفة الدينية نجد فيما بعد ظهور القديس اوغسطين الذي يعد مفكرا جزائريا أثرى ثقافة الكنيسة المسيحية بفكره النير، ونضرب مثلا على ذلك بكتابه "مدينة الله" الذي يعد مصدرا رئيسيا في تاريخ الأديان ولكنه لا يسبق الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل فيما بعد التي تعد مصادر أساسية لا يمكن الاستغناء عنها في البرهنة على وجود الله، ومما يجب ذكره أن القديس اوغسطين ظهر قبل الفتح الاسلامي بقرن من الزمان

ونعود إلى تاريخ المدينة في القديم، فيبدو أن المدينة لم تكن موجودة في العهد الفينيقي المبكر أو البوني أي ما بين القرن العاشر ق.م حتى سقوط قرطاجنة في 146 ق.م وذلك لأننا لم نعثر على أي دليل مادي أثرى يبين أن لمبدية كما كانت تدعى في العهد الروماني لإثبات وجود المدينة فعلا. وفي دراسة التاريخ لابد من الاعتماد على دلالات الاثار والمصادر المكتوبة أو المسكوكات أي النقود لكي نبرهن على الحقائق التاريخية الملموسة فلمبدية LAMBDIA يبدو انها ظهرت ما بين القرن الأول والقرن الثاني الميلادي ولكنها لم تكن مدينة كبيرة ويرجح أو يغلب على الظن أنها كانت مدينة استعمارية تقيم فيها جالية رومانية مع خليط من الاهالي ولكن ليست لنا معلومات كافية لكي نؤكد قيام تعايش ووئام بين الجالية الرومانية وأهالي المدية من البربر أي السكان الأصليين للمنطقة، لأن في العهد القديم لم يكن وجود للأتراك ولا للعرب وإنما كان هناك وجود بربي في لمبدية وما جاورها من مناطق جبلية وهناك دليل قاطع أن المدية في القديم كان يقطنها الأمازيغ، فكثير من أسماء الجبال والسهول هي أسماء بربرية فتلاعيش اسم بربري وتامزغيدة اسم بربري، وتبحيرين اسم بربري، وحربيل اسم بربري، وفي منطقة بجاية يوجد نفس الاسم وهو حربيل فهذا يدل على أن منطقة المدية في القديم كان يقطنها البربر أي قبل الفتح الاسلامي ولكن مع مجيء موسى بن نصير وعقبة بن نافع وجيوش الفاتحين المسلمين تغيرت الاوضاع وأصبحنا نعيش تاريخا جديدا امتاز بظهور حضارة سامية شعارها العروبة والإسلام، وامتاز الفتح العربي الأول بمقاومة البربر للإسلام وذلك بسبب جهلهم لغاية الاسلام وقاوم البربر الاسلام بدوافع اقليمية ضيقة لا داعي للدخول في تفاصيلها في هذا المقام الان.

LAMBADIA التي أطلقت على لا ندري بالضبط أصل التسمية الرومانية لمبدية مدينة المدية في عهد الاحتلال الروماني، ولكن حسب ما وصلنا من معلومات تاريخية فانه عثر على اثار تاريخية تعود إلى الحقبة الرومانية في العهد الفرنسي من عسكريين وبنائين على رفات أي هياكل عظيمة قديمة مع تحف وزهرية عليها صورة امرأة وفخار ونقود من البرونز وفانوسة لونها رمادي، وبعد العثور على هذه الاثار نجد أن مترجم الجيش الفرنسي ويدعى فرعون طالب بوضع جرد وإحصائية شاملة للآثار الرومانية الموجودة على أنقاض مدينة لمبدية التي عثر عثر على جزء كبير منها تحت اساس وانقاض المستشفى الذي شرع الفرنسيون في بنائه بالمدية عندما تم لهم السيطرة على المدينة في 1856 وقد طالب فرعون هذا من المراسلين حسبما جاء في تقريره لـ1856 والمنشور بالمجلة R.A الافريقية بأن يقوم المبعوثون المختصون في عين المكان في المدية بكل جهد من أجل العثور على النقش الحجري الذي أشار اليه الجنرال دوفيقي LE GENERAL DUVIEVIER وفي هذا النقش الحجري تم نقش كتابة جاء فيها ما يلي:

D.M-HEPPEUNIO CASSIANO-MIDIOE-CIOE P...X...-CURRII,I-CIOE P...X.

يتابع فرعون حديثه فيقول بنفس المقالة الصغيرة المنشورة بالمجلة الافريقية[164] عدد سنة 1856 : أنه من باب الاهتمام البالغ أن يتم العثور على اثنين من شواهد القبور deux épitaphes واللتان تم اكتشافهما أثناء القيام بأعمال الحفر من أجل بناء المستشفى وقد تم وضع شواهد القبور هذه في دار الخزينة القديمة.

ويشير فرعون ولا ندري أصله بالضبط هل هو يهودي جزائري أم عربي أم ماذا، على كل حال يشير أن هناك قطعة من حجر منقوش يعود إلى العهد الروماني استعملت في قناة ماء المشتلة.. وكانت لمبدية مدينة رومانية مثل باقي مدن موريطانية القيصرية في القرن الأول الميلادي، وقد عرفت منطقة أو ناحية المدية ظهور مدن رومانية كثيرة في هذه الفترة بالذات، فكانت مدينة اوزيا وهي سور الغزلان اليوم، مركزا عسكريا مهما، وقد تم تشيد مباني المدية على سفح نجد مرتفع يقع بين نهرين وعن طريق هذا النجد يمكن الالتحاق بالغرب أو الجنوب بكل سهولة وكانت اوزيا هذه بلدية في البداية ثم جعل منها سبتيموس سواريوس مستعمرة.

(164) - انظر المجلة الافريقية بالفرنسية لعام 1856 التي اوردت مقالا لفرعون حول تاريخ المدية في القديم

وأقام المستعمرون الرومان مدينة RAPIDUM وهي سورجاب اليوم، على منحدر قائم في سهل بني سليمان الشهير.بينما كانت تناراموز THANARAMUSA وهي تمثل مدينة البرواقية في القديم ولو أنها تبعد عن المدينة الحديثة بكيلومترين تقريبا، وكانت تناراموزا موجودة في الموقع الذي بني فيه موقع سجن البرواقية، كما كانت لمبدية تحتل مكان المدية كما اشرت إلى ذلك آنفا.

ويحدد ستيفان زال المؤرخ الفرنسي الشهير صاحب كتاب افريقيا الشمالية في ثماني مجلدات، في كتابه "الأطلس الأثري للجزائر"، المواقع الاثرية الرومانية لمنطقة المدية أو نواحي المدية على الأصح، فيذكر في كتابه الانف الذكر ATLAS ARCHEOLOGIQUE في الورقة 14، أرقام 8 و9 و10 ...أشارت إلى مواقع أثرية رومانية في جهة تابلاط بالمنطقة الجبلية منها ولكن جرى فيما بعد بحث مركز لاكتشاف المواقع الأثرية الرومانية بشكل محدد ومعمق فقام بيتون PITON وهو مجاز في الحقوق وعضو الجمعية التاريخية لناحية سطيف، بدراسة ميدانية مكنته من التعرف عن كثب على بقايا اثار الاحتلال الروماني في منطقة تابلاط وقد وجدت اثارا عديدة في أماكن مختلفة من المنطقة والتي كانت مرتبطة جنوبا بخط طريق أومال-البرواقية، ومن جهة اخرى نجدها مرتبطة من الناحية الغربية ببن شكاو.

يشير بيتون أن الاثر الرومانية الهامة التي تم دراستها بالقرب من تابلاط بما يقرب من 1 كلم و300 مترا جنوب غرب المدينة.

وتبعد هذه الاثار ب 3كلم و500م عن وادي الحد ووادي يسر. وتحتوي هذه الاثار الرومانية على بناء مستطيل طوله 70مترا و25مترا عرضا، وتبدو الحيطان ظاهرة للعيان وهي مصنوعة من احجار كبيرة الحجم مقياسها 1م/ على60سم وهناك مبنى اخر بجانب ذلك يجعلنا نفترض وجود مراكز مراقبة رومانية وتموين ذات طابع عسكري، ترمى للحفاظ على مراقبة الاتصال وحراسة البلد.

وهناك بقايا اثار رومانية في شمال تلك الاثار الانف ذكرها والتي كانت مركز مراقبة حيث نجد اثارا بدون مخطط في مساحة مستطيلة 20م على30م مع قنوات للماء.

وفي شمال شرق مدينة تابلاط على بعد 1كلم و300م نجد في تلارزاق اثارا رومانية في مساجد تقدر ب: 100م^2 تقريبا وهناك بقايا أحجار استعملت في البناء.

ونعود إلى لمبدية LAMBADIA المدينة الرومانية التي سبقت مدينة المدية العربية الاسلامية فالرحالة الألماني الذي هو من اصل انجليزي ذكر في كتابه "ثلاث سنوات في شمال غرب افريقيا" أن هناك جسر روماني كان موجودا في منتصف القرن 19م قرب

باب مدينة المدية يخلع على المنطقة طابعا ذات اهمية تاريخية ويذكر أنه على الرغم من الاثار التاريخية التي عثر عليها فان الاتفاق لم يتم بعد حول موقع المدينة الرومانية التي أقيمت في المدية قديما أي أننا لا نعرف موقع المدينة بالضبط.

وجاء ذكر مدينة لمبدية في رحلة د. شو الانجليزي واعتمد على ما ذكره عنها بطليموس، ويذكر هاينريش فون مالتسان أن مدينة لمبدية كانت مدينة رومانية حصينة تحيطها أسوار ضخمة (وهناك بقايا أحجار ذلك العهد مازالت ماثلة إلى اليوم) والتي وصفت-أي لمبدية- في مجلس قرطاجنة عام 464 ميلادية بأنها مقام الأسقف.

ورغم التشابه في النطق بين لمبدية والمدية فيرجح أن يكون اسم المدية الحالي مشتق من اسم علم عربي مع العلم أن المدية الاسلامية جاء ذكرها في كتب التاريخ العربية، فقد أوردها ابن خلدون والبكري والحسن الوزان وغيرهم، علاوة على الرحالة الاوربيين الذين زاروا مدينة المدية في العصر الحديث.

مدينة المدية

أخبار المدية عند المؤرخين العرب

جاء ذكر مدينة المدية في كتاب وصف إفريقيا لأبي الحسن الوزان[165] فقال: مدينة المدية بناها الأفارقة في تخوم نوميديا على بعد ثمانين ميلا من البحر المتوسط، وتقع في سهل خصيب جدا تحيط بها جداول ماء كبيرة، وبساتين، سكانها أثرياء لأنهم يتاجرون مع نوميديا، ويلبسون لباسا أنيقا، ويسكنون دورا جميلة.

إلا أن الأعراب يثقلون كواهلهم بالإتاوات ولا يستطيع ملك تلمسان أيدافع عنهم ولا أن يسيطر عليهم لبعدهم عن هذه المدينة بنحو 20ميل، (وقد ارتكب الوزان خطأ في المسافة الفاصلة بين المدية وتلمسان).

ويذكر أبو الحسن الوزان أن المدية كانت تابعة لأمير تنس ثم خضعت لبربروس (عروج) ولأخيه خير الدين وهو يعني بداية العهد العثماني في الجزائر، ويبدو أن الوزان أقام في المدية حيث يورد ذلك في حديثه عن المدية قائلا: وقد أقمت نحو شهرين في مرح ونشاط كبيرين، وأكرمت أكثر من قبل أميرها لأن الغريب اذا مر بالمدية يكاد سكانها يحبسونه بالقوة، طالبين منه بتوسل وابتهال أن يفصل في قضاياهم، ويحرر عقودهم ويفتيهم في نازلهم، وقد حصلت في هذين الشهرين على عشرات المثاقيل، بضائع ونقودا أو ماشية، حتى هممت أن أستقر بهذه المدينة لولا اضطراري إلى مغادرتها بسبب المهمة التي كلفني بها مولاي.

(165) - انظر أبي الحسن الوزان (وصف افريقيا ص41 ج2) ترجمة محمد حجي محمد الأخضر من الفرنسية.

وذكرها في كتاب العبر ابن خلدون فقال: نهض عثمان بن يمغراسن إلى مدينة المدية وبها أولاد عزيز من توجين (وهم بربر زناتة) فنازله وقام بدعوته فيها قبائل يعرفون بلمبدية واليهم تنسب، وذكر المدية البكرى في كتابه "المسالك والممالك" حيث قال عنها: "المدية بلد جليل قديم".

أما سيدي بن يوسف[166] فلشدة إعجابه بمدينة المدية ذكر عنها قولا أصبح مثلا سائرا: المدية المهدية، يدخلها الشر ويخرج منها العشية، لو كانت امرأة ما ناخذ إلا هي..

مدينة المدية عبر التاريخ

في القرن الرابع الهجري الموافق للعاشر الميلادي إمتد نفوذ الدولة الزيرية في مناطق شاسعة من بلاد المغرب الأوسط وكانت حدود هذه الدولة من تيارت غربا إلى الزاب وعاصمتها بسكرة شرقا وكانت مدينة المدية والجزائر ومليانة ضمن المدن التابعة لدولة بني زيري[167]، وعندما تولى الحكم زيري بن مناد في تيارت عام 349- 960م من يد الفاطميين، سمح لإبنه بولوغين بإنشاء ثلاث مدن هي المدية ومليانة والجزائر وذلك في فترة تقارب عشر سنوات (أي ما بين 350- و360م).

وهناك من يرى أن بولوغين هذا لم يقم بإنشاء هذه المدن الثلاث بل أدخل عليها إصلاحات وتعديلات ولا سيما أنها كانت موجودة فعلا قبل عهده وذلك إعتمادا على أخبار المؤرخين الذين أوردوا معلومات تخص تاريخ هذه المدن الثلاثة.

وفي القرن الخامس الهجري (11م) أصبحت المدية تحت حماية ونفوذ الثعالبة وحكم بعد ذلك أبو الفتوح بن خنوش أمير سنجاس نواحي مدينة المدية بما في ذلك المدينة نفسها وهذا في منتصف القرن الخامس الهجري. وخضعت المدية لحكم الزيانيين في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وقد إمتد نفوذهم إلى الونشريس، والسرسو وقلعة بني سلامة في منطقة فرندة وتعود شهرة هذه المنطقة الأخيرة أن ابن خلدون كتب فيها مقدمة كتابه العبر.

وظلت مدينة المدية ردحا من الزمن تابعة للمرينيين ولكن لم يستمر الأمر على هذا الحال، فقد بعث أهل المدينة بالطاعة والولاء إلى الأمير الجزائري عثمان بن يمغراسن، فلبى ما طلبوه بكل سرور، وأمر ببناء قصبتها.

---

(166) - سيدي أحمد بن يوسف دفين مدينة مليانة.

(167) - هناك ملاحظة لابد من ذكرها، وهي أن الفاطميين فضلوا الزيريين على غيرهم اقدر الناس وكذا فعاليتهم على محاربة بنو زناتة جيرانهم في الناحية الغربية.

وعندما دب الضعف في الدولة الزيانية في تلمسان وأصبح ملوكها في أواخر القرن 15م لا يستطيعون ردع الفتن ولا منع الأعراب من غزو مناطق المملكة وعمل كذلك على انفصال المدية، مال اهلها إلى أمير تنس في مطلع القرن السادس عشر الميلادي مع العلم أن أمير تنس هذا استطاع أن يحمي المدينة بصفة فعالة أكثر من ابن عمه المقيم بتلمسان، وهذا يعود إلى قربه منها وكذا لنفوذه الكبير.

مدينة المدية في العهد العثماني

بعد دخول بابا عروج إلى مدينة الجزائر تلبية لدعوة أهلها من أجل حمايتهم من نير الاسبان، قام عروج بفتح مدينة المدية بعد هزيمة أمير تنس حماد بن عبيد في المتيجة حوالي عام 1517م فترك في المدية حامية عسكرية عثمانية وبعض الاندلسيين وعاد إلى مدينة الجزائر.

وبعدما خلف خير الدين أخاه عروج عام 1518م قام بتعزيز العلاقات بين الجزائر والخلافة العثمانية مما جعلها تمده بما يحتاجه من اعانة في سبيل تدعيم الدولة الجزائرية عن طريق تأسيس قواعد عسكرية وادارة في الاقاليم الجزائرية إلى بايلكات، ومر نظام البايليك بمراحل كان البايات نوابا وخلفاء عن الدايات (جمع داي وهو بمثابة رءيس الدولة الجزائرية)، وكان البايات من الاتراك أو الجزائريين من الكراغلة المولدين. اما أقسام البايليك فكانت كما يلي:

أولا: بايليك مدينة الجزائر وماحولها، ويشمل مدن الجزائر، البليدة، شرشال، القليعة ودلس وكانت تدعى دار السلطان.

ثانيا: بايليك التيطري والصحراء وقاعدته مدينة المدية واسس عام 1540م ويعتبر أصغر البايليكات وأفقرها وأكثرها ارتباطا بالسلطة المركزية، لهذا وضع بجانب الباي حاكم يتصل مباشرة.

ثالثا: بايليك الشرق وكان مركزه قسنطينة وحكم الباي أغلب الناحية الجبلية والصحراوية عن طريق الرؤساء المحليين مع العلم أن تأسيس بايليك قسنطينة جرى عام 1565م.

رابعا: بايليك الغرب وأسس عام 1565م وعرف تنوعا في مراكز الادارة حيث لم تصبح وهران كعاصمة بايليك مستقرة إلا في عام 1592م بعد تحريرها من نير الاسبان، وكانت العلاقة التي تصبغ بايات المدينة مع الاهالي بطابع المودة واللين ويبرهن على ذلك أن الباي رجب أعفى الشرفاء لمدينة المدية وما جاورها من دفع الغرامة والضرائب. ولم يكن الباي مقيما في المدية بصفة دائمة في اول وهلة بل كان يقيم تارة بالمدية وتارة ببرة

ساور حيث تكثر المزارع والبساتين بوادي يسر التابعة لقيادة العثمانيين مع العلم أن قبائ وادي سيبارو كانت تابعة لبايليك التيطري حتى عام 1775م.

ومن أشهر بايات المدية الباي عصمان والباي سفطه، أما الأول فقد تم تعيينه عام 1763م واشترى مزارع عرفت فيما بعد ببلاد سيدون عند أولاد حسن بن علي كما عرفت بحوش عصمان وبنى مخازن ومستودعات وإسطبلات. وكان الباي عصمان يقوم بغارات على أولاد سيد أحمد وهم فرع من اولباد نائل ولكنهم قتلوه في غزوة من غزواته ونفس المصير وقع فيه الباي سفطه.

وأدخلت تعديلات على ادارة بايليك المدية عام 1775م وبمقتضى ذلك أصبح مقر باي التيطري واحد عاصمته المدية، أما حدود البايليك فهي كما يلي:

1) في الشمال قبيلة موزايا وبني صالح بالقرب من البليدة وبني مسعود.

2) في قبيلة بني سليمان وعريب.

3) في الغرب قبيلة جندل وأولاد خليف. كما قسم بايليك المدية إلى أوطان وهناك بعض المناطق قسمت إلى تل أعلى وتل أسفل أي جنوبي وكان الاول يضم قبائل بني حسن وهني كما يلي:

ووامري، ريغة وهوارة وكانت هذه القبائل مستقرة وتتعاطى الفلاحة. أما التل الجنوبي فكان يضم قبائل الجنوب المتنقلة في بعض الفصول الخاضعة لشيوخها وتضرب مثلا على ذلك بقبائل دوايرو تطري وأولاد حمزة.

وفي جنوب بايليك المدية كانت توجد قبائل من الرحالة نذكر منها: زيانة، عبادلية، أولاد نايل وأولاد سيدي عيسى.

بومزراق ومقاومة الفرنسيين

أما آخر بايات المدية فهو الباي مصطفى بومزراق (1819/ 1830) وقد إمتاز بمقاومته الشديدة للمحتلين الفرنسيين. وشارك في معركة سطاوالي بشكل مستميت مع جيش قوي من قبائل المدية إحتل كلوزيل مدينة المدية لأول مرة في 21 نوفمبر1830 بعدها استطاع التوغل في منطقة الشفة بعد معركة موزاية التي كانت معركة حاسمة فعلا، وترك في مدينة المدية حامية فرنسية بقيادة ماريو (عين مصطفى بن عمر بايا على التيطري، وفي 27 نوفمبر1830 وقع هجوم عنيف على مدينة المدية من طرف بومرزاق، ابن باي التيطري وجرت معركة دموية أمام أسوار المدينة كانت بمثابة ملحمة

فعلا، وكاد يتم القضاء على الحامية الفرنسية نهائيا لو لم يجمع مصطفى بن عمر بعض من أهالي مدينة المدية ويحملهم تحت الضغط والاكراه على مساعدة الفرنسيين وكانت عاقبة ذلك وخيمة فقد كان من الصعب على الفرنسيين التمييز بين أعدائهم والموالين لهم لأنهم كانوا جميعا يرتدون البرنس وأخذ الفرنسيون يطلقون النار دون أن يفرقوا بين أعدائهم وأصدقائهم حيث اختلط عليهم الحابل بالنابل فنتج عن ذلك اضطراب شديد في الصفوف وأحس بعض الأهالي الذين انضموا إلى الفرنسيين انهم خدعوا. ولشدة هجوم بومرزاق وكان جيشه في معظمه من أهالي المدية المخلصين انسحبت الحامية الفرنسية إلى مدينة الجزائر تظهر عليها ذيول الهزيمة.

وجدد الفرنسيون حملة على مدينة المدية قادها الجنرال بيرتوزين في أواخر عام 1831م وأصيب مواطنو المدية في أملاكهم أكثر مما أصيب غيرهم. وكانت هذه الحملة بمثابة غزوة نهب، حرق فيها الفرنسيون ودمروا كل ما لم يستطيعوا أخذه. وعاد الجيش الفرنسي إلى الجزائر وهو يسوق أمامه عددا من القطعان المسروقة. وحاول السلطان المغربي مولاي عبد الرحمان أن يمد نفوذه على مدينتي المدية ومليانة بعدما احتل تلمسان حتى انه بعث ممثلين له إلى هاتين المدينتين، ولكن تبعية البلدتين لم تدم طويلا بسبب حملة الجنرال بيرتزين الانف ذكرها.

بعد إنطلاق المقاومة الامير عبد القادر ضد المحتلين الفرنسيين في منطقة معسكر مسقط رأس الامير توجه بعدها نحو الناحية الشرقية فضم مليانة والمدية فدخل إلى المدينة الاولى عام 1835م ونصب أخاه محي الدين الصغير كحاكم عليها وتوجه الأمير عبد القادر نحو المدية في 20 أبريل 1835م، فوجد في حوش عمورة قرب جندل الحاج موسى الدرقاوي الذي كان واليا على المدية ووقعت مواجهة حربية بين الطرفين وانهزم الدرقاوي ودخل الأمير بعدها إلى المدية فعين حاكما عليها يمثله وهو محمد بن عيسى البركان وعاد بعد ذلك إلى معسكر.

وفي سنة 1836 استولى الجنرال كلوزيل على مدينة المدية للمرة الثانية وولى عليها، عوضا عن الباي الذي كان قد توفي قبل ذلك، محمد بن الحسين، الذي دفع حياته ثمنا لاخلاصه للمحتلين الفرنسيين، اذ لم ينتصر عليه أحد خلفاء الأمير، فأمر عبد القادر بنقل محمد بن الحسين إلى المغرب الأقصى وارساله إلى مولاي عبد الرحمان السلطان المغربي دليلا على انتصار الأمير في جهاده إلا أن حاكم مدينة وجدة أبى عليه اعتزازه بقومه إلا أن يقضي على حماسة ذلك الزنديق الذي وضع نفسه تحت تصرف الأعداء، فأمر باعدامه شنقا.

وفي عام 1837م أقام الأمير عبد القادر في المدية ردحا من الزمن فاستقبل بها الأمير أعيان البليدة ثم نصب أخاه الحاج مصطفى خليفة على المدية.

وفي أوج ازدهار دولة الأمير من ناحية قوة سلطته وفعالية نفوذه اتخذ قرارا وجيها وهو جعل مقر الخليفة في مدينة المدية وعين البركاني بصفة دائمة عليها وأصبحت هذه المدينة مع تلمسان ومعسكر ومليانة يمثلون جبهة تساير الساحل في حالة مواجهة مع الأعداء الفرنسيين، وفي نوفمبر 1839م عاد الامير إلى المدية ليواصل حربه ضد الفرنسيين فجعل المدية عاصمة دولته فتوجه اليها الأعيان والأنصار ونشبت الحرب ولعب خليفة الأمير في مليانة وهو ابن علال ولد سيدي علي مبارك وخليفته على المدية محمد البركاني دورا هاما في حرب الاستنزاف وتتمثل في تعطيل مواصلات العدو وقطع الماء على معسكر البليدة.

قرر الوالي العامل فالي احتلال المدية ومليانة فدخل إلى مدينة المدية في 17 ماي 1840 فوجدها خالية من أهلها الذين غادروها فحصنها وجعل عليها حامية بقيادة الجنرال دوفيفيي ثم جاءها فيما بعد بوجو في 01 أبريل 1941م فلجأ محمد بن عيسى البركاني إلى الجنوب، ودخل المعمرون إلى المدية وضواحيها في 1947م وكان تعدادهم 2322.

خلال الحرب التحريرية 1961/54 التي أدت إلى الحرية والاستقلال قدم أهل المدية فداء ألف وخمسمائة شهيد استشهدوا في ساحة الوغى وهذا يدل على مدى الروح الوطنية المتأصلة في أوساط أهل المدية ورفضهم للاستعمار الخنوع للمستعمر الفرنسي.

ولكن في عالم الثقافة نجد مدينة المدية لا تعرف أي نهضة فكرية أو ثقافية عبر التاريخ الإسلامي ولعل هذا يعود إلى صغرها وعدم تشجيع حكام المدينة في العهد الإسلامي أو العثماني للعلم والعلماء ولا يعقل بل ليس من المعقول أن تفخر بعلماء ولدوا في مدينة أشير وتعتبرهم من أبناء المدية مثلما ذهب أحد الكتاب فجعل أبو محمد عبد الله الأشيري وهو من فطاحل الفقه والحديث وموسى بن الحجاج الأشيري كأعلام تفخر بهما مدينة المدية والبليدة منها براء أي أن مسقطهما ليس من المدية لا من قريب ولا من بعيد والتاريخ يشهد أن مدينة المدية كانت لها مساهمة متواضعة (بل ضئيلة) في عالم الفكر.

الأستاذ الكبير محمد الفاضل بن عاشور في كتابه "ومضات فكر" /ص 41 يوردنا أن في القرنين السابع والثامن الهجري استقر في تونس أعلام من أهل المدية مثل الدميمي والمطرف بن عميرة وأخيه محمد بن عميرة سفراء ثم لاجئين وقد كشفت أخيرا مشاهد قبور البعض منهم برمال المرسى، وهذه سمة من سمات الوحدة الفكرية التي كانت تطبع العلاقات الثقافية بين أبناء المغرب العربي، فالمداني لا يشعر بأنه

مغترب في تونس عندما يقيم في تلمسان أو الرباط أو بجاية لا يحس بجاية غربة تذكر فكل بقعة من أرض المغرب وطنه.

على كل حال برز مفكرون وأعلام من المدية في العصر الحديث ونضرب مثلا على ذلك بالأديب محمد بن شنب الذي كانت له ثقافة عربية وفرنسية جعلته يتألق في عالم المعرفة حتى وصل إلى منصب عميد كلية الآداب بجامعة الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي في المنتصف الأول من هذا القرن، وهناك شخصيات دينية وسياسية أنجبتها مدينة المدية منها الشيخ الحسين السليماني والدي وهو عالم أزهري، درس في أول وهلة بجامعة القرويين ثم شق طريقه نحو أرض الكنانة ... مصر حيث درس في كلية علوم الدين وكان شيخ الأزهر يومئذ هو مصطفى المراغي، وقد درس مع الشيخ الحسين السليماني وهو والدي رحمه الله ، الشيخ عيمور (والد السيد محي الدين عيمور) وهو من علماء مدينة عنابة، وقد نوه بالشيخ الحسين هذا الشيخ الطيب العقبي رحمه الله في جريدة الإصلاح في عدد ماي 1947م فتحدث عن خصال ونضال الشيخ الحسين السليماني من أجل القضية الوطنية فقد أسس حزب الوحدة الوطنية في الأربعينيات وعارض مصالي في مواقف معروفة له.

ومن أعلام مدينة المدية الشيخ فضيل إسكندر رحمه الله إمام الحنفية، والشيخ مصطفى فخار رحمه الله هذا الأخير كان بمثابة مفتي مدينة المدية وفي نفس الوقت كان يشرف على الطريقة التيجانية التي جعلت من المسجد المالكي (الذي سبق ذكره) مقرا لها ردحا من الزمن.

وميزة المدية اليوم أنها مدينة دين وتقوى وشاع ذكرها في كل أنحاء الجزائر قاطبة بهذه الميزة الخاصة بها.

***

جيجل عبر العصور

إن الدارس لتاريخ مدينة جيجل في القديم تعترضه مشاكل عديدة، ويعود السبب الرئيسي، بل المعضلة إن المصادر القديمة لا تتحدث عنها الأمر الكرام، ربما يعود السبب أنها لم تكن مشهورة ذائعة الصيت مثل **** أو قرطاجنة أو قادس أو أتيكا أو ليكسوس أو أثينا أو الإسكندرية، وهذا هو السبب الذي جعل المؤرخين القدماء لا يولونها اهتماما كبيرا، بينما في العهد الإسلامي أصبحت لمدينة جيجل مكانة مرموقة.

ورب سائل كيف كانت الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لمدينة جيجا في القديم ...؟ لا ندري بالضبط أي شيء يستحق ذكره ويعود السبب إلى افتقارنا إلى المصادر الرئيسية حول تاريخ المدينة من جميع النواحي، ولكن يبقى شيء من الأمل ويكمن فيما يقدمه لنا علم الآثار الذي نستطيع بواسطته أن نرفع الالتباس الذي يكتنف تاريخ جيجل أو إيجيجلي كما كانت تدعى في القديم هذا احتراما للمصطلح القديم، واهتم المؤرخون الفرنسيون ببعض الشيء بتاريخ المسح الأثري الذي جرى في منطقة ايجيجلي في الأطلس الأثري، وتحدث عنها مؤرخون آخرون مثل شارل أندري جوليان صاحب كتاب "تاريخ إفريقيا الشمالية" ولكن بصفة مقتضبة، وتحدث عنها ستيفان قزال في تاريخ إفريقيا الشمالية القديم.وجاء ذكر مدينة اجيجيلي عند المؤرخين القدماء مثل بلينوس، وبطليموس.

أصل التسمية

إن اسم مدينة جيجل مشتق من اسمها القديم ايجيجلي، وكانت معروفة بهذا الاسم في العهد الفينيقي والروماني.

أما شارل فيرو مترجم الجيش الفرنسي المحتل يرى أن اسم جيجل مشتق من ايجيجلي وهذا الاسم تكرار إيجل مرتين إيجل- إيجل ومعناها بالبربرية الهضبة المرتفعة. وكانت مدينة جيجل في عهد الاحتلال الروماني تابعة لولاية موريتانيا القيصرية ثم ألحقت بولاية موريتانيا السطيفية في عصر دقليديانوس وكان هذا الأخير خاضعا لهيمنة الوندال والروم البيزنطيين، على كل حال أصبحت جيجل بمثابة مستوطنة رومانية في عهد أغسطس، وكانت سوقا مركزيا يجتمع فيها أهالي المناطق المجاورة لها.

مدينة جيجل في القديم

وعمل الرومان على شق طرق تربط جيجل بالمدن المجاورة والبعيدة مثل: سطيف، وقسنطينة، وميلة، وجميلة، وعرفت مدينة جيجل اثناء الاحتلال الروماني كملاذ للمقامين النوميديين الأحرار مثل تاكفاريناس الذي قام بثورة عنيفة ضد المستعمرين الرومان، ما بين 17 و24م. ويمتاز تاريخ مدينة جيجل بالثراء في العهد الإسلامي بالثراء ووفرة المعلومات أحسن وأفضل من الحقبة القديمة، ولا سيما المدينة لعبت دورا كبيرا في نشأة الدولة الفاطمية في القرنيين الثالث والرابع الهجريين(10و11م).

وعندما احتل الوندال إفريقيا الشمالية أصبحت جيجل تابعة لنفوذهم، ثم حكمها فيما بعد البيزنطيون، وعندما تم الفتح الإسلامي لبلاد المغرب العربي اعتنق أهالي

مدينة ايجيجلي أو جيجل الإسلام ودخلوا في دين الله أفراجا، فأصبحت جيجل مدينة إسلامية صغيرة، وكان يقيم فيها أهالي من فروع كتامة المشهورة.

ومع العلم أن كتامة وفروعها هي واحدة من أعظم الأسر البربرية في المغرب الأوسط، ومنذ دخول الإسلام إلى أرض المغرب العربي كانت كتامة تقطن في المنطقة الشمالية في نواحي قسنطينة بين سلاسل جبال الأوراس وساحل البحر المتوسط، وتشمل المدن التالية: ايكجان، وسطيف وباغية، ونقاوس، وتقشت، وميلة، وقسنطينة، وسكيكدة، وجيجل، وبلزمة، والقبائل الصغرى، وأصل كتامة من قبيلة كنعان أو قبيلة حمير باليمن، وجدها الأعلى يدعى كتام بن برنس، وأنجب ابنين هما فرسن وأسودة ومنها تناسلت كل بطون كتامة المعروفين عند المؤرخين العرب مثل ابن خلدون والطبري والطشقندي صاحب كتاب "نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب".

وحدود بلاد كتامة كما رسمها ابن خلدون تنتهي عند بجاية غربا وعند سلسلة جبل أوراس جنوبا والى ساحل البحر عند عنابة شمالا، ويحمل ابن خلدون ذلك في قوله: "حدود جبل أوراس إلى السيف البحر ما بين بجاية وبونة".

جيجل في العصر الإسلامي

وفي العصر الإسلامي كانت جيجل تدعى قصر جيجل، وكان بالمدينة معادن وفيرة في الجبال القريبة منها، وكانت المدينة تصدر النحاس إلى البلدان الإفريقية وغيرها جاء ذكر المدينة في وصف إفريقيا لأبي الحسن الوزان، فقال قصر جيجل هو قصر قديم بناه الأفارقة على صخرة عالية لشاطئ البحر بنحو 70ميلا، وفيه ما يقرب من خمسمائة كانون، ودورة (أي منازل قصر جيجل) في غاية الحسن ورجاله أشداء كرماء وأوفياء، وكلهم فلاحون، ولكن أراضيهم وعرة لا تصلح إلا للشعير، والكتان، والقنيب الذي ينبت هناك بكثرة، ويكثر في جيجل الجوز والتين، ويحملان إلى تونس في سفن صغيرة، وقد حافظ هذا القصر (أي قصر جيجل) دائما على حريته، رغم وجود ملوك بجاية والملوك المحاذين لها، لأنه يستحيل حصار قصر جيجل، إلا أن أهله خضعوا من تلقاء أنفسهم إلى بربروس الذي لم يفرض عليهم سوى زكاة عشر الحبوب، والثمار، مما هو حلال معمول له، لم يترك نائبا عنه في قصر جيجل سوى مندوب واحد. وجاء بابا عروج إلى جيجل ليخلصها من يد الجنويين الذي احتلوها عام 1513هـ، وفعلا حررها في النصف الثاني من القران السادس عشر وكان عروج ينطلق من مرسى جيجل ليفر على الجهة الشرقية لبحر المتوسط، ويرجع إليه ليصلح أموره.

ولاحظ الإدريسي أنها كانت مركزا صغير، لكنها غنية بالخيرات ويصاد فيها السمك الكبير الجيد الطعم بأعداد وفيرة، ولها مرسى جنوبي صخري مهجور لصعوبة النفاذ إليه، ومرسى شمالي رملي هادئ الحركة يمكن الرسو فيه بسهولة بكنه صغير يكاد يشبه الحوض ويسميه مرسى الشعراء ربما لوجود نبات الشعراء بكثرة قرب الميناء، ويبدو أن مدينة جيجل أصابها في القرن الخامس للهجرة (وهو عصر التوسع في البحر النورماني أو عصر الحركة الصليبية في المغرب العربي) ما أصاب بقية المدن الساحلية في المنطقة الشرقية، من تخريب وتدمير وسيطرة نتيجة العدوان ورفض أهل جيجل التعاون مع أمير البحر النورماني ويدعوه الإدريسي جرجس، وغادرها بعد سقوطها إلى المنطقة الجبلية وبنوا هناك مركزا حصينا تجمعوا فيه بأسره، نقلوا إليه أمتعتهم وأموالهم حتى صار بمثابة المدينة ومكثوا في هذا الحصن المنيع خلال فصلي الربيع والصيف وأصبح ذلك عادة درج عليها السكان، أما في الشتاء فإن السكان يعودون إلى مدينتهم الجميلة فتزدهر بهم وتزخر بالحركة والنشاط.

***

مدينة مستغانم

تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في غرب البلاد، لها طابع زراعي محض. هناك من يرى أن مستغانم كانت بها محطة رومانية أو قرية رومانية ولكن لا وجود لأي دليل قاطع ويعود السبب في ذلك إلى وعورة الدخول إلى مستغانم عن طريق البحر.

جاء ذكرها في كتاب وصف إفريقيا لأبي الحسن الوزان[168] حيث قال: مدينة مستغانم بناها الأفارقة على ساحل البحر المتوسط على بعد نحو ثلاثة أميال شرقي مدينة مزغران في الضفة الأخرى، لقد كان الأعراب يكثرون من مضايقتها منذ أن بدأت سلطة ملوك تلمسان تضعف، حتى أنها فقدت ثلثي أهلها في وقتنا الحاضر، ومع ذلك فإنها ما تزال تضم قرابة ألف وخمسمائة أسرة، وفيها مسجد في غاية الحسن، وصناع كثيرون ينسجون الأقمشة ودورها جميلة وسقاياها عديدة يخترقها جدول ماء يحرك الطاحونات، وفي خارجها عدة بساتين جميلة، لكن معظمها مهجور، وجميع الأراضي المحيطة بها جيدة للفلاحة وخصبة لها ميناء صغير كثيرا ما تقصده السفن

(168) - انظر ابي الحسن الوزان: وصف إفريقيا ص؟ تحقيق محمد الأخضر.

الأوروبية، لكن أصحابها لا يحققون أرباحا مهمة لشدة بؤس أهلها، بنى يوسف بن تاشفين في مدينة مستغانم الإسلامية برجا يدعى برج المهل نسبة لقبيلة المهل أثناء فتوحاته للمغرب الأوسط عام 1082م، كان لمستغانم أمير مشهور يدعى حميد العبد عاش في القرن الرابع عشر ميلادي، وهو زعيم قبيلة ذائعة الصيت. ويعود الفضل للأمير حميد العبد في تعزيز وتوحيد القبيلة هذه.

بعث خير الدين بأسطول بحري لفتح مستغانم عام 1518م وفتحت المدينة أبوابها للفاتحين العثمانيين بعد مقاومة شديدة وبعدها تم توسيع المدينة وبنيت الأبراج حول أسوارها، وما إن وافت سنة 1526م حتى امتد نفوذ العثمانيين من جيجل إلى مستغانم/ حول الإسبان احتلال مستغانم مرات عديدة ولم يفلحوا، وكانت محاولتهم الأولى عام 1542م أما الثانية فكانت في عام 1547م وحاول الإسبان في المرة الثالثة غزوى المدينة ولكن هيهات فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا حتى قال سيدي أحمد بن يوسف قولته المشهورة: "مستغانم مسك الغنائم، إذا دخلها شهيد، وظالمها ما يموت كيف يريد"

يقال والله أعلم أن أصل تسمية مستغانم مشتق من مشتى الغنم، إلى المحطة الشتوية للغنم.

ومما يجب ذكره في مقامنا هذا أن مستغانم كانت عاصمة بايلك الغرب من 1732م إلى 1792م، ومقام العثمانيون بإعطاء ضربات قاسية للإسبان انطلاقا من مستغانم حيث كانت القاعدة أكثر عمقا في ضرب المحتلين الذين جعلوا من وهران مقرا وعرفت منطقة مستغانم بطابعها الزراعي وفي هذا المضمار فقد زرع فيها القطن قبل القرن الخامس عشر الميلادي. مع العلم أن منطقتنا مشهورة بزراعة العنب (أو الكروم) إلى يومنا هذا.

الحياة الثقافية في مستغانم

لمدينة مستغانم علماء أجلاء ذاع صيتهم في مشارق الأرض ومغاربها، منهم العالم محمد بن حواء المستغانمي عاش في القرن الثاني عشر هجري اشتهر بمنظومته البديعة الغوثية الكبرى وهي تحتوي على أربعمائة بيت مطلعها:

يقول راجي ربه العفو — محمد الشهير بابن حوا

الحمد لله العظيم الطول — الواسع الجود العميم الفضيل

إلى أن قال:

يا سامع الدعاء يا قدير　　　يا من إليه ترجع الأمور

يا مالك الملوك يا جبار　　　أنصر ذليلا ما له أنصار

ولمحمد المستغانمي منظومة عجيبة سماها: سبيكة العقبان فيمن مستغانم واحوازها من العلماء الأعيان ويقال أن له تأليفا في فن الحكمة...

تاريخ وفاته غير معروف، ولكن مدفنه موجود بفحص البلد خارج السور بمستغانم، ومن علماء مدينة مستغانم الفقيه البغدادي المستغانمي وهو من آل سيد عبد الله بن الخطاب الماهدي القبيلة الحافلة بساحة مستغانم، والفقيه البغدادي فقيه مشهور قرأ على أشياخ تلمسان منهم الفقيه ابن حمزة، والحاج ابن أبي يوسف ابن طالب والعلامة السيد ابن عبد بن العيدوني الفحلى.

ومن مدينة مستغانم نجد العام سيدي معزوز البحري المستغانمي، وحيد زمانه وسراج أوانه، حامل لواء كل فن وواصل ما ظهر من العلوم وما بطن المشار إليه عند الكل بالمقام السامي، واشتهر بما ذكر لكون متعبده ودفنه وما بني عليه كان على جبل بشاطئ البحر بمستغانم إلى أن أحدث بناء المرسى في البحر من ناحيته، فاحتيج للجبل الذي هو فيه فأمر بتنقله فنقل إلى مقبرة البلد في 1303 هجرية الموافق أبريل 1890م فاجتمع لنقله ودفنه جماهير لا تحصى وأظهر الله في ذلك المشهد من يؤذن بجلالة قدره، وبحق أن يسطر في مناقبه مالا يستقصى.

كان لسيدي معزوز البحري المستغانمي تآليف مفيدة معتبرة وله قوة في الاستظهار/ ومن تأليفه شرحه على متن النوسية، وله في هذا الشرح فوائد حسنة، رائعة وتنبيهات مفيدة منها قوله في مباحث الحمد.

للتنبيه: صيغة الحمد في الحديث يحتمل أن تكون معينة ويحتمل أن يكون المراد معنى الحمد، ولكن لم يكن بلفظه حتى لو بدأ بالبسملة ونحوها كفاء ....الخ.

مستغانم في العصر الحاضر

تمتاز مستغانم بطابعها الزراعي الممتاز ومما يدل على ذلك إنتاج اللحوم الذي وصل إلى 8000طن سنويا، وتنتج الولاية ثمانية وسبعين مليونا من البيض سنويا ويعتزم المسؤولون رفع إنتاج اللحوم "الحمراء" في نهاية المخطط الرباعي بمعدل 3000طن سنويا عوض 1500طنا وهو معدل الإنتاج الحالي. وهناك أمال معقودة من أجل تنمية

تربية الأرانب، والديك الرومي والعسل (أي صناعة العسل) حيث يشكو هذا القطاع ضعفا في الأراضي المسيرة ذاتيا (حسب شهادة والي ولاية مستغانم).

وبسبب قلة الأنهار في ولاية مستغانم فلا يوجد بها ولو سدا واحدا وقد أدى ذلك إلى ظهور مشكل الري أي سقي الأراضي الزراعية في ولاية مستغانم، فالفلاحون الذين يفلحون أراضيهم يعتمدون على الأمطار الموسمية، مع العلم أن الدولة تعمل جاهدة من أجل حفر أبار وإيجاد مصادر المياه الضرورية لسقي الأراضي الزراعية في المناطق الفلاحية السيرة ذاتيا، وكذلك في الأراضي الفلاحية التابعة للقطاع الخاص.

وسيقوم وزير الري الجزائري بزيارة لولاية مستغانم (في عام 87) من أجل تسطير وتحديد برنامج محدد وواسع في سبيل الرفع من مجال مساحة الأراضي المسقية عن طريق الري والسقي المنظم في ولاية مستغانم.

يوجد في مستغانم وضواحيها مصانع تصبير السمك من سردين وحوت وكذا السمك الصغير الملح وهذا النوع الأخير يتم تصدير جزء كبير منه إلى الخارج، وخاصة إلى إسبانيا وفرنسا وفي مستغانم مرسى بحري تصدر عن طريقه المنتوجات المحلية ولو أنه أقل مساحة من ميناء وهران.

وعرف قطاع التعليم والتربية في ولاية مستغانم تطورا ملحوظا ويمكن أن تطلع على هذا التطور من خلال عدد الأقسام المدرسية الذي كان عددها 1225 قسما في عام 81/80 فأصبح عددها اليوم (أي في عام 87/86) 1589 قسما أما عدد المسجلين من التلاميذ فزاد عددهم هذه السنة حتى وصل 70.000 ألفا من التلاميذ.

في السبعينات لم تكن في ولاية مستغانم سوى ثانويتين أما اليوم فعدد الثانويات الموجودة بالولاية 5 ثانويات، وثانويتين للتعليم التقني ومجموع التلاميذ الذين يدرسون بالثانويات السبعة هو 8675 تلميذا، منهم 28 % في التعليم التقني.

وأهل مستغانم متشبثون بالتقاليد العربية الإسلامية ويمكن أن يلمس المرء ذلك في حفلات الختان والزفاف حيث يتزين النساء بالحلي الذهبية الجميلة ويلبسن القفطان المطروز بالخيوط الذهبية أو يلبسن "الكراكو" وهي بدلة خاصة تلبس أثناء العرس.

ويمتاز المستغانميون بالروح الاجتماعية فهو اجتماعيون عادة وهذه من الخصال الحميدة التي تطبع أهل مستغانم.

مدينة بشار

هي عاصمة ولاية بأكملها، تبعد عن مدينة الجزائر بألف كيلومتر. تحدها شرقا ولاية أدرار وغربا المملكة المغربية و في الشمال ولايتا النعامة والبيض، و في الجنوب تحدها ولايتا أدرار و تيندوف. مناخ المدينة صحراوي جاف صيفا و بارد شتاء.

هناك من يرى أن تسمية بشار يعود أصلا إلى كلمة (بشرى) وتعني لغة التبشير بالماء في هذه المنطقة، ولقد دلت الحفريات التي عثر عليها أن تاريخ المنطقة يعود إلى العصر الحجري الأخير، فهي غنية بآثار ما قبل التاريخ كالرسوم الصخرية في منطقة بني عباس والموجودة أيضا في منطقة العبادلة ، علاوة على النقوش الحجرية التي عثر عليها في منطقة تاغيت، و في منطقة مرحومة ببلدية تامترت.

وتوجد في منطقة بشار معالم تتمثل في القصور القديمة التي تتراوح مدة وجودها ما بين القرنين و الخمسة قرون، يبلغ عددها حوالي 129 قصرا منها ما هو محطم والبعض الآخر شبه محطم بحاجة إلى ترميم أثري في أسرع وقت كتراث ثقافي وسياحي مهم.

كما أن هناك قصورا لا تزال عامرة بالسكان إلى يومنا، يقطنها أناس من بشار، لا بأس أن نذكر منها قصر بني عباس الذي يبعد عن مدينة بشار بحوالي 241 كلم وهو يقع وسط واحات النخيل التي لها شكل عقرب .

أما قصر القنادسة، فهو يبعد عن بشار بمسافة 20 كلم ويحتوي على مسجدين عتيقين هما مسجد الشيخ محمد بن بوزيان و مسجد الحاج بن أحمد.

ولابد من ذكر قصر تاغيت أيضا، البعيد عن مدينة بشار بمسافة 95 كلم وميزة هذا القصر أنه مسجد فوق صخرة حجرية كبيرة.

كما توجد بولاية بشار مجموعة من الزوايا، منها الزاوية الزيانية بالقنادسة التي أسسها الشيخ بن عبد الرحمن بن أحمد بن بوزيان الإدريسي رحمه الله، أهم مرافق الزاوية : الخزانة القندوسية التي تحتوي على ما يقرب المئتين مخطوطة.

وتوجد أيضا بالمنطقة زاوية سيدي أحمد بن موسى بكرزاز التي تأسست عام 1027هجرية على يد الشيخ سيدي عبد الله بن الشيخ وهي تحتوي على مخطوطات كثيرة، كما نذكر كذلك زاوية سيدي سليمان بوسماحة ببني ونيف التي تأسست سنة 946 هجرية على يد الشيخ الجليل سيدي سليمان بوسماحة .

أما زاوية سيدي عبد الله بأولاد خضير، فقد أنشأت منذ أربعة قرون على يد الشيخ عبد الله ين عمر بأولاد خضير وهي طريقة صوفية معتدلة .

وفي تاغيت توجد زاوية سيدي عبد المالك بونقاب، وقد تأسست هذه الزاوية منذ حوالي ثلاثة قرون على يد الشيخ عبد المالك بونقاب.

من مميزات منطقة بشار وجود واحات خضراء تكثر فيها أشجار النخيل المنتجة للتمور مما يؤهلها للإستثمار في هذا المجال، وتوجد وديان عدة تكون ثروة مائية منها واد الساورة وواد الناموس، وهما يضفيان رونقا جماليا، ولابأس أن ننوه بما يوجد ببشار من حيوانات برية ، مثل الغزلان والإبل، والضب، والورن، والفنك. وكل هذا يجعل بل يؤهل بشار لتصبح قطبا سياحيا فاعلا في المستقبل .

وكما هو معلوم أن منطقة بشار لها ميزة تنوع الحرف و الصناعات التقليدية، و أذكر على سبيل المثال صناعة الزرابي بورشة موغل، وصناعة التحف التقليدية ببني عباس، وصناعة الآلات الموسيقية بالقنادسة، وصناعة الفخار بقرية البياضة ببلدية الواتة، وصناعة الجلود بناحية الواتة أيضا، وصناعة السعف بمنطقة تامترت.

وفي ميدان الموسيقي والفلكلور، نلاحظ أنه بحكم أن ولاية بشار محاذية للحدود المغربية فإن هناك تأثر كبير بالغناء المغربي ولاسيما في ما يخص الطرب الديني، وهو ما يسمى "موسيقى الملحون"، علاوة على ذلك ، هناك التأثير الإفريقي والمغربي في موسيقى بشار ويتمثل في لون موسيقى قناوة حيث تشبه كثيرا موسيقى قناوة في مراكش مثلا.

على كل حال نلاحظ في لباس النساء والعروسة في منطقة تمنطيط أن هناك شكل مميز فيما يخص الطابع للمرأة في الملحفة التي يغلب عليها الطابع الأحمر والأبيض والأسود مع استعمال أدوات الفضة كالأساور والقلادات والخلخال والأقراط وفيها يظهر الطابع البربري، فأشكال الفضة تشبه ما هو موجود في منطقة جرجرة وبجاية ومنطقة باتنة والأوراس بصفة عامة

وهناك إمتزاج في منطقة بشار بين العنصر الأبيض العربي و العنصر الزنجي في لون البشرة، فالشعامبة وهم من العنصر العربي يمثلون 25% من أهالي ولاية بشار وهم قبائل رحل في الأصل و نجد نفس العنصر الشعامبي موجود في منطقة تندوف أيضا وفي منطقة غرداية حيث أن أهالي أم تليلي و زلفانة من قبيلة الشعامبة بينما سكان غرداية من المزابيين ذوي المذهب الاباضي وهم يمتازون بشكل رأس مدور وقصيري القامة على العموم .

مدينة تندوف

تندوف هي مدينة عاصمة ولاية صحراوية جنوب غرب الوطن الجزائري ذات الجمال السياحي والمناظر الرائعة و التراث الثقافي والشعبي العريق، وتقع مدينة تندوف في أقصى الجنوب الغربي الجزائري، وتبعد عن مدينة الجزائر بمسافة 2000 كلم يحدها من الشمال المغرب الأقصى، ومن الشمال الشرقي ولاية بشار، ومن الشرق ولاية أدرار. وجنوبا تحد تندوف موريتانيا، وفي الجنوب الغربي الساقية الحمراء ووادي الذهب وهي الصحراء الغربية، وتتربع على مساحة تقدر بـ 158.000كلم وتتكون من دائرة تتفرع إلى بلدتين هما تندوف وأم العسل.

وتمتاز تندوف بمناخ صحراوي ذو شتاء بارد و جاف، وصيف حار. وتحتفل تندوف بأعياد ومواسم محلية تتجلى في موسم سيدي المختار بن بلعمش في 10 نوفمبر من كل عام، وموسم سيدي بلال بن رباح بعد المولد النبوي الشريف، وموسم سيدي الرقيبي وتوجد معالم ثقافية ودينية هي بمثابة روائع تعبر عن عراقة وأصالة هذه المدينة منذ قديم الزمان، وتتمثل في قصبة بلعمش ودويرية أهل العبد، ودار الديماني الوسري، ودار الشرفاء، وضريح الولي الصالح محمد المختار بن بلعمش الذي سلف ذكره آنفا وفي ناحية تندوف معالم تاريخية وأثرية ونذكر منها الحضيرة الأثرية بغار جبيلات وهي آثار تعود إلى ما قبل التاريخ ومن جملتها نقوشا حجرية وقبور بدائية وبقايا حيوانية بحرية متحجرة مع وجود قلعة البرتغاليين بأم الغشار ومحطات الإنسان البدائي بأم الطوابع ومنطقة لكحال وهناك مواقع طبيعية خلابة في منطقة تندوف منها بحيرة تافقومت بأم العشار، وواحات النخيل بأم الطوابع، وكثبان الرمال الذهبية بعرق إيقيدي، وعرق شاش، وعرق بوبرنوس، وحمادة توناسين، وحمادة تندوف، وفي صحراء الحمادة يوجد مخيمات الصحراويين من الصحراء الغربية الذين ينتظرون تطبيق مبدأ المصير للعودة إلى ديار الصحراء الغربية الوطن الأم.

أما فيما يخص الفلكلور في تندوف فتوجد ألوان موسيقية رائعة تعبر عن هذا الفلكلور، المتنوع منها القنفة، والقرقابو، والهول، والبارود.

وفي ميدان اللباس التقليدي الذي يعتبر السفير الأمين لعادات وتقاليد المنطقة فلباس النساء يتمثل في الملحفة، أما بالنسبة للرجال فهو الدراعة أماالصناعة التقليدية فتتجلى في الحلي التقليدية المصنوعة بالفضة ودباغة الجلود وتحف الفناية.

وتشتهر تندوف بمأكولات تقليدية مشهورة منها البنافة و الكسكس بلحم الجمل كما يقدم الشاي بانعناع على الطريقة المغربية ويقدم عادة مع الحلويات "الغريبية" والكاوكاو(الفول السوداني) .

وأهالي تندوف يتكونون من عناصر مختلفة، منها أولئك التندوفيون الذين ينتمون إلى قبيلة الرقيبات، ونفس القبيلة ينتمي إليها أغلب سكان الساقية الحمراء ووادي الذهب ونعني بذلك أهالي الصحراء الغربية، ونجد جزءا من أهالي موريتانيا من قبيلة الرقيبات، ولغة أهل الرقيبات تدعى اللغة الحسنية، وسمعت مرة لبعض الأغاني في حفل بتندوف أطربنا خلاله مطربون صحراويون من الصحراء في صحراء الحمادة في مخيمات اللاجئين الصحراويين ليس بعيدا عن تندوف، ولاحظت أن اللغة الحسنية لم أفهم كثيرا من كلمات الأغاني، وربما يعود ذلك إلى عدم تعود سماع اللغة الحسنية فضاع الفهم في هذا النطاق.

وحسب ما أعلم أن أهل تندوف يوجد بينهم أهالي قبيلة جاكانا المشهورة وقبيلة الشمعامبة وهم عرب رحل مستقرون في ناحية تندوف منذ زمن بعيد ومن شيمة تجار تندوف الحل و الترحال من أجل التبادل التجاري مع تجار الدول المجاورة في موريتانيا وفي المغرب الأقصى ومالي و النيجر وكذلك مع دول جنوب الصحراء، وقيل لي عندما قمت بزيارة ألى تندوف منذ سبع سنوات تقريبا إذا لم تخني الذاكرة أن بعض مواطن تندوف من التجار يحملون جنسيات عديد في آن واحد لتسهيل العمل التجاري وإبرام الصفقات التجارية والعهدة على الراوي والله أعلم.

***

مدينة البليدة

يقال والله أعلم أن مؤسس مدينة البليدة هو سيدي أحمد لكبير المهاجر الأندلسي الذي كان مهندسا معماريا فريدا من نوعه، حيث أقام بالقرب من حي الدويرات على مشارف جبال الشريعة وكان ذلك في بداية القرن الخامس عشر الميلادي ويعود له الفضل في تخطيط مدينة البليدة - وطبع البلدة بطابع أندلسي في عمران البيوت حيث نلاحظ إلى يومنا هذا شكل المنزل التقليدي بأقواس تحيط بيوت الدار في الداخل مع سقيفة جميلة وكان البيت التقليدي من دور واحد أو دورين على كل حال فإن

البيت أو المنزل التقليدي مازال موجودا في حي دويرات وكذا بالقرب من جامع بن سعدون، مع مدخل مقوس مثلما هو الأمر في قصبة مدينة الجزائر أو في دويرات القليعة، والحي العتيق سيدي الصحراوي في المدية ومليانة.

وكان للبليدة أسوار تحيط بالمدينة منها باب الجزائر، و باب الرحبة وباب الخويخة، وباب السبت، وباب القصيبة. ولكن الإستعمار الفرنسي هدم أسوار المدينة من أجل توسيع المدينة الكولونيالية ففقد الطابع العربي الإسلامي لمدينة البليدة، ومن حسن الطالع أن بعض أحياء المدينة القديمة مازالت موجودة إلى يومنا هذا مثل حي باب الخويخة وحي الدويرات وحي جامع بن سعدون حيث نلاحظ المنازل التقليدية المميزة مع الحمامات التقليدية، علاوة على السويقة في وسط مدينة البليدة التي لها نكهتها الخاصة، حيث نعثر على مختلف الخضار والفواكه واللحوم والألبان والمطاعم التقليدية و أنواع مختلفة من خبز الدار والجبن الأبيض يباع عادة في وسط ورق الكروم بـ 20 دج للجبنة الواحدة بالسويقة .

على كل حال لمدينة البليدة طابعها الخاص ومازال أعيان المدينة من أصل أندلسي أو من الكراغلة أو العرب يطبعون المدينة بلباسهم الجميل و تعلقهم بالموسيقى الأندلسية حيث أن البليدة لها تاريخها التقليدي في عالم الموسيقى الأندلسية لأن لديها فرقتها الخاصة في هذا المغمار.

ويمتاز أهالي البليدة بالتحضر وإعداد الأطباق التقليدية والحلويات الجزائرية، فالطبخ التقليدي مشهور في البليدة، وأهل الحضر من هذه المدينة لهم صيت ذائع في كل الجزائر لأن النساء البليديات إشتهرن بالجودة وإتقان الأطباق الجزائرية الأصيلة وهذا يدخل في باب الحضارة التي تميز أهالي البليدة بصفة خاصة ولكن الهجرة الريفية على مدينة البليدة قد أضر بالمدينة كثيرا ولا سيما في مجال فوضى العمران حيث نلاحظ أن الريفيين الذين بنوا منازل جديدة في أولاد إيعيش وخزرونة وسيدي عبد القادر قد أضروا المدينة وشوهوا الطابع العمراني للمدينة مع ملاحظة غياب كلي لمصلحة العمران على مستوى البلدية و الولاية فجرى تشويه عمران المدينة بطريقة يرثى لها ويا أسفاه. وهذه الظاهرة نلاحظ وجودها في عدة مدن جزائرية التي بنيت فيها أحياء جديدة بلا روح ولا طابع عمراني. ويشتهر أهل مدينة البليدة أنهم إجتماعيون وكرماء ويمتازون برقة المعاملة واللطافة ولا سيما الحضر منهم مثل السيد يحيى بن عمر والشيخ جلول البدوي، والشيخ الإمام الأسطنبولي.

مدينة معسكر

إن معسكر هي عاصمة ولاية تشرف على ستين في المائة من المساحة الكلية بني شقران أي حوالي 220.000 هكتار من ضمن مجموع 330.000 هكتار وهكذا فإن لمعسكر ونواحيها إمتداد طبيعي من بني شقران، ولوالية معسكر حدود مشتركة مع ست ولايات في التقسيم الولائي الجديد وهي وهران ومستغانم، تيارت، وسعيدة، وسيدي بلعباس، وهذا الموقع الجغرافي الوسط هو الذي ألبسها أهمية إستراتيجية.

وعلى كل حال فهناك طابع زراعي يغلب على الرقعة الجغرافية التي تتألف منها ولاية معسكر حاليا.

والمعروف تاريخيا أن بني شقران وأرض الحشم في منطقة معسكر، لم تتعرض هاته الأوطان لمصاعب إقتصادية ولمجاعات، ففي ميدان الزراعة فإن الغذاء السائد في المنطقة خلال القرون الوسطى كان يتمثل في الذرة، والفول، والتين الهندي، بالهضاب، أما السهول فكانت مزدهرة فيها الحبوب، علاوة على الثروة الحيوانية[169]

وكان الفلاح الحشيمي أو الشقراني يكتفي بزراعة الجزء الخامس من أرضه، ويبقى على أربعة أخماس، ولم يجر له أبدا أن زرع نفس القطعة الأرضية لسنتين متتاليتين، بحيث وجدت أراضي لم تزرع سوى مرة واحدة خلال كل ست سنوات.

ومما يجب ذكره في هذا السياق أن دائرة سيق في ولاية معسكر تشتهر بزراعة الزيتون، ودائرة المحمدية بالحوامض، ودائرتي غريس وتيغنيف بالخضر والفواكه، فإن باقي الدوائر تنشط بها زراعة الكروم التي شجعها الإستعمار الفرنسي، وبدأت زراعة العنب في معسكر في سنة 1849، وأما زراعة الحبوب والتبغ و الكروم[170]

الزيتون فجرى تطوير زراعتها بضواحي معسكر، بحيث تم بيع 10.000قنطار من الحبوب، وشهدت الفترة الممتدة ما بين 1859-1866 تطورا فعليا لممارسة التجارة الزراعية على إختلاف أنواعها من حبوب وبقوليات وخضر ومحاصيل تجارية كالقطن، والزيتون، والتبغ[171]

---

(169) - انظر عدة بن داهة، معسكر عبر التاريخ ص 12 دار الخلدونية2005 الطبعة الأولى

(170) - نفس المرجع عدة بن داهة، ص/13.

(171) - نفس المرجع ص/1.

معسكر عبر التاريخ

كانت معسكر حصنا عسكريا في العهد الروماني تخضع في تخطيطها للطابع الروماني وذلك منذ القرن الثاني الميلادي فكان يوجد في المدينة ساحة كبيرة وسط مدينة محصنة يتوسطها معبد، ويسكنها الأشراف، وكان يوجد خارج أسوار المدينة الجند والعبيد، وكانت ناحية معسكر تصدر الحبوب و المزروعات للأمبراطورية

الرومانية وإبان العهد العثماني عرف عمران مدينة[172] معسكر تطورا ملحوظا فكان تصميم المدينة يشمل الجوانب الإدارية والتجارية والعسكرية، فكانت الدوائر العثمانية القائمة موجودة داخل أسوار المدينة الذي يتراوح علوها ما بين 06 م و09م

أهمها باب على الذي كانت تتعلق فيه جماجم (القرطة) المحكوم عليهم بالإعدام من العهد التركي وكان يوجد باب سيدي علي محمد وهو منفذ للنجدة، ويوجد بداخله [173] 08 ساحات و04 جسور مبنية بالحجارة أجدها بدون دربوز تعلو جميعها وادي تودمان الذي يقسم المدينة إلى شطرين يستفيدان من مياهه، وللتذكير فإن المدينة التي تحيطها الأسوار بالأبواب الخمسة كانت موجودة على الضفة الشرقية للوادي، وفي عام1877 أصبحت معسكر عبارة عن مدينة صغيرة، وطوقت من قبل سلطات الإحتلال الفرنسي بأسوار جديدة، خارج الأسوار التركية القديمة تشقها ستة أبواب هي باب وهران، باب علي، وباب مستغانم .

ويعتقد د.أبو القاسم سعد الله أن معسكر سبقت في العهد العثماني كلا من مستغانم ووهران إلى الزعامة السياسية في غرب البلاد.

ويشرف مدينة معسكر أنها عاصمة الأمير عبد القادر الذي ولد في أحد ضواحيها وبايعته القبائل العربية كأمير على البلاد الجزائرية ويكفيها فخرا كل هذا وإشتهرت معسكر بمقاومة أهلها للمحتلين الفرنسيين على يد الأمير عبد القادر أولا ثم المقاومون المحاربون للإستعمار إبان الثورة التحريرية حيث أبلوا البلاء الحسن ضد الفرنسيين.

تعتبر معسكر قطبا زراعيا مهما في إنتاج البطاطا و الخضر والفواكه فسهل غريس ينتج أنتاجا وفيرا وعرف إزدهارا كبيرا في الآونة الأخيرة بفضل الدعم الفلاحي وخدمة الأرض الفلاحية من قبل الفلاحين الخواص الذين ضربوا أروع الأمثلة في رفع الإنتاج الزراعي .

---

(172) - انظر عبد الوهاب محمد لمحات من تاريخ معسكر وكذلك عدة بن داهة معسكر عبر التاريخ ص/37

(173) - نفس المرجع عبد الوهاب محمد وعدة بن داهة المرجع السابق ص/37

مدينة تسيمسيلت

مدينة تسمسيلت هي في الأصل كلمة بربرية مركزية من جزأين وتعني غروب الشمس (تيسم : غروب وسيلت : الشمس)، أطلقها السكان القدامى على المنطقة وهي تسمية كانت ترمي ألى إبراز روعة وجمال منظر غروب الشمس.

وأثناء الإحتلال الفرنسي وضع الفرنسيين تسمية جديدة وهي فيالار AIVRAL، ثم أرجع الإسم القديم وهو تسمسيلت بعد إستقلال الجزائر.

ومدينة تسمسيلت تقع بالهضاب العليا تتميز بموقعها الإستراتيجي الهام بوجودها على مقربة من مدينة الجزائر بحوالي 220 كلم شمالا وتقع بوابة على الجنوب حيث تيارت و الجلفة وشرقا جبال المدية وغربا غليزان.

تسمسيلت لها تاريخ عريق يتجلى من خلال الآثار التي أكتشفت في عدة مواقع من ربوع جبال الونشريس مثل بكبابة، وعين الصفا، وتازا . والإحتلال البزنطي للمنطقة جرى في الفترة الممتدة ما بين - 534م/597م - وفي عهد حكم الدولة الرستمية التي جعلت من تيهرت عاصمة سياسية حيث أصبحت تسمسيلت تابعة لعاملة تيهرت آناذاك.

وتعاقب على الحكم تسمسيلت الدولة الفاطمية والحمادية، والمرابطين والموحدين، والزيانيين وثم في الأخير الدولة الجزائرية تحت راية الخلافة العثمانية

في عهد الإحتلال الفرنسي أصبحت تسمسيلت مركزا إداريا عام 1880، ثم بلدية كاملة الصلاحيات تابعة لمقاطعة مليانة سنة 1942 وكان لجبال الونشريس دورا هاما في تحصين المنطقة بداية بمقاومة الأمير عبد القادر الذي إختار من منطقة تازا مركزا له فأنشأ قلعته.

تحافظ تسمسيلت بعاداتها وتقاليدها كأعراس الزفاف و الختان الوعدة مع إحياء المواسم الدينية كالمولد النبوي وعاشوراء وتقدم أطباق مثل الكسكسي والمردود والمسمن و الرفيس و الحموم، و الفطير والمبسس، والحامضة و البغرير... إلخ.

تتميز ولاية تسمسيلت بطابعها الفلاحي و الغابي و الرعوي وتختص بإنتاج الحبوب والأعلاف الجافة وتربية المواشي. ويقدر مخزون المياه بما يفوق 38م مليون م^3 يتمثل في المياه الجوفية و السطحية والمجمعة عبر سدود كل من سد كدية الرصفة وسد المغيلة وسد بوقارة. مع أن طاقة إستعاب السدود يصل إلى 90 مليون م^3 .

ويعقد في تسمسيلت كل عام المهرجان الوطني للشعر الملحون و الفنية البدوية، وطبع كتاب يخص مقتطفات من الشعر الشعبي الذي جرى من 7 إلى 10 ديسمبر 2005 وإخترت قصيدة للشاعر تباق الحاج وهو من تسيمسيلت ومن هذا الكتاب قال في مطلعها :

شعلت..... نار الشوق فيا عشاق اقدات وخلاتني بالقهر آتزيد

هذا الحب ..اتقول حرب العراق تندهت وصابر علي مول الكيد

ماني صابر يا حبابي، حبي طاق وخلخلني بزاف دالمحبوب أعتيد

جريتوا ..وأصبحت بالمحنة تواق وابكيت اهمومي وجاني الحال بعيد

***

مدينة البويرة

توجد مدينة البويرة في أسفل جبال جرجرة وشيدت على هضبة صغيرة على علو 525م وكانت هذه المدينة تدعى في العصرالحديث سوق حمزة نسبة لإسم المؤسس أو المالك حيث إنشاء فنادق، والبعض منها موجودة بالقرب من السوق القديم والتي شكلت البنايات الأولى للمدينة وهناك من يرى أن إسم البويرة مشتق من إسم أمازيغي ثوبيرات ويعني أرض بور- وهناك من يرى أن البويرة تعتبر مصطلحا إستعمله الفرنسيون المحتلون للتسمية البربرية سالف ذكرها ثوبيرات.

ويعتقد أن أصل سكان البويرة من قبيلة كتامة المتفرعة من بربر صنهاجة الذين سكنوا جنوب جرجرة و البابور إلى غاية جيجل وسطيف.

وبنى محمد باي قسنطينة في نهاية القرن 18م برج حمزة وهو بمثابة حصن، وتم وضع مخازن في داخل البرج لتخزين القمح والشعير والزيت، وكان البرج يحتوي علي مخازن للدخيرة ومصهر الحديد، وفرن، و طاحونة وورشة للتنظيف واسطبلات للخيول.

ويوجد في ولاية البويرة لأنها عاصمة إدارية، عدة مدن مشهورة من مدينة سور الغزلان التي كان لها تاريخ مجيد في العهد النوميدي وإبان الاحتلال الروماني جرى بناء مدينة رومانية هي أوزيا ما زالت آثارها ماثلة إلى اليوم، وحسب ما ورد في التاريخ القديم فإن تاكفاريناس الثائر النوميدي الشهير جعل من منطقة أوزيا وهو سور الغزلان في العصر الإسلامي، مرتعا ومركزا حيويا للمقاومة النوميدية ضد المحتلين الرومان الذين إغتصبوا أراضي النوميديين عن طريق نزع الملكية للأرض وتوزيعها على الطبقة الأستقراطية الرومانية فرفض تاكفاريناس هذه السياسة التوسعية الممقوتة وأعلن الحرب ضد الرومان.

ومن مدن البويرة المشهورة مدينة الأخضرية وكانت تدعى في العهد الفرنسي باليسترو، وجرى تأسيس بلدية باليسترو سالف ذكرها رسميا لقرار 18 نوفمبر 1869 في مكان يسمى جسر بني يني على الطريق الرابط بين الجزائر وقسنطينة ويعود إسم الأخضرية الذي أستعمل بعد الإستقلال تمجيدا للشهيد سي لخضر الذي هو من أصل منطقة قرقور.

وتمتاز البويرة بمنطقة سياحية هامة منها الحمامات المعدنية مثل حمام كسانة في بلدية الهاشمية وحمام شعابات سي سليمان.

وهناك عادات وتقاليد موجودة في البويرة ونواحيها منها إحتفالات عيد الناير الذي يمتاز بنكهة خاصة، تتجلى مظاهر التعاون و التلاحم بين أفراد المجتمع في التويزة، و الزردة، والوزيعة (تمشرط) والوعدة ...إلخ .

وفي ميدان صناعة الحلي و الفضة يلاحظ تأثر منطقة البويرة بصناعة الحلي التي تشتهر بها منطقة بني يني بولاية تيزي وزو ويوجد في البويرة ونواحيها صناعة النسيج والزرابي التقليدية وصناعة الحلفاء التي يصنع منها الطبق لوضع الخبز والقفة والحصير للجلوس عليه وسجادة الصلاة، أما الفخار المصنوع بالطين فتوجد ورشات عديدة منها ورشة خندريس المتخصصة في صناعة الأواني الفخارية .

ومن أعلام البويرة وما جاورها من نواحي أبي حسن المشدالي وهو فقيه صاحب كتاب على المدونة، عاش في القرن السابع والثامن الهجري.

ومن أعلام المنطقة محمد بن حماد الصنهاجي ألف كتابا مشهورا عنوانه: الديباجة في أخبار صنهاجة .

ومن أعلام كذلك أبو الفضل محمد المشدالي، وعمر بن موسى المشدالي، ومحمد بن أبي القاسم المشدالي.

ولا ننسى ذكر الشيخ عبد الرحمن شيبان من مواليد قرية الشرفة وقد ناضل بفكره وقلمه في نشر الوعي السياسي التحرري، عمل مفتشا عاما بوزارة التربية لمادة والأدب العربي وعين وزيرا للشؤون الدينية في الثمينات وإعتنى ودعم ملتقيات الفكر الإسلامي.

وكان عضوا في اللجنة الوطنية للتعريب ما بين 1974-1976، وطبع مقالات الشيخ عبد الحميد بن باديس فطبعها ووزعها مجانا في المساجد.

وهن الآن رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ورئيس تحرير جريدة البصائر. ومن أبناء المنطقة الطبيب العالم محمد بن البشير شيبان وهو مختص في طب العيون وجراحتها ومشرفا على طلبة التخصص، وله بحوث عديدة في مجال الطب و الدين منها مانشره في مجلات وجرائد وطنية وعالمية، وله توجه إسلامي محض وهو شقيق عبد الرحمن شيبان.

مدينة سوق أهراس

سوق أهراس مدينة لها تاريخ تليد، من القديم كان إسمها هو طاغشت، وقد أرسل القرطاجيون ما بين القرن الخامس والرابع قبل الميلاد جالية قرطاجية لبناء وتعمير شرق شمال إفريقيا حيث جرى بناء مراكز تجارية هي طاغشت ومداورش وتفسة وساعدوا من خلالها السكان المحليين وهم اللوبيين في إقتباس طرق البناء و التخطيط العمراني القرطاجي وكذا نفس الأمر في الزخرفة ويقع في ولاية سوق أهراس مدن تاريخية منها مدينة مادوروش يعود جذور تاريخها إلى الحقبة الفينيقية في القرن الخامس قبل الميلاد، وعرفت المدينة عصرا زاهرا في عهد المماليك النوميدية، وكان يعمرها سكان ينتمون إلى قبيلة موسولامي من عهد الملك ماسينيسا، ونشأ في مدينة مادوروش أبوليوس المادوري الذي عاش ما بين 125-180م وهو من عائلة بربرية ثرية يشتهر بمؤلفه الحمار الذهبي.

وفي هذه المدينة درس القديس أوغسطين المرحلة الثانوية بمدرسة في مادوروش ما بين عام 365م - 369م ولكنه من مواليد طاغست وليس مادوروش ونشأ في مدينة مادوروش العالم مالسيموس الذي عاش ما بين 354م - 430م ويعتبر صاحب الرسائل العديدة المتبادلة مع القديس أوغسطين.

وفي ولاية سوق أهراس تقع مدينة خميسة وكانت موجودة في العهد القرطاجي والدليل على ذلك العثور على نقيشة مهداة إلى الإلهة تانيت وإبان الإحتلال الروماني بنيت مدينة رومانية في عهد تراجان.

وفي ناحية سوق أهراس توجد مدن تاريخية مثل تيفاش وتاورة وهنشيرالقصيبة، وكاف الفصيبة.

ومما يجب ذكره أن مدينة طاغشت وهي سوق أهراس في القديم نشأ فيها وترعرع المفكر الكبير القديس أوغسطين الذي ولد في 13 نوفمبر 354م/ من أم مسيحية وهي سانتا مونيكا وأب وثني وإعتنق المسيحية في أواخر حياته.

وأنجبت سوق أهراس كتاب وفنانون كبار مثل الأديب طاهر وطار ومصطفى كاتب المسرحي المشهور وعبابسة البادي وشكيب حمادة وعماري حسين، ووردة الجزائرية وبقار حدة وإشتهرت بأغانيها البدوية والشاوية، والمطربة فطيمة بن منصور المعروفة بفاطمة السوقهراسية والحاج بورقعة هو أحمد بن محمد بن العماري مساعدية وهو

رائد الأغنية البدوية، ومن أبناء سوق أهراس توفيق بن بلقاسم سالمي وهو شاعر مرموق، وحياة طوافشية وهي صحفية مرموقة تعمل حاليا كمراسلة بجريدة الشروق اليومي، ومراسلة لصحيفة المستقبل في سوق أهراس.

ومن أعلام ولاية سوق أهراس الشيخ الأشطب وهو يمتاز بشعر التهكم لما رآه من ظواهر إجتماعية عربية ولا ننسى ذكر شهاب الدين التيفاشي، ولد في عام 1184م وكان عالما في العلوم الطبيعية وألف موسوعة عربية شملت كل الفنون بما في ذلك الغناء، وألف كتابا في المعادن والأحجار الكريمة كما كان أديبا وله ذوق في الشعر. ومن مؤلفاته الأزهار في جواهر الأحجار. توفي سنة 690 هجرية الموافق لـ 1253م.

***

مدينة أدرار

في بادئ دي بدئ لابد من التذكير أن مدينة أدرار ونواحيها الثرية بالتاريخ والآثار والثقافة و التقاليد والحضارة بمفهومها الواسع، كل هذه المقومات تجعلها مستقبلا قبلة للسواح والزوار من الوطن والعالم بأسره لأن ولاية أدرار تزخر بإمكانيات سياحية وحضارية كبيرة تستطيع أن تستقطب ملايين السواح مع الحفاظ على طابعها الثقافي الأصيل المميز مثلما هو الأمر بالنسبة إلى مدينة مراكش أو تارودانت في المغرب الشقيق فلماذا لا تتبوء نفس المكانة أدرار بقصورها ومدنها العتيقة مثل تمنطيط والتوات وقورارة...إلخ، فالمطلوب اليوم وغدا هو تطوير السياحة الثقافية في منطقة أدرار وتستطيع السلطة السياسية و الأمنية والمؤرخون والمثقفون أن يسعوا إلى تحقيق هذا المراد.

وأدرار هي مدينة حديثة أنشأت بناءا على قرار من الإحتلال الفرنسي وكان ذلك في عام 1904م، وهناك رأي آخر يرجع تأسيس مدينة أدرار إلى عام 1886م وهو يصادف تاريخ بناء أول قصبة، وهي قصبة القايد، واعتبر أصحاب هذا الرأي أن أدرار الحديثة هي امتداد طبيعي للقصبة المذكورة آنفا[174]

وتقسم ولاية أدرار إلى ثلاثة أقاليم، هي إقليم تينجورارين (تيميمون)، وإقليم توات وتعني أدرار وأدرار الوسطى، علاوة على إقليم تيديكلت ويضم أولف وعين صالح

(174) - هذا ما رواه لنا الأستاذ السيد نيكلوس احمد الذي التقيته في ولاية أدرار من 8 إلى 12 اوت 2007 وكانت جلسة ودية فعلا مع الشاعر مختص في الشعر الملحون وبعض المثقفين من أدرار والجزائر بحضور السيد محمد العلوي استاذ التصوير بقسم الإعلام في جامعة الجزائر

ويعتمد هذا التقسيم على حركة تجار القوافل قديما ذهابا وإيابا. هذا ما رواه الأستاذ أحمد نيكلوس جزاه الله خيرا فيما يتعلق بأقاليم أدرار.

وجاء ذكر هذه الأقاليم الثلاثة في رحلة ابن بطوطة وعبد الله اللواتي، وكذا في رحلة العياشي، وعمل بهذا التقسيم الرحالة بن الدين الغواطي .

أما المناطق ذات العناصر الثقافية المتميزة المشكلة لولاية أدرار فهناك قورارة ومقرها الإداري تيميمون صاحبة الواحة الحمراء الساحرة تتشكل من مجموعة (175) قصور منتشرة أغلبها حول الكثبان الرملية الهائلة على الحدود الجنوبية للعرق الغربي الكبير وتتمتد من قصر تيلكوزة شمالا إلى قصر تسابيت جنوبا ويوجد في منطقة قورارة المعروفة بالواحة الحمراء التي سلف ذكرها، فتشتهر بواحات النخيل بأولاد سعيد والعرق الغربي الكبير، ومغارة أعزر، وقصر أغلاد، وقصر كالي وحاج قلمان.

أما منطقة توات عبارة عن ممر هائل عن 200كلم[2] كان يجري في السابق مجرى مائي يحدها من الجانبين عدة قصور إبتداءا من تسابيت إلى غاية رقان مرورا بأدرار.

وتمتد من على طول الجهة الغربية لهضبة تادميت(176). ويشتهر توات بطرق السقي التقليدية المعروفة بالفقارة وهي مفخرة للمنطقة وشاهد تاريخي على العبقرية

والفقارة عبارة عن منهج نمط تقليدي يقوم على إستغلال المياه الجوفية وتحويلها نحو الواحات يجري توزيعها بعدل وتساوي بواسطة عدة مجاري على شكل مشط يسمى القصرية، وأشهرها قصرية ملوكة، وأشهر الأماكن بتوات هي مغارة تماسحت (177) ومما يجب ذكره في هذا الشأن بالفقارة فهناك باحثة جزائرية كبيرة هي السيدة سليمة موساوي التي تحضر دكتوراه دولة حول الفقارات الصحراوية الموجودة في أدرار وغيرها، وهو بحث أكاديمي سيثري الثقافة التاريخية، والأستاذة الكريمة إطارة سامية في وزارة الثقافة منذ أكثر من عشرين عاما خلت، أما منطقة تيديكلت فهي تقع جنوب مقر ولاية أدرار وتمتد من قصر فقارة الزوي بعين صالح إلى رقان، ورغم شساعة منطقة تيديكلت فإن السائح المتجول أمامه عدة محطات منها: مغارة الشارف سيدي عيسى بتمقطن والغابة المتحجرة بتيط، والنقوش الحجرية ماطورين.

أما منطقة تانزروفت فهي تعد بمثابة بداية الصحراء الكبرى و الفراغ الهائل الذي سمي التوارف بتانزروفت و الذي يمتد إلى غاية حدود مالي.

---

(175) - اعتمدنا في معلوماتنا عن القورارة من منشور لولاية أدرار عنوانه أدرار جوهرة الجنوب ص/2

(176) - نفس المرجع ص/2

(177) - نفس المرجع منشورة ولاية أدرار (مديرية الثقافة ص/2- ص/3)

ومما يجب ذكره أن تانزروفت مشهورة ومعروفة بالنقوش الحجرية المعبرة عن تاريخ عريق وأصالة الرجل الأزرق "التارقي" وتتميز تانزروفت بإعتدال مناخها وكثرة منابع مياهها وموطن الغزلان، وتعتبر تيمياوين محطة كبيرة لقوافل الجمال[178]

وجاء ذكر منطقة أدرار في كتاب التاريخ لهيرودوت ويصفهم بـ: ماريس وتعني التواتيين، أما بطليموس المؤرخ الروماني فيورد أخبارا حول الجيتوليين، وفي العصر الوسيط فإن منطقة توات بحكم موقعها الجغرافي والإستراتيجي كانت همزة وصل في المبادلات التجارية[179] بين الشمال الجزائري وإفريقيا، ومما يجب ذكره أن توات كانت تدعى تنجورارين كما نعتها عبد الرحمن بن خلدون صاحب العبر.

وكانت منطقة توات تتسم بالأمن و الأمان و الطمأنينة وملاذا للقبائل الهارية والأسر الحاكمة من بني العباس مثلما جرى لأسرة البرامكة في بغداد إبان القرن الثالث الهجري الموافق للتاسع الميلادي حيث لجأوا إلى بلاد التوات هروبا من القمع والتصفية وكذا الهلاليين في القرن12م الذين لجأوا إلى توات لأسباب سياسية محضة[180].

وعرفت منطقة التوات إزدهارا إقتصاديا في العصر الوسيط الحديث، وأصبحت تمنطيط مركز إشعاع اقتصادي وثقافي إبتداءا من القرن العاشر الميلادي[181].

الفقارة في أدرار ونواحيها

تحدثنا في مقالاتنا هذه حول الفقارة على عجل، ولابأس أن نقدم فكرة وافية حول مفهوم الفقارة بالتفصيل ودورها في سقي الأرض بأدرار، وكما هو معلوم أن الفقارة هي أقدم مصدر مائي سلسلة من الآبار يتصل بعضها ببعض، وتتحدر مياهها من مستوى أرضي عالي إلى طبقة مستوية منخفضة تشرف على تربة صالحة للزراعة (لإقامة بحيرة) فيجري منسوب ماء الفقارة[182] .

أما عمق الآبار فيبدأ من ثلاثة أمتار إلى أربعين مترا في بعض الفقارات، قد تبلغ مسافة إمتداد آبار الفقارة الكبيرة حوالي 10كلم.

وهناك إختلاف الآراء حول من أنشأ الفقارة فصاحب كتاب البسيط يرجع أنشاءها إلى أقباط مصر أما صاحب درة الأقلام فيقول : نزلت بعض القبائل البدوية ببودة[183]

(178) - نفس المرجع أدرار جوهرة الجنوب ص/6

(179) - نفس المرجع ص/6- ص/7 نشر مديرية الثقافة بولاية أدرار 2007

(180) - نفس المرجع ص/7

(181) - نفس المرجع ص/8

(182) - نفس المرجع ص/10

(183) - نفس المرجع أدرار جوهرة الجنوب ص/10

فوجدوا مياه الوادي قد جفت، فإختبروا الوادي ثم حفروا سلسلة من الآبار ببعضها وزرعوا بعض أراضي الوادي. وهي فكرة مقبولة فيما يخص نشأة الفقارة لأن قصور بودة سالف ذكرها هي أقدم قصور توات واشتق إسم الفقارة من الفقر، وقيل من التفجير لان الماء يتفجر منها، وهناك من يرى أن إسمها مشتق من الفقارات، وفقاقير الظهر، بينما يرى البعض الآخر من الفقر الذي هو الحفر كقولك فقر كذا بمعنى حفره. وماء الفقارة هو ملك جماعي وتوزع خصصه بطريقة عادلة حسب ملكية الأفراد والجماعات لحبات الماء.

وعدد الفقارات في منطقة أدرار حاليا يتجاوز أكثر من 800 فقارة ولأهمية هذا المورد المائي الممتد عبر الزمن مازال السكان إلى يومنا هذا في نواحي توات الوسطى يشتقون فقارات جديدة تحظى بالصيانة من قبل الدولة.

تعتبر المنطقة التواتية ضاربة في أعماق التاريخ ويعود التاريخ وجودها إلى ماقبل الإسلام بمدة طويلة والدليل على ذلك أن المؤرخين والرحالة العرب والأوربيين ذكروها وأسهبوا في الحديث عن التوات ومناقب أهلها مثل إبن حوقل والكرخي واليعقوبي، والبكري، والإدريسي، وإبن بطوطة، وأبو الحسن الوزان، والشيخ أبو راس الناصري وسعيد قدورة الجزائري علاوة على المؤرخ الإسباني مارمول كزيخال صاحب كتاب وصف إفريقياو غيره.

ومن أصل تسمية توات فهناك من إعتبر أن سبب تسمية الإقليم بتوات أنه لما إستفتح عقبة بن نافع بلاد المغرب ووصل ساحله ثم عاد واد نون ودرعة وسجلماسة ووصل خيله توات ودخل بتاريخ 62هـ فسأل عن هذه البلاد يعني توات، وهل تواتي لنفي المجرمين من عصاة المغرب ينزله بها أو يجليه بها؟، فأجابوه بأنها تواتي فانطلق اللسان بذلك أنه تواتي فتغير اللفظ على لسان العامة لضرب من التخفيف و أورد ذلك محمد بن عومر[184].

وهناك رأي آخر حول أصل التسمية مفاده أن المهدي الشيعي[185] حين غلب سلطان الموحدين على المغرب بعث قائديه على بن الطيب و الطاهر بن عبد المؤمن لأهل الصحراء وأمرها بقبض الأتوات فعرف أهل هذا القطر بأهل الأتوات لأن السلطان قبله منه في المعرم فعلق البكري على هذه الرواية قائلا: هذه الرواية أصح ولهذا اللفظ مستند في العربية.

(184) - انظر احمد جعفري، المخطوطات التواتية ولاية ادرار، مجلة الواحات للبحوث و الدراسات ديسمبر 2006 ص/185. المركز الجامعي غرداية

(185) - نفس المرجع ص/ 186.

على كل حال هناك خلاف في أصل اشتقاق[186] المصطلح كما سلف ذكره ولكنه إسم أعجمي يحمل دلالات مميزة واعتمادا على اللغة الأم ربما البربرية أو التكرورية أو التارقية ، أو العربية[187].

وكانت الجماعات التواتية عبر تاريخيها الطويل من أنشط المجموعات التي سكنت الصحراء ...وأوصلوا أسواق شمال المغرب العربي بأسواق الجنوب السوداني عن طريق القوافل العابرة ذهابا وأيابا وعن طريق هذه القوافل أطلع التواتيون عن قرب التيارات الثقافية و الفكرية إلى ما كانت سائدة في المشرق والمغرب فاستغل علماء وفقهاء توات فرصة التواصل بالتيارات فنقلوا ما عندهم من علوم ومعارف، ويذكر أن جامعات الغرب الإفريقي ومساجده كانت خلال القرن الخامس عشر وحتى القرن السابع عشر الميلادي، حافلة بالطلبة و العلماء من منطقة توات.

وذكر السعدي أن قائمة العلماء المشهورين في مساجد وجوامع مدن الغرب الإفريقي ومراكزه الحضارية يشكل التواتيين من بينهم نسبة تقارب النصف لهؤلاء جميعا مئات المخطوطات المتواجدة حاليا في خزائن ومكتبات مصر وموريطانيا ومالي والنيجر وغانا ونيجيريا. كما جاءت في فهارس مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن لصاحبها دكتور أحمد زكي يماني الذي شغل منصب وزير البترول السعودي السابق.

وعرفت واحات أدرار إزدهارا إقتصاديا من خلال حركة القوافل التجارية التي جعلت من هذه الواحات قطبا ثقافيا مشعا استقطب نخبة من العلماء في مختلف المجالات والذين قاموا بتأسيس المراكز الثقافية و الدينية ومن بينها الزوايا الموجودة في نواحي أدرار وجهات عديدة من توات، و التي تركت لنا الآلاف من المخطوطات التي تعالج مختلف ميادين المعرفة بما فيها النظام العرفي من خلال مجموعة من الأحكام لتنظيم الحياة الإجتماعية داخل الواحات وتمثل حاليا موروثا ثقافيا ثمينا حافظت عليه عبر هذه المؤسسات الدينية و التقليدية وبعض العائلات.

عبد الكريم المغيلى في توات

يعود نسب عبد الكريم المغيلى إلى قبيلة مغيلة بأحواز تلمسان. ولد وعاش في تلمسان التي كانت تمر بفترة اضطرابات سياسية خطيرة إبان مطلع القرن التاسع الهجري موافق للخامس عشر الميلادي.

(186) - نفس المرجع ص/186

(187) -نفس المرجع ص/18.

حفظ القرآن الكريم في صغره ودرس العلوم العربية الإسلامية واللغوية والعقاية أولا ثم انتقل إلى واحة بوعلي الهني وأسس هناك زاويته الدينية، وكانت أوضاع واحات توات في عهد المغيلي عبارة عن إمارات صحراوية صغيرة يسيطر على أنظمتها السياسية كبار الأغنياء وذوو الجاه و النفوذ الديني والاقتصادي، وكانت توجد تجارة صحراوية هامة لها علاقة وثيقة بواحات توات[188] ومعظم مناطق السودان الغربي. ووجد المغيلي في توات جالية يهودية تمتاز بثرائها الكبير وقد سهل لها ذلك نظام الربا غير المحرم في اليهودية والتي قامت (بتنمية تجارة غير مشروعة عن طريق إستغلال الضعفاء وإحتكار الأموال وسلع التجارة وبضائعها)، وهاجر هؤلاء اليهود من الأندلس، وبعضها هاجر من سجلماسة وواد غير، ويرى المغيلي (والله أعلم) أنها طغت و تجبرت على الأهالي[189]. ولكن لايذكر بالتفصيل كيفية هذا الطغيان اليهودي على أهل التوات ولا الأساليب المتخدة في هذا الشأن...!

ويعتقد لدى المغيلي أناليهود التجار أنهم إستغلوا سذاجة أهالي توات وطبيعتهم لتحقيق الأرباح الفاحشة...!

ويرى المغيلي أنه بفضل نفوذ اليهود المالي تحكموا في القادة الساسة وتسلطوا عليهم. ولاشك أن بعض أمراء وزعماء الأسر الغنية في تمنطيط كان لهم دخل في السيطرة السياسية لليهود.

ومن أغرب الأمور التي كشف المغيلي الغطاء عنها في تمنطيط وجود يهودي متنكر في زي إمام مسلم أم المسلمين طيلة أربعين عاما وعند فضح أمره على يد المغيلي هم اليهودي بالفرار فلاحقه المغيلي وتولى قتله بنفسه[190].

وعلاوة على هذا قام يهود تمنطيط ببناء بيعة كبيرة لهم فخمة وبنوا بيعا أخرى في واحات توات التي يوجدون فيها وكأن تلك البلاد مملكة لهم، وإعتبر المغيلي هذا العمل مساسا بشعور المسلمين.

عارض قاضي توات أبا عبيد الله العضوني دعوة المغيلي ضد يهود تمنطيط ووقف ضدها واستنكر على المغيلي إتجاهه. بتلمسان عارضة مفتيها ابن زكري، والقاضي أبو زكرياء يحيى بن أبي البركات، وعبد الرحمن بن سبع وعارض دعوة المغيلي ضد اليهود بفاس مفتيها أبو مهدي الماواسي[191] وممن أيد المغيلي ضد يهود تمنطيط الشيخ السنوسي التلمساني.

---

(188) -أنظر يحيى بوعزيز تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية ص/73 دار هومة.

(189) - نفس المرجع ص/73

(190) - نفس المرجع ص /73

(191) -نفس المرجع يحيى بوعزيز ص/74

وزاد تأييد المؤيدين للمغيلى حماسا، فجمع أصحابه وأنصاره وطلب منهم حمل المعاول و الفؤوس وذهبوا معه لهدم بيعة اليهود فلبوا دعوته وخربوا بيعة تمنطيط وهدموها عن آخرها كما هدموا[192] البيع الموجودة في الواحات الأخرى، وذلك في حدود عام 1482م، ووعد كل من يقتل يهوديا معارضا بإعطائه سبعة مثاقيل ذهبية، وغضب اليهود وحقدوا عليه، وصاروا لايسلمون عليه وعلى أصحابه عندما يمرون عليه وأطلقوا اليهود الإشاعة فهاجم مناصر للمغيلى يدعى مبروك بن أحمد جمعا من عنصري معادي لليهود كعنصر سامي يجمعهم بالعرب قرابة دم. ورغم الفارق الديني الذي يفرق العربي عن اليهودي هو معلوم فقهيا بما يسمى معاهدة الأمان أي معاهدة أهل الذمة التي بموجبها يحرم على المسلمين القيام بتخريب معابد أهل الذمة بما في ذلك اليهود. وهذا يعد خرقا مفضوحا يقوم به المغيلى سامحه الله. وهذا السبب الذي جعل كثير من فقهاء بلاد المغرب يستنكرون فعله المغيلي ضد يهود توات.

وبعد أحداث توات وتمنطيط انتقل المغيلى إلى بلاد الهوسة والتكرر في غرب إفريقيا وبلاد التكرور وهي فولتا العليا اليوم.

وتمتاز منطقة أدرار وجهة توات بتنوع تراثها الفلكلوري الموسيقي لأن واحات توات كان لها تاريخ ثري أنتجته الأجناس التي إستوطنت فيها فإنبثق عن ذلك تراثا غنائيا ثريا ومتنوعا بألحان جميلة ورقصات شعبية وطبوع مختلفة ومن ألوان الطبوع الفلكلورية الموجودة رقصة البارود وهي منتشرة ولها شعبية بأدرار تتشكل من مجموعة من الراقصين الحاملين للبنادق التقليدية.

أما رقصة الحضرة فهي دينية مصحوبة بمدائح تخليدا لشيخ الطريقة يصطف الراقصون وجها لوجه مشكلين صفين متقابلين ضمن كوريغرافيا تتناسق فيها الإقاعات مع المدائح.

أما أهليل فهي أغاني زناتية منتشرة عبر كل منطقة قورارة وهي التعبير الفني أكثر إنتشارا والأكثر ذوقا وإيقاعا في الجنوب الجزائري. هي بمثابة إنبداد وأهليل "أحضور" الرقصة وقوفا في الهواء الطلق وأهليل "تاقريت" يؤدونها جلوسا داخل المنازل[193] مستعملين آلة صغيرة مصنوعة من جلد الماعز البنقري وحجزا للإيقاع. وقد صنف أهليل كتراث عالمي من طرق اليونسكو[194].

---

(192) - نفس المرجع ص/ 78.

(193) - من منشورات ولاية ادرار/ ادرار جوهرة الجنوب مدن وثقافة نشر ولاية ادرار 2007

(194) - نفس المرجع ص/ 13

ومن تراث أدرار رقصة قرقابو، وهي رقصة العبيد القدامى، وهي تمثل إرثا ثقافيا ذو قيمة كبيرة و القرقابو نتاج الإحتكاك مع إفريقيا السوداء وموسيقاه تستمد أصولها من السودان وكان يؤدى قديما بالبامبا لغة الساحل ولكن جرى تعريبه[195].

أما الركبية فهي رقصة مختلفة عرفتها بعض القصور الغربية لولاية أدرار. مثل بودة، وتسابيت، بتأثير من أهل شمال غرب الصحراء حيث إحتفظت بالإيقاع القديم لدى البدو.

كما تعرف منطقة القصور أشكالا تعبيرية أخرى مثل إيشو، وتويزة، وعاشور، وبوهرس، ولمحارزية و التميديل، وتاسكيحت، والزمار، والدوية، وحضروح، ورسام العابد[196].

أما رقصة صارة فهي رقصة العصي الملاقية بطريقة إيقاعية في القديم كانت تؤدى بالسيوف وتهم خاصة فئة الشباب، وتتطلب جهدا عضليا وإتقان في الأداء[197].

***

غرداية وقصور وادي ميزاب

تقع غرداية وسط شمال الصحراء الجزائرية، وهذه المدينة عاصمة ولاية تتربع على مساحة كبيرة تقدر بـ86105 كلم^2، وتضم حوالي أزيد من 334754 نسمة وهذا حسب إحصائية 2003.

وتوسعت ولاية غرداية فأصبحت تشمل مدنا هي غرداية، وبنورة، والعطف، وضاية بن ضحوة، وبريان، والقرارة، ومتليلي، وزلفانة وهي مشهورة بجمالها المعدني، وحاسي لفحل، ومنصورة، وسبسب، والمنيعة، وحاسي قارة.

توجد في ناحية غرداية آثار نقوش حجرية تعود إلى ما قبل التاريخ هو ما يعرف بالعصر الحجري الحديث 8000 ق.م وتتمثل في آثار مومو، وأنتيسة ببني يزقن، وبابا السعد ومرماد بغرداية والمنيعة.

أما في العصر الإسلامي فنلاحظ أن الإباضيين من بقايا الدولة الرستمية التي جعلت من تيهرت عاصمة سياسية وحضارية لهم، و لجأوا إلى سهل وادي ميزاب هروبا

---

(195) - نفس المرجع ص/13

(196) -نفس المرجع ص/13

(197) - نفس المرجع ص13

من التسلط و نير عبيد الله الشيعي الذي حاربهم فأنشأ الإباضيون أو قل الميزابيون عدة تجمعات سكنية على شكل قصور إندثر معظمها، ولكن هناك قصور بقيت محتفظة بأطلالها مثل قصر تلزضيت (العطف)، وقصر أولاوال(واحة العطف)، وقصر أغرم ن وادي (مليكة)، وأغرم ن بابا السعد(غرداية)، وقصر موركي(بني يزقن)، وقصر المنيعة، وقصر الغابة بن ضحوة المندثرين وكذلك قصر المبرتخ بالقرارة.

وإنطلقت حركة عمرانية متواصلة بالفعل، ولاسيما إبتداءا من القرن الخامس الهجري الموافق لـ 11م وأنشأت مدن على شكل قصور عبر كامل وادي ميزاب على إمتداد قرون متعاقبة.

والقصور العتيقة هي عبارة عن نواة لمدن قائمة في سهل وادي ميزاب، وإعتمد في تصميمها على قواعد عمرانية محكمة، وتتميز بالجانب الدفاعي من خلال موقعها على قمة الهضبة، وتلبي تطلعات السكان من الناحية الدينية و الإجتماعية و الإقتصادية، و اعتمد في تعميمها على الجانبين المناخي و الطبوغرافي[198] من خلال أزقتها الضيقة الجميلة الوديعة وبداخل القصر آبار تقليدية حفرت في أعماق الصخور لضمان المورد المائي الضروري للسكان[199] وتتكون قصور مدن ولاية غرداية الذي كما أسلفت كانت هذه القصور النواة الأولى لتأسيس مدن صغيرة في سهل وادي ميزاب الذي يعود تاريخ نشأتها إبتداءا من القرن الحادي عشر الميلادي منها قصر العطف الذي أنشأ في 1012م وقصر بنورة في 1046م وقصر غرداية الذي أنشأ في 1053م وقصر بني يزقن الذي أسس في 1353م وقصر مليكة أسس في 1355م وقصر القرارة أسس في 1630م وقصر متليلي أسس في القرن 14م. مع العلم أن هذه القصور تبدو موجدة في شكلها متجانسة في ألوانها[200].

ويميز المدينة الميزابية المسجد الجامع الذي أقيم في أعلى نقطة من القصر، وله هندسة معمارية فريدة وبمئذنة هرمية الشكل ويطبع الجامع البساطة التي تؤدي إلى خشوع المصلي داخل المسجد.

وتوجد كثير من المصليات الجنائزية داخل المقابر تقام فيها شعائر دينية موسمية منها مصلى الشيخ سيدي إبراهيم[201] بالعطف.

(198) - انظر مطبوعة عبارة عن نشرية عن ولاية غرداية المشهد الثقافي ص/7 (إعداد مديرية الثقافة مع ديوان ولاية غرداية) حماية سهل وادي ميزاب وترقيته 2007 بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية

(199) - نفس المرجع ص/8

(200)- نفس المرجع (مطبوعة ولاية غرداية المشهد الثقافي)

(201)- ورد في منشوره ولاية غرداية المرجع السابق في ص/13، الشيخ سيدي إبراهيم الهم المعماري الشهير لوكربوزيه بناء كنيسة "رونشام" المشهورة في منطقة لي فوج" الفرنسية

ويتكون المسكن التقليدي في المدينة الميزابية بما في ذلك مدينة غرداية نسيق عمراني محكم داخل كل قصر من خلال وحدة مظهرها و هو يتكون من طابقين وينفتح إلى الخارج بفتحة واسعة مركزية للإستفادة من الهواء والإضاءة.

وأنشأت في كل قصر فضاءات للمبادلات التجارية تتمثل في ساحة السوق و التي تعتبر مركزا للحياة الحضارية، ولا يزال سوق غرداية وسوق بني يزقن محافظين على طريقة الدلالة وهي تعني البيع بالمزاد العلني ويكون في موقع قريب من مخرج المدينة يسهل بذلك العمليات التجارية.

وأنشأت واحات غناءة بكل قصر، لإستغلال مواردها والزراعية من تمور وفواكه وثمار، كما تستغل أيضا للإستجمام في فصل الصيف، و الإستفادة من خلال نخيلها ومياهها العذبة التي تسقى من الأبار التقليدية و التي بدورها تتغذى من مياه سيول الأمطار عبر السواقي و السدود التقليدية عبر النظام التقليدي لتقسيم المياه، الذي يعتمد على التوزيع المحكم لمياه سيول الأمطار، والذي يبرز الخبرة الكبيرة و الدراية الفائقة للبناة القدامىوالمتمثل في هيئة "أمناء السيل".

الدولة الرستمية

بدأت الدولة الرستمية بعبد الرحمن بن رستم 144هـ -168هـ وإختتمت باليقضان بن أبي اليقضان (294هـ -299هـ) وبويع هذا الأمير بعد مقتل أخيه أبي حاتم، ولم يتمتع بالملك طويلا حيث عمت الفتن السياسية وزحفت عليه جيوش الشيعة الفاطميين في عام 296م فقتلته طائفة من أفراد أسرته، وبقتله إنقرضت هذه الدولة من تيهرت وإلتجأ باقي أفرادها إلى الصحراء[202] وفيها جعل وادي ميزاب حيث أسسوا قصورا كانت بمثابة نواة من غرداية و العطف ومليكة وبونورة وغيرها. وبعد وصف إمارة الرستمية شيعتها، وإشتداد روح العصبية في قبائلها، وتمكن الخلافات المذهبية من رعاياها فقد كان فيها أباضية وصفرية وسنية وغيرها.

تسمية الخوارج

أما أكثر أوائل المؤرخين سواء تبعا للشيعة أو للأمويين هم الذين أطلقوا كلمة الخوارج على الخصم المشترك للأمويين و الشيعة أطلقوها على تلك الطائفة من المسلمين التي إعتزلت عليا عند التحكيم وبايعت عبد الله بن وهب الراسبي إماما.

(202)- انظر رابح بونار "المغرب العربي تاريخه و ثقافته" ص/38، نشر موسسة الوطنية للكتاب - الجزائر 1981.

ورأي الإباضية الصريح في الخوارج، وهو يتلاقى مع رأي الجمهور في التسمية، ويختلف في التعليل، فالأزارقة خوارج، لأنهم أخطأوا تأويل آيات الكتاب منها زلة الخوارج نافع الأزرق وذويه[203] حين تأولوا قول الله تعالى "وإن أطعتموهم إنكم لمشركون" فأثبتوا الشرك لأهل التوحيد حين أتوا من المعاصي ما أتوا ولو أصغرها.

قلت أن الأزارقة خوارج، لأنهم أخطأوا تأويل آيات الكتاب، وأدى عملهم بهذا الخطأ رد آيات، وإبطال أحكام. إن رأي الإباضية لا يقيم أي وزن للناحية الثورية في إطلاق كلمة خوارج، ولكنهم يعللونها التعليل الديني المعقول، فكلمة خوارج لا تطلق إلى على أولئك الذين خرجوا من الدين، أما الخروج عن إمام و الثورة عليه مهما كانت أسباب ذلك الخروج لا يمكن أن يعتبر خروجا من الدين ومروقا من الإسلام[204].

ولما ظهر من الخوارج القول إباحة الدم والمال بالذنب، أعلن الإباضية البراءة منهم، ويؤكد ذلك ابن أباض في رسالته بأنه براء إلى الله من إبن الأزرق وصينعه وأتباعه.

لقد كان حين خرج على الإسلام فيما ظهر لنا ولكنه أحدث وإرتد وكفر بعد أسلامه فتبرأ من الله منهم. ويرفض الإباضية أن ينسبوا إلى عبد الله بن إباض لأنه لم يكن إمامهم الحقيقي ومؤسس دعوتهم وإن كان من علمائهم[205]، وكان صحابيا مات قبل 100هـ الموافق 718م.

وهناك من يرى أن الأمويين هم الذين أطلقوا عليهم إسم الإباضية نسبة إلى عبد الله بن إباض. بينما يعتبر الإباضية إن جابر بن زيد الأزدي إمامهم ومؤسس مذهبهم وأن ابن إباض لم يكن إلا واحدا من أتباعه[206].

وقد عاش جابر الأزدي ما بين 18هـ - 22هـ - 93هـ/639م - 642م - 711م وقد ولد بمدينة نزوى بلاد عمان وعاش في البصرة بالعراق.

نظام العزابة

العزابة هو نظام البديل عن قيام الدولة الإباضية، ولما كان الشيخ وتلاميذه يجتمعون في مكان سري بعيد هيئة العزابة وبعد ذلك أطلقت العبارة على عدد محدود من المشايخ لهم السلطة الكاملة على تلاميذهم و على بقية الإباضية في مناطقهم.

---

(203)- انظر علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ - مكتبة وهبة(القاهرة 1964).

(204)- نفس المرجع ص/34-35

(205)- انظر اطفيش، محمد بن يوسف: رسالة شافية في بعض التواريخ ص/49

(206) - انظر د. عبد الرحمن عثمان حجازي، تطور الفكر التربوي الإباضي في شمال إفريقيا ص/13

وإستعملت لفظة الغرابي لقبا لكل من لازم الطريق وطلب العلم وسير أهل الخير وحافظ عليها وعمل بها، فإن جمع هذه الصفات تسمي عزابيا.

إن هيئة العزابة هي الهيئة العليا في المجتمع الإباضي فهي الهيئة الشرعية الحاكمة القائمة مقام الإمامة، وتتألف هيئة العزابة من أعضاء يتراوح عددهم بين عشرة أعضاء وستة عشر عضوا حسب حجم المدينة أو البلدة أو القرية ويتصرفون وفق مجلس واحد يجمعهم ولهم جلسة أسبوعية معينة يلتقون فيها للدرس و التشاور وإتخاذ القرارت التوصيات.

أما مهام هيئة العزابة كما يلي :

أولا شيخ العزابة ويكون أعلم أهل المدينة أو القرية ويمتاز بقوة الشخصية والقدرة على حل المشاكل و يتولى الوعظ والإرشاد، وتبليغ إعلانات العزابة إلى العامة. ويمثل شيخ العزابة سلطة الإمام العادل في المجتمع الإباضي. ويبقى في منصبه مدى الحياة[207] وهو مقيد بمجلس الشورى الذي لا يحق له أن يصدر رأيا قبل موافقته، ويستعين بشخص يقوم مقام المفتي ويعمل مع شيخ العزابة مستشارون لا يقطع أمرا دون موافقتهم، والإمام، والمؤذن ووكلاء الأوقاف، ويعمل معه المعلمون ومهمتهم وضع برامج التعليم وتنظيم الدراسة و مراقبة التلاميذ في دور التعليم أو في الأقسام الداخلية.

وتطورت مهام العزابة إلى الشؤون الدينية[208] منها الوظائف الدينية للقاضي الذي يجب أن يكون مثاليا ومنصفا، ومن الوظائف الأخرى وجود الإمام التقي علاوة على دور ناظر الأوقاف وغسلة الأموات.

ويحرص مجلس العزابة على تنظيم العلاقات الإجتماعية التي تربط بين أفراد المجتمع.

وولج مجلس العزابة في نسيج المجتمع الإباضي، وغدا العمود الفقري لكل المظاهر الإجتماعية فهم الذين يتصدرون الحفلات و المناسبات ويرأسون حفلات ويشيعون الميت ويحضرون دفنه و يختلطون بالعامة في أتراحها، ويشرفون على تنفيذ وصايا الأموات وتقسيم تركاتهم بين مستحقيها. ويستعين مجلس العزابة بمجلس العشائر على جمع الزكاة من الأغنياء وتوزيعها على مستحقيها.

---

(207) - نفس المرجع ص/150

(208)- نفس المرجع ص/152

ويتدخل مجلس العزابة في التنظيم الإقتصادي للمجتمع عن طريق مراقبة البيع والشراء، ومحاربة الإنحراف في التعامل التجاري والإشراف يوميا على عملية الذبح والسلخ[209]، ومجلس العزابة يشرف على التعليم وتهيئة الوسائل وتسيير السبل أمام جميع الأطفال لينالوا قسطا من الدراسة وتسيير السبل أمام جميع الأطفال لينالوا قسطا من الدراسة ويتعلموا جزءا من القرآن الكريم[210].

أوجدت مجالس العزابة في المناطق الإباضية نظاما تعليميا إباضيا خاصا بمدارسهم تتسم بالصرامة ويتجلى هذا التنظيم في الهيئة الإدارية و التعليمية في المدارس التي أنشأتها مجالس العزابة من شيخ العزابة أو مستتابه وهو بمثابة رئيس مجلس العزابة، و المسؤول الإداري عن التعليم في مدارس العزابة ويتولى تعيين العرفاء وتحديد مهامهم وفضلهم، وتقرير المناهج الدراسية للطبقات العليا من التلاميذ. ويعقد الندوات الثقافية لطلبة الصفوف الدراسية العليا في وقت معلوم، ويجتمع مع تلاميذ المدرسة مرتين في الأسبوع يوم الإثنين و الخميس.

الصناعة التقليدية في سهل وادي ميزاب

يقوم الميزابيون بنسج الزرابي التقليدية و الألبسة الصوفية المختلفة كالقندورة والفيلة و الخمري مع العلم أن الزربية الميزابية تمتاز بشكلها المميز وتتجلى الصناعة التقليدية أيضا في النقش على النحاس والنقش على الخشب وصناعة الجلود وصناعة الفخار وتصنع بعض الأعمال من سعف النخيل و الدوم.

وتنظم مدينة غرداية عاصمة الولاية معرضا وطنيا لإستعراض الزرابي بأنواعها وبعض المنتوجات التقليدية في شهر مارس من كل عام.

ومن اللأطباق التقليدية في غرداية وعلى العموم في المدن السبع بوادي ميزاب هي الكسكس بالتمر والخضر واللحم وديول بالسمن والسكر، بتوابل وأعشاب محلية ونجد أيضا كسكس محلي بزيت الزيتون.

ومن الأطباق المشهورة الفول الطازج و الرفيس بالسمن و البيض، وأيضا الكعبوش بالطحين المقلي و التمر و السمن. ولا تنسى ذكر "تاكروايت" وهو مشروب محلي يقدم للعروسان من أقطاب علماء إباضية المغرب العربي في العصر الحديث الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش عاش مابين 1821-1914 كان غزير المادة طويل النفس يقال أنه ألف ثلاثمائة كتاب ورسالة. منها تأليفه كتاب تسيير التفسير و كتاب الرسالة الشافية في بعض تواريخ وادي ميزاب.

(209)- نفس المرجع ص/156

(210)- نفس المرجع ص/156

ومن أعلام بني ميزاب الشيخ ابو اليقضان إبراهيم 1888-1973 أصدر في مدة 12 عاما ثمان جرائد وطنية منها جريدة المغرب وجريدة الفرقان و البستان...إلخ.

ومن أعلام غرداية الشيخ سيدي أحمد بن الحرمة 1835-1924 و الشيخ حمو بن محمد عيسى النوري و المؤرخ الشيخ علي دبوز ومن آثار تاريخ المغرب العربي الكبير في ثلاثة أجزاء. ومن شعراء بني ميزاب الذي ذاع صيتهم المشرق و المغرب والعالم شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا واضع نشيد قسما و إليادة الجزائر وكان معارضا لحكم هواري بومدين فمات في تونس في 17 أوت 1977م رحمه الله وهو من مواليد مدينة بني يزقن في 1908م.

ومن أبناء وادي ميزاب شاعر الوطنية رمضان حمود (1906-1929) وهو من رواد الأدب الجزائري في الشعر و النثر وكان يكتب الصحف الوطنية مثل الشهاب ووادي ميزاب.

أما السيدة مامة سليمان المولودة بتاريخ 1836م كانت إمرأة متعبدة وتأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر وكونت حلقة المرشدات وترأسها، وقررت مع إخوتها إصدار أوامر بمقاطعة كل ما يتصل بالفرنسيين من لباس ومواد وغيرها. وتوفيت في 18 فيفري 1931م.

ومن أبناء غرداية الشيخ شريف بكار بن إسماعيل و الشاعر صالح خرفي 1932-1998 وهو من مدينة القرارة درس في الزيتونة و المدرسة الخلدونية وعمل أستاذا للأدب الجزائري في جامعة الجزائر وشارك في تأسيس إتحاد الكتاب من أعماله ديوان صرخة الجزائر الثائرة، وأنت ليلاي، ومن أعماق الصحراء.

ومن الشباب المثقف الذي أبلى بلاء حسنا في ترميم المعالم الأثرية ببلاد وادي ميزاب صديقي المهندس زهير بلالو رئيس وكالة ترميم معالم الآثار بغرداية والذي قام بجهود معتبرة من أجل إعادة تهيئة تطور بني ميزاب بما في ذلك غرداية ومليكة والعطف وغيرها فالله في عونه والحق يقال أن هناك تنظيما عمرانيا راقيا في بلاد غرداية حتى أصبحت مدن غرداية السبع قدوة ومضرب المثل في الحفاظ على المعالم التارخية وبناء منازل جديدة خارج المدن التارخية الميزابية حسب الطابع القديم مما جنب فوضى العمران الذي تعيشه المدن الجزائرية في شمال الوطن ويا أسفاه

اليزي وتاسيلي ناجر

إن مدينة اليزي عاصمة ولاية تتكون من طاقات مختلفة ولاسيما تراثها الثقافي والطبيعي مما جعلها قطبا سياحيا، وفي شمال اليزي توجد مدينة الدبداب المحاذية للحدود الليبية وعين أم الناس، وبرج عمر إدريس، ويوجد في هذه المنطقة الشمالية آبار البترول و الغاز مما سمح بتطوير قطاع المحروقات في هذه المنطقة مما أدى إلى إنتعاش إقتصادي ووفر مناصب شغل ودفع بعجلة التنمية فيها.

وولاية اليزي تتوفر على ثروة حيوانية معتبرة منها 20140 رأس من الإبل و19300 رأس من الغنم، و 26950 رأس من الماعز.

وتتوفر منطقة إليزي على مواقع سياحية متنوعة منها القلتات وشلالات ومناظر طبيعية ومواقع رملية خلابة، ومواقع أثرية ونقوش ورسومات جدارية ومعالم جنائزية، كما يوجد بها معالم أثرية لسكان تاسيلي تتمثل في الهندسة المعمارية الفذة التي بنيت بها قصور مدينة جانت العريقة و الواحات مثل واحة تماجرت و العرهار وإهدير.

إن الحياة في أنظمة بيئة التاسيلي بسيطة كثيرا. وبسبب قساوة مناخها المتميز بالجفاف لم يسمح بالعيش إلا لكائنات حية محدودة إستطاعت أن تتكيف وتقاوم الوسط الطبيعي.

والوسط البيئي الموجود يمتاز بتشكيلة "نباتية" وحيوانية خاصة وهذا بفعل الموقع الجغرافي و التركيبة الجيولوجية والمناخ الخاص.

وعانت هذه التركيبة النباتية والحيوانية تغيرات عبر الحقب الزمنية الجيولوجية منها فترات رطبة وأخرى جافة تسببت في إنقراض بعض أنواع النباتات المتوسطية ولم يبق منها سوى شواهد قليلة وبعض السلالات الحيوانية يشهد على وجودها نقوش ورسومات صخرية مثل وحيد القرن و الفيل و الزرافة. كما أدت الظروف الجديدة المتميزة بالجفاف إلى ظهور أنواع أخرى متكيفة مع قساوة الوسط.

إن التشكيلة النباتية الحالية لمنطقة التاسيلي تنتمي إلى المنطقة النباتية المسماة الصحراوية العربية الخاصة بالصحراء الإفريقية علاوة على العناصر المتوسطية والإستوائية.

الحظيرة الوطنية للتاسيلي

وأهم ما يميز المنطقة بأكملها هي الحظيرة الوطنية للتاسيلي. وتقع في الصحراء الوسطى بأقصى الجنوب الشرقي الجزائري على بعد2000 كلم من سواحل البحر المتوسط، وتقدر مساحتها بحوالي 80.000 كلم^2.

وأهم الأنواع النباتية الموجودة في التاسيلي هي التي تشكل شواهد لظروف مناخية مختلفة منها شجرة سرو التاسيلي (التاروت)، وشجرة الريحان(تفلتاست)، وشجرة زيتون التاسيلي (أليو)، وشجيرة الخزامة (إيجيه).

وتوجد أنواع نباتية إستوائية شاهد على أنواع نيباتية كانت أكثر إنتشارا منها: شجرة تايست (تبورق)، وشجرة ترهي (أكرنكة)، وشجرة السواك (آراك)،(تبهق).

والتاسيلي تعني باللغة البربرية المحلية هضبة وأزجر نسبة إلى القبيلة التي تقطن بها. وتأسست حظيرة التاسيلي في 1972م كمعلم تاريخي ونظرا لثرائها الثقافي صنفت تراثا عالميا في عام 1982م من طرف اليونيسكو. وصنفت كمحمية طبيعية في سنة 1986م من طرف شبكة الإنسان و المحيط من أجل تنوعها البيولوجي وهشاشة أنظمتها البيئية الطبيعية.

ساعدت الظروف الطبيعية الرطبة الخاصة على قيام الإنسان البدائي من أجل الإستقرار في منطقة تاسيلي على ضفاف الأنهار والأودية التي جفت حاليا، وذلك خلال أكثر من مليونين ونصف مليون سنة. يمثل هذا الإنسان الحامل لأولى الثقافات: حضارة الحصى المشظاة، و الحضارة الأولدوانية.

ثم ظهرت فيما بعد حضارة حديثة في منطقة تاسيلي وهي الحضارة الأشولية التي تعود إلى مائة ألف عام وتتمثل أدوات الإنسان في ذات الوجهين و الفؤوس اليدوية التي تنتمي إلى العصر الحجري القديم الأسفل و التي تنتمي إلى العصر الجيولوجي الرابع.

ويعود الفن الصخري إلى العصر الحجري الحديث الذي يمتد مابين 10.000 ق.م و5000 ق.م.

عبر الإنسان ماقبل التاريخ في التاسيلي ناجر بالعالم الذي يحيطه بواسطة النقش والرسم على الجدران وسقوف المخابئ في مواقع عديدة. وأقدم المشاهد هي التي تعبر عن صيد الحيوان مع أشكال هندسية ورمزية ويعكس هذا الفن في مرحلة متقدمة إنجاز أحرف ذات مدلول لفظي أو صوتي، والتي ترمز إلى الكتابة اللوبية البربرية.

وإبتداءا من الألفية الخامسة ق.م عرفت منطقة تاسيلي إنتشار واسع للمعالم الجنائزية التي ترمز مختلف الطقوس و العادات التي تعود إلى فجر التاريخ.

وفي حظيرة التاسيلي هناك مواقع أثرية لها صفة عالمية ففي موقع صفار يوجد الفن الصخري الذي يمثل مرحلة البقريات في مشاهد متنوعة لرسومات ونقوش صخرية تمثل مشاهد الحياة اليومية ومشاهد العبيد، وشخصيات رماة السهام مع رسوم للمرأة وقطعان الأبقار والفيل والزرافة و الضبي.

وفي موقع تاست تبرز مرحلة الحصان من خلال رسومات ونقوش صخرية مع عربات تجرها الخيول. وفي موقع تماجرت نلاحظ ظهور الجمل الذي يبرز من خلال نقوش ورسومات صخرية إلى جانب كتابة تيفيناغ وهي تمثل المرحلة الأخيرة للفن الصخري. إن كتابة تيفيناغ المنقوشة و المرسومة حدث هام وعظيم في تاريخ الفن الصخري وهي تعد من أقدم الكتابات على المستوى العالمي.

وفي موقع إسندبلان نسبة إلى وادي إسندبلان الذي يبعد عن مدينة جانت بـ 60 كلم وهو يمثل أجمل المواقع السياحية الطبيعية. وذلك نظرا لتنوع مناظره ومخزونه البيولوجي. ويعيش في هذه المنطقة حيوان أروي وفي منطقة أنهاف شمال غرب بلدية برج الحواس وهي تشمل سهوب مفتوحة ويوجد فيها أنواع حيوانات أشهرها الفهد(أمياس) وهو مصنف ضمن قائمة الإتحاد الدولي للمحافظة على الطبيعة كحيوان مهدد بالإنقراض.

أما منطقة تادرات فهي تقع في الجنوب الشرقي لمدينة جانت وهي ناحية غنية من حيث الثروات الطبيعية و الثقافية، كما تمتاز بمناظر خلابة. وتتميز بأراضي رعوية ذات تنوع بيولوجي هائل تعد مواطن لإنتشار الغزال لاسيما في المواقع المفتوحة حيث تنموا شجرة السنط و الغزال حيوان مجتر ينتمي إلى عائلة الحافريات وهذا الحيوان العاشب متاقلم كثيرا مع الظروف الصحراوية المتميزة بالجفاف وهذا بفضل إمتصاصه للمياه من خلال النباتات. ويعيش الغزال في وسط قطعان تقودها الأنثى الكبرى في أواسط طبيعية مختلفة وينتقل حسب توفر الكلأ ولكن في الزمن الحاضر أصبح منحصرا في مناطق محدودة وخطر الصيد المحظور يهدد وجوده بإستمرار.

وفي موقع أميهروا وهو أهم مصبات الأودية ويحتوي على ثروة طبيعية هامة ممثلة بوجود مجموعات كثيفة لأشجار الأثل ويوجد في ضواحي الوادي الرملي(إميهروا) حيوان ينتمي إلى الثديات الصغيرة وهو الفنك الذي يعيش في مجموعات عائلية داخل جحور يقوم بحفرها في الرمال كما يعين مسكنه بالبول لحماية مواطن إنتشاره.

ويتغذى هذا الحيوان المنتمي إلى عائلة الثديات الصغيرة وبعض القواضم الصغيرة و كذلك النباتات البرية.

وفي وادي تامريت توجد شجرة فريدة في العالم وهي سرو التاسيلي وهي شاهد على حقبة مناخية رطبة وساعد الإرتفاع ودرجة الحرارة المنخفظة ببقائها على مستوى هضبة تامريت المتميزة بالمخدرات.

وفي موقع أيجريو نسبة لوادي أيجريو الذي يتوسط القصور الثلاثة لمدينة جانت، وهو وادي رملي ينمو به شجرة الأثل ونبتة الشيح.

وفي موقع وادي ديدر توجد نبتة الدرين التي تكون علفا هاما لاسيما في فترات الجفاف حين يجف العشب. وفي التغذية تعد مصدر للحبوب الذي يصنع منه الخبز والحساء.

وفي موقع إبن جران توجد نبتة كف مريم وهي متأقلمة جدا مع الظروف المناخية القاسية، وهي مغطاة بأغصان على شكل يد كما أنها توفر علفا هاما لما تكون خضراء، ويا أسفاه أن هذه النبتة تتعرض للقطف المفرط من قبل السائحين رغم أن قانون حظيرة التاسيلي يمنع إلتقاط النباتات البرية.

***

مدينة تامنراست عاصمة الهقار

تامنرست هي عاصمة منطقة الأهقار وهو إقليم شاسع وإشتهرت هذه المدينة بكونها مركز كبير ورئيسيا للطوارق الذين طبعوا تاريخ والمدينة و المنطقة بأسرها وسوف نتحدث عنهم بأسهاب في مقامنا هذا و الأهقار إقليم شاسع يغطي مساحة تقدر بـ 375.000 كلم^2، وهوعبارة عن شبكة جبلية يحدها شمالا سهل تيدكلت والهضاب الصحراوية و التينيزي في الجنوب و التنزرفت في الغرب، وتستقر في وسطه جبال الأتاكور.

وتوجد آثار باقية لإنسان ما قبل التاريخ في الهقار ولم يحدد المؤرخون إلى غاية القرن الثامن عشر أصل الطوارق وتاريخهم بكل دقة، وما هو موجود من معطيات تاريخية حولهم ما هي الإفراضيات غير أكيدة.

وعبد الرحمن بن خلدون يذكر أن المنطقة الوسطى للصحراء[211] الموجودة بين المحيط الأطلسي وغدامس كان يقيم فيها ما قبل الإسلام الملثمون المنقسمون إلى قبائل ومعنى

أن الملثمين الذي يقصدهم إبن خلدون هم الطوارق ويشير الرحالة و المؤرخون في العصر الوسيط أن هؤلاء السكان كانوا رحلا، بعيدين عن التل والأراضي الزراعية بحيث يعوضون المواد الفلاحية بالحليب و الماشية من بعير وماعز.

ويروى أن الطوارق عندما وصلوا إلى الهقار للإستقرار به في الأزمنة الغابرة وجدوا البلاد عامرة بقوم يعرفون بالإسباتن نظامهم إجتماعي طائفي يربون الماعز ويسكنون أعالي الجبال لم يعرفوا الجمل إطلاقا، وحسب الروايات الشفوية كان من بين هذا الشعب أناس حادقون وماهرون. وحفظت الذاكرة الجماعية إسم أمامة وإبن أخته إلياس مؤسس في النحت والرسم الصخري.

ومما يجب ذكره وجود روايات شفوية عديدة متوارثة عبر الأجيال تتعلق بأصل كل قبائل الهقار تتمحور حول هجرة شخصية أسطورية[212] هي تين هينان الجديد، ثم نلاحظ فيما بعد تكون مختلف[213] القبائل الناجمة عن أحفاد هذه الشخصية.

ويعتقد الطوارق أن تين هينان سالف ذكرها شخصية تاريخية، فهي تعتبر السلف الأمومي لكل القبائل النبيلة و الملكة الأولى لمملكة الطوارق. أما الأسطورة في حد ذاتها حسب ما أوردها ليون لهرو ومفادها أن تين هينان عندما جاءت من تافيلالت إلى الهقار صحبة خادمتها الأمينة تاكمات و مجموعة من العبيد، كانت على متن ناقة بيضاء، وأخذت من بلاد البربر الثمار و الذرة البيضاء، إلى أن الطريق إلى الهقار طويل فقد مرت الأيام ولم تظهر نقطة الوصول، وبدء الطعام ينقص وإشتد الجوع بحيث أصبحت حياة قافلة تين هينان مهددة، ومن حسن الطالع أنهم شاهدوا كميات صغيرة من الحبوب التي خبأها بل خزنها النمل، وأسرعت تاكامات بمساعدة العبيد وجمعوا هذه الحبوب[214] وقدمت ما إلتقطته إلى سيدتها التي لم تنزل من على ظهر ناقتها كما يليق المقام بمكانتها، وما إلتقطوه من حبات القمح سمح للمجموعة متابعة الطريق والوصول إلى الهقار.

---

(211) - انظر دراسة عمق وثراء من تأليف ولاية تامنراست (الأسبوع الثقافي لولاية تمنراست بالجزائر) ص/10

(212) - نفس المرجع ص/11

(213) - نفس المرجع ص/11`

(214) - انظرأحمد السليماني تاريخ إفريقيا الثمانية القديمة ص11/10 مجلة الدراسات التاريخية - قسم التاريخ جامعة الجزائر

وبعد ذلك تزوجت تين هينان و تاكامات في الهقار وإستقرتا في أباليسا ليس بعيدا عن تامنراست عاصمة الهقار، ويقال والله أعلم أن تين هينان أنجبت بنتا وإنحدر منها(الكل غلا) النبلاء، أما تاكامات فأنجبت بنتين إنحدر عن الأولى (الدق غالي) عن الثانية (آيت لوين).

وقامت بعثة فرنسية أمريكية سنة 1925 تحت إشراف العالم الأنثوروجي ريقاس حيث تم[215] حفر ضريح الملكة تين هينان الموجود بأباليسة فوق تلة على إرتفاع 914م على بعد 80 كلم عن تمنراست وعثر بجانب القبر إحدى عشر غرفة. ونقل هيكل تين هينان وأثاثها الجنائزي إلى نيويورك للعرض في عام 1926 ثم إلى باريز في 1934، ووضع في الأخير بمتحف بارد بمدينة الجزائر.

ونعود إلى الطوارق وفروعهم فهم يتوزعون إلى سبع مجموعات هي طوارق الشمال من الصحراء منهم أولا كل الهقار، تمنراست (بالبلاد الجزائرية) ثانيا كل آزجر بالتاسيلي ناجر ويوجد جزء بمدينة جانت (الجزائر) وجزء بمدينة غات (بالجماهرية الليبية العضمى).

العنصر الثاني هم طوارق الجنوب ونعني بذلك طوارق الساحل منهم أولا كل آيير النيجر وثانيا كل قرس النيجر، ثالثا أولمدن جزء شمال غرب جمهورية النيجر وجزء شمال شرقي جمهورية مالي. ورابعا كل أداغ أو كل أدغاغ إيفوغاس شمال جمهورية مالي. خامسا طوارق منعطف مجرى وادي النيجر جنوب جمهورية مالي[216].

ويتألف مجتمع طوارق الكل أهقار من ثلاث قبائل نبيلة و كل قبيلة لها نطاقها الجغرافي ولها عشائر تابعة لها. منها قبيلة الكل غلا، يهتمنون على أكبر مساحة بأراضي الهقار(الأناكور). قبيلة تايطوق الذين يرتحلون في الأهنت والجنوب الغربي للهقار، وقبيلة التجهي ملت، وهي الاقل عددا يتمركزون في الجهة الشرقية للهقار وتتكون القبائل النبيلة من ثلاث طبقات هي :

- الإهقارن: النبلاء في أعلى الهرم.
- الإمغاد : أتباع القبائل النبيلة[217].
- الإكلان: العبيد أو الخدم وهم بمثابة القوة العاملة لكل النشاطات الإقتصادية للنبلاء.

بينما تضاف إلى التشكيلة الإجتماعية لطوارق الساحل طبقتين إثنين هما :

(215) - انظر دراسة ولاية تامنراست حول تمنراست و الهقارص/14 - إعداد دار الثقافة لولاية تامنراست 2007-
(216) - نفس المرجع ص/14
(217)- نفس المرجع ص/15

- الإنادن الحرفيون يحترفون صناعة الخشب و الجلود.
- الإنسلمن وهم رجال الدين[218].

وطبقة الإنادن ويقصد بهم الحرفيون الذين يحترفون صناعة الخشب والجلود. وحسب معلومات مؤكدة كما رواها الطوارق فإن طبقة الإنادن وهم الحرفيون فقد دخلوا إلى الأهقار أو الهقار للتخفيف حوالي عام 1850م إبان غزوة قام بها فرسان قبيلة الكل غلا قبائل الكل إيفوغاس(بشمال مالي) فسلبوا جماعة من الحرفيين بصفتهم عبيد من جملتهم ألمين الذي يعتبر عميد الحرفيين بالهقار وأب كل الحرفيين بالهقار.

أما فيما يتعلق بطبقة الشرفة فقد ظهرت هذه الفئة الإجتماعية في حوالي القرن الأول الهجري والثاني الهجري حيث حل المسلمون الفاتحون الذين جاءوا من جنوب المغرب لينشر الإسلام والقيام بدور الفقيه والقاضي ومن أجل تطبيق الشريعة الإسلامية وإلى غاية القرن التاسع عشر كان عددهم قليلا[219].

يعود الفضل في إنتشار الإسلام في بلاد الهقار والتاسيلي وإزدهاره إلى الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي صحبة زعيم قبيلة كدالة المير يحيى بن إبراهيم 430هـ - 1039م وكل للطوارق فضل تعميمه ونشره بجنوب الصحراء وجلب معه أساليب جديدة في رعاية الماشية وتكاثرها وصناعة الأسرجة وفنون العمارة والبناء و الألبسة والإدارة والتنظيم، وظهر أثر الإسلام في كل نواحي الحياة[220].

تتمتع المرأه الطارقية في المجتمع الطارقي بمكانة مرموقة حيث ينسب المولود الجديد إلى أمه في تحديد النسب و المكانة الإجتماعية، حيث لا يكون نبيلا إلا إذا كانت أمه نبيلة وهذا مهما كانت مكانة الوالد.. وطفل الطوارق يرث الجاه و الثروة عن طريق الأم وذلك بقطع النظر عما إذا كانت تنتمي إلى عشيرة أبيه أم لا... والعرف والتقاليد تمنح العروس الحق في أن تحتفظ لنفسها بمالها وبكل ما تملكه بما في ذلك الماشية، وذلك في الوقت الذي يتولى الرجل فيه الإنفاق عليها ويدفع تكاليف حفلة الزواج...، والمرأه هي الحافظة للذاكرة الجماعية بتربية الأطفال ورعايتهم وتعليم أبجديات لغة التماهك بحروف التيفيناغ.

والطارقي الملثم يعطي أهمية قصوى لأمرين هما إمرأتين، فالأولى هي أمه والمقصود بها والدته التي يفتخر بها و لابد أن يكون جديرا بأمومتها وما يتعلق برموز

(218)- نفس المرجع ص/15

(219)- نفس المرجع ص/15

(220)- نفس المرجع ص/16

الرجولة و الشهامة وهي راجعة في الأصل إلى حليب الثدي الذي جرى في أمعاءه أول وهلة، أما المرأة الثانية فهي زوجته التي تعتبرها في أولى الزواج أمه، وفي الليلة الثانية أخته، وفي الثالثة زوجته، فإن توترت علاقته بها كزوجة عاملها كأخت،

وإن فسدت علاقة الأخوة عاملها كأم، ولا تكاد علاقة تفسد بين أم وإبنها، كما لا يمكن لإبن أن يستغني على أمه وهكذا يدوم المعروف.

وفيما يتعلق بالنسب عند طوارق الهقار هناك مثل شعبي يخص النسب ويقول : بلاد أمك جذور وبلاد أبوك مفخرة . وبلغة تماهق : آكال أماك إيزروان آكال أن تيط إلشان.

وفيما يخص سلطان الطوارق المدعو الأمنوكال فقد تداول على هذا المنصب منذ 1755م إلى عام 2006م ما يعادل ستة عشر حاكما أو سلطانا إبتداءا من السلطان صالح الذي حكم في 1755م و السلطان الثاني (أمنوكال) سيدي مالك محمد الخير الذي حكم في 1755م وفي عام 1950م حكم أمنوكال باي أق أخموك إلى غاية عام 1-06-1975م[221] وإبتداءا من عام 1975م إلى عام 01-06-2005م كان أمنوكال أو سلطان الهقار هو الحاج موسى أق أخموك الذي كان عضوا في المجلس الشعبي الوطني وهو البرلمان الجزائري.

ولعدم إتفاق مختلف قبائل طوارق الهقار تم تعيين إثنان أمنوكال (أي أمين العقال) عام 1900م وحدث نفس الأمر عام 2006م بعد وفاة الأمنوكال الحاج موسى أخموك المشهور[222].

أما الأنتقال من البداوة إلى الإستقرار في منطقة الهقار فبررت مظاهره الأولى في حوالي 1855م حيث لجأ حاج أحمد أق حاج البكري بصفته خليفة الأمنوكال بجلب بعض المزارعين من توات (أدرار) لنشر الزراعة بادلس حتى يقضي على التبعية الغذائية للهقار، ومنذ ذلك الحين بدأت أولى مظاهر العيش الحضارية، وبهذا برز أول مشروع قرية مع وفرة الجو الملائم على إستقرار هذه الفئة التي وظفت خبرتها للشروع في بناء أولى المساكن المعروفة بالزربية إلى أن ظهرت المساكن المبنية بالحجارة و الطوب.

وبعد عامين قام حاج أحمد أق حاج البكري بتجديد التجربة في ناظروك فأحضر مزارعين إثنين من توات لتعليم خادمة كرزيكا تقنيات إنجاز الفقارات، وبهذا يكون الهقار شهد ميلاد[223] مورد إقتصادي جديد يدعم الإقتصاد التقليدي المبني على الرعي والصيد والمقايضات و جبايات المرور للقوافل المارة بالهقار إلى جانب غنائم الغزو[224].

(221)- نفس المرجع ص/16

(222)- نفس المرجع المشور المفصل تحت عنوان "عمق وثراء" لولاية تمنراست ص/17

(223)- نفس المرجع ص/17

(224)- نفس المرجع ص/20

وحسب زيارة للمكتشف فرنسي دفيري للأزجر عام 186 لاحظ وجود قريتين في الهقار هما أدلس وناظروك فقط(225).

هذا مع العلم أن تأسيس مدينة تمنراست فكان ذلك في مطلع القرن العشرين بحلول قوات المستعمر الفرنسي بعد معركة تيت في عام 1902م.

زفي بداية القرن العشرين كانت تمنراست عبارة عن قرية تتكون من عشرين خيمة وكوخافي سفح الجبل و في قلب الهقار لا غير.

الخيمة الطارقية

المرأة هي التي تقوم بصناعة الخيمة وتركيبها، بإعتماد جلود الماعز والغنم وفي حالات نادرة جلود العجول إلا أن الخيمة المصنوعة من جلد الموفلون تعتبر في قمة البذخ و الأناقة. والجلد يدبغ ويجهز بصفة خاصة ويكون ناعم الملمس وذو لون مائل إلى الحمرة. وبعد إعداده يقطع إلى قطع ملائمة ثم يخاط قطعة بأخرى بكل عناية من الجلد نفسه وعدد قطع الجلد الضرورية لصنع خيمة واحدة يتراوح ما بين 30 و150 قطعة، وذلك حسب حجم الخيمة وصغرها، والخيمة المتوسطة منتهية الصنع تزدن عادة ما بين 25 كلغ و30 كلغ(226).

وعند انتهاء من عمل المرأة في الخيمة، يقوم الرجال بتحضير الأعمدة لنصب الخيمة ويكون ذلك على أعمدة عمودية وأفقية من الخشب التي يقوم الرجل بتحضيرها وتزيينها بأشكال هندسية خاصة مستوحاة من ثقافة الطوارق

أعمدة الخيمة الطارقية

يجري تركيب الخيمة الطارقبة فوق ستة أعمدة خشبية عمودية بعلو يقدر بحوالي 1.50م، تغرس في الأرض بحوالي 20 سنتم، ولتحديد دور كل عمود يعرف العمودين في الوسط (تمنكيتن، مفرد تمنكايت) وتربط الأعمدة فيما بينها إثنين إثنين بثلاث جطبات مدورة أفقيا بإستعمال حبال مصنوعة من جلد الماعز وتثبت في المحيط إلى أوتاد صغيرة أو إلى حجارة.

---

(225)- نفس المرجع ص/20

(226)- نفس المرجع ص/24

واجهة الخيمة

أما واجهة الخيمة فتكون مفتوحة في جهة الجنوب الشرقي لتجتنب الشمس، الأطراف تربط في أعمدة عمودية تكون في مقدمة الخيمة تعرف بـ إركتن مفرد إركب[227] بالداخل تكون الخيمة محاطة بـ إسابر وهو عبارة عن حصيرة طويلة مستطيلة الشكل 80 سنتم على 6م أو 7م مصنوعة من سقان الأفزو "فصيلة التجليات" ويتطلب صناعته إسابر عمل إمرأتين مدة عام تقريبا، ويجب توفر ثلاثة إلى أربعة حصائر[228] لتأثيث الخيمة، إثنان بداخل الخيمة تغربل الريح، وإثنان في شكل دائري خارج الخيمة يشكلان فناء أو ساحة لضمان الحياة الخاصة للأسرة. كل واحد منهما المرأة و الرجل يصفف وينظم حاجاته الخاصة.

يتألف المخيم عادة من 5 إلى 6 خيام بينما مخيم الأمنوكال يحتوي على 15 إلى 20 خيمة. والوزن هو العدو الأول للرجل، مما جعل الطارقي يعتمد على أواني قليلة ومتعددة الخدمة وفي غالب الأحيان مصنوعة من الخشب كما يستعمل حقائب من الجلد.

مكانة اللثام عند الطارقي

هناك تقليد مشهور عند الطوارق وهو أن وضع اللثام المسمى تاقليموس، يجري عندهم بطريقة خاصة ولا يتزين به إلا طبقة النبلاء، حيث يغطون به وجوههم من أسفل العينين وحتى الجبهة و الأنف ولا يترك اللثام إلا جزءا ضيقا جدا للعينين وقسما صغيرا من الإنف، وهي كل الأجزاء الوحيدة التي يمكن أن يراها الإنسان من وجه الطارقي.

والقماش المستعمل في نسج اللثام من نوعية خاصة و لا يشرع الطارقي في وضع اللثام إلا عند بلوغ الخامسة و العشرين من عمره، وفي هذه المناسبة تجري إحتفالات طقوسية لوضع اللثام أول مرة ويقال لا يصبح الرجل طاهرا و تقيا إلا إذا لبس اللثام. لا ينزع الطارقي قديما اللثام ليل نهار و لا يسمح إطلاقا لأحد بالإطلاع على وجهه بتاتا وحتى لأهله أو زوجته.

وعند تناول الطعام أو شرب الشاي يرفع القسم الأسفل من اللثام الذي يسمى(إيماوال) ليأكل برفع يده إلى فمه، ثم إذا إحتاج فيما بعد إلى ربط اللثام فإنه يتنحى جانبا ليخفي ملامح وجهه حتى على أفراد أسرته، ورغم هذا فالطوارق يعرفون بعضهم بعضا بسهولة.

---

(227)- نفس المرجع ص/26

(228)-نفس المرجع ص/26

مكانة الصناعة التقليدية و الحرف عند الطوارق

في عهد سيد أحمد البكري حوالي عام 1850م، قام فرسان قبيلة كل غلة النبيلة بغزوة على قبيلة كل إيفوغاس شمالي مالي وخطفوا مجموعة من العبيد، كان من ضمنهم السيد ألمين و أربعة و أربعين حرفي وقام السيد ألمين بالتفاوض مع الأمنوكال على أساس أنه ليس عبدا بل حرفي، ونظر إلى حاجة مجتمع الهقار لهذه الفئة وإمكانية مساهمتها في تحقيق الأكتفاء الذاتي وتضييع وسائل الحرب محليا وفضل ألمين البقاء ورفض العودة إلى أهله فأقام في مخيم الأمنوكال و أصبح زعيم الإنادن ومعناه الحرفيين، وبعد ذلك دخلت هذه الفئة في التركيبة الإجتماعية لأهل الهقار وحافظت على خصوصياتها بالزواج بين أعضاء هذه الفئة.

وإختص الرجل بصناعة كل ماله علاقة بالمعادن و الخشب، بينما إختصت المرأة بصناعة الجلود.

وأهم الحلي التي يصنعها حرفي الهقار تيساك وهو خاتم من الفضة وتيزاباتين وهي أقراط الأذن دائرية الشكل، وتازاوت مثلث كبير من الفضة يوضع على الصدر وأجيج جمع جيجان وسوار مع العلم أن المرأة تضع دائما سوارين وأما المصنوعات الجلدية فهي من إختصاص المرأة الحرفية، ومن أهم المنتوجات التقليدية التي تنتجها حقائب السفر الخاصة بالرجال و النساء و الخيمة وكل ماله علاقة بالجلد[229].

يقال و الله وأعلم أن الناس يخشون الحرفي، لأن ورشته مكان لقاء بين مختلف طوائف المجتمع[230] القاصدين لتصليح أو إقتناء مصنوعاته، و الشائع أن الحفي لا يستطيع كسب ثروته نظرا لمشاركته الزائرين له الغذاء و العشاء، ويقال إذا حل عابر السبيل المنطقة ومات جوعا فالذنب يعود على الحرفي[231] ومعنى هذا أن خيمة الحرفي مفتوحة للجميع.

تعتبر الإمزاد الألة الموسيقية النبيلة الوحيدة التي يمجدها طوارق الهقار ولا سيما طبقة النبلاء، وتعزف هذه الآلة كون الإعتقاد المعروف قديما أنه يحرم على الرجل لمس آلة الإمزاد فإذا فعل سيصاب الرجل أو قبيلته بمكروه المتوجهة قصد التجارة أو القيام بغارة على قبائل مجاورة.

والغناء الذي يصاحب موسيقى الإمزاد شديد الإغراء تدخل نغامته القلوب، ومن أشهر العازفات على الإطلاق على آلة الإمزاد السيدة راسين ولت إيهمه وهي إمرأة بارعة

(229)- نفس المرجع ص/30

(230)- نفس المرجع ص/30

(231)- نفس المرجع ص/30

الجمال ولدت عي عام 1873م بالهقار فتن بها الأمنوكال موسى آق أمستان إبن عمتها وهي أخت أمنوكان أخموك أق إهمة. وراسين مشهورة بالشعر و العزف على آلة إمزاد.

ولهذه الآلة معجبون وطنيا وهي تمثل تمنراست في المحافل المحلية وجرى تأسيس مدرسة تكوينية للبنات على هذه الآلة.

وتوجد عدة أنواع موسيقية عند طوارق الهقار منها موسيقى خاصة بالإكلان وهي موسيقى راقصة يستعمل الدف و التصفيق وتختلف عن موسيقى الطبقة النبيلة.

ومن ألوان الموسيقى في الهقار رقصة تاهيفلت تشارك فيها المرأة إلى جانب الرجل وهي التي تغني في مختلف المناسبات الإحتفالية.

ويوجد من الطبوع الموسيقية رقصة التزنغاريت يتغنى بها الرجال و النساء ويمكن وضعها في خانة الرقصات الخاصة حيث يبدأ الرقص عادة بعد منتصف الليل وتدوم حتى الفجر.

أما المزارعون الذين جاءوا من منطقة توات في 1850م جلبوا إلى الهقار رقصات منها رقصة البارود ورقصة العصي(إيصارة) ورقصة الطبل، ورقصة الديراني أو القرقابوا.

وإبان الإحتلال الفرنسي، ولا سيما بعد عام 1920م لجأ طوارق الكل إيفوغاس بمالي إلى الهقار بعد فترة جفاف شديد فجلبوا معهم تراث موسيقى المتمثل في التيندي حيث يوظف المهراس (التيندي في الموسيقى إلى جانب إستعماله في طحن القمح و البذور)، وفي هذه الحقبة دخل نوع موسيقى آخر يعرف بالتزمارت أو الناي الذي يستعمله الرعاة ومرافقي القوافل.

***

مدينة تبسة

حاضرة تبسة لها طابع تاريخي فهي تزخر بيشار بونية ورومانية وبزنطية وإسلامية، وخصب المعطيات التاريخية فإن إسم تبسة مشتق من مصطلح تيفست، وتعني مدينة المئة معبد ، وفي القرن الثالث قبل الميلاد قاد الجنرال القرطاجي الحاكم حانون معركة صد أعوانه المتمردين فقام أهالي تبسة بأسر 3000 قدموهم إلى الحلكم حانون ومكث القرطاجيون في مدينة تبسة مدة خمسين عاما كاملة، وتوجد يثير بونية منها قبور حجرية محفورة في الصخر أمام قلعة المدينة ،

وإزدهرت زراعة الزيتون في تبسة إبان العهد الروماني، ووصل عدد معاصر الزيتون في دلك العهد إلى 200 معضرة على مسافة 3 كلمتر، وجرى تطوير شبكة الطرقات مما سهل عملية الإتصال بين المدن المجاورة، وأصبحت تبسة مركزا تجاريا مرموقا في عهد الرومان وفي القرن الخامس الميلادي آصبحت تبسة تابعة للملكة الوندالية في عهد الملك جنسريق، ثم احتلت المدينة على يد البزنطيين الدين قاموا بترميم مدينة تبسة وشيدوا قلعة ويجد في المدينة آثار سور بيزنطي من أشهر ما خلفه البزنطيون في تبسة أما فبما بخص المعالم التاريخية الموجودة قي تبسة نجد من جملتها قوس النصر كركلا وهو أروع ما خلفه الرومان في هده المدينة ويساوي في القيمة المعلم الأثري الموجود بروما وإسمه جانوس روما وشيد قوس النصركركلا بتبسة مابين 212 م و213م ومن آثار مدينة تبسة المعبد الروماني مينرف وهو معلم تاريخي وثني يقع داخل السور البزنطي وهو مصنفأثريا مند عام 1968.

ويقع في تبسة المسرح الروماني الذي بني في عهد الإمبراطور فسيبيانوس حوالي عام 77م وربما شيد على مراحل والمسرح يبعد عن السور البزنطي بمائة وخمسين مترا، وعلى بعد نصف كلمتر شمال قوس النصر كركلا .

بنيت مابين القرنين الثالث والرابع الميلادي كنيسة القديسة سانت كرسبين مع العلم أن هذه تاجنيسة تنسب إلى إمرأة قامت بنشر المسيحية في ربوع تبسة، ولكنها أعدمت فيما بعد على يد المناوئين للديانة المسيحية في تبسة، ودفنت داخل المعبد السري مدخل الديامبس. وتمتاز تبسة ونواحيها بثراء موروثها الأثري والحضاري إبتداء من عصر ماقبل التاريخ العصر الإسلامي ثم العثماني والحديث، وفي ميدان الصناعة التقليدية تعتبر تبسة لها باع في صناعة الفخار ونسيج الزربية اللموشية المميزة وهي مئهورة بصناعة البرنوس التقليدي والخيمة ولحاقف النساء والحلي التقليدية المصنوعة من الفضة والنحاس . وئهدت تبسة ميلاد أول صورة سينمائية جزاشرية جرى تصويرها إبان حرب التحرير المباركة التقطت عند تفجير قطار الرابط بين مرسط والعوينات .

أعلام تبسة

لقد برز أعلام كبار منمواليد مدينة تبسة إو ضواحيها منهم الثيخ العربي التبسي وهو عضو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهو مجاهد بارز خطفته يد المنون عن طريق يد الغدرالفرنسي خلال عام 1957 فمات شهيدا .

عند تأسيس جمعية العلماء، كان من أبرز اعضائها وأصبح نائبالرئيسها الشيخ البشير الإبراهيمي ثعد وفاة عبد الحميد بن باديس ومن أعلام المدينة الشيخ محمد الطيب باشا التبسي وهو فقيه كاتب ألف كتباعديدة منها كتاب تلخيض ولادة النبي ومنظومة مولد الرسول.

ومن أعلام تبسة الشيخ محمد الشبوكي شاعر وأديب وكان عصوا في المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين، له ديوان شعر مطبوع جاء فيه قصيدة مشهورة لها طابع ثوري ووطني. مطلعها

جزائرنا يا بلاد الجدود نهضنا نحطم عنك القيود

ومن أقطاب تبسة المفكر الكبير مالك بن نبي صاحب كتاب شروط النهضة وكتاب الظاهرة القرآنية، تابع دراسته الإبتدائية والثانوية بالمدرسة الفرنسية وإلتحق بمعهد الدراسات الشرقية ولكن رفض طلبه فدرس الكهرباء وتزوج من فرنسية وعمل في حقل عالم الفكر والتربية والإصلاح حتى إندلاع ثورة التحرير في 1954 فإنضم الأيها وسافر الأى مصر ومكث بها حتى إستقلال الجزائر.

ويعتبرمالك بن نبي من أكبر المفكرين المسلمين في العصر الحاضر، وعندما كنت طالبا في جامعة الجزائر ثفسم التاريخ إبان السبعينيات من الفرن العشرين حضرت مدة عام كامل إلى ملتقياته الفكرية في بيته بالقرب من قصر الشعب حيث شدني محاضراته الشيقة حول شروط نهضة العالم الإسلامي التي كانت تعقد كل يوم سبت من الأسبوع، وكان يحضرها طلاب جامعة الجزائر وكان يشرح إلينا مضمون الحضارة عنده وتعني الوقت + تراب + إنسان = حضارة مازلت أدكر ذلك إلى اليوم.

***

بسكرة

مدينة بسكرة عاصمة الزيبان من أقدم المدن الجزائرية ولها طابع صحراوي ويكفيها فخرا أن في هذه الولاية يوجد ضريح القائد العربي الفاتح عقبة بن نافع الفهري في سيدي خالد وتمتاز ولاية بسكرة تمور دقلة الشهيرة على المستوى العلمي ومما يجب ذكره في هدا المجال أن الأمريكيين حالوا غرس دقلة نور في فلوريدا بعدما أخدوا نقلة الدقلة فلم تنجح عملية الزرع لأن المناخ والتربة لم تكن بنفس الذي ظهرت فيه الدقلة الجزائرية فلهذا فإن دقلة بسكرة أصيلة ولها نكهة خاصة، ويعجبني في طبيعة مدينة بسكرة طابعها الصحراوي المميز وعمرانها القديم المبني بالطوب والطين والجير وشدني احياء جميلة عثدما زرتها قبل سنوات خلت منها حي بسكرة

اللوطة ومازلت أذكر مدينة طولقة التي يكثر فيها بساتين دقلة نور التي كان لي شرق تذوق هدا النوع من التمور في أحد البساتين الجميلة ومن أعيان مدينة بسكرة عائلة بن قانة المشهورة وعائلة بن عزوز ولهم زاوية مشهورة تنسب الى الزاوية الرحمانية ومن أعلام مدينة بسكرة عضو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشبخ خير الذين صديق والدي الحسين السليماني والذي كنا نزوره أنا وأبي في منزله الفاخر مع البساتين الغناءة في بئر خادم بمدينة الجزائر، وترك الشيخ خير الدين مذكراته كأثر سيسي وثقافي معتبر وكان يمتاز بروح النكت والمداعبة عندمايلتقي بوالدي في بئر خادم مازلت أذكر ذلك . ومن أعلام مدينة بسكرة العقيد الشعباني الذي جرى إعدامه بعد الإستقلال لأسباب سياسية غير معروفة بالضبط، ومن أعلام مدينة بسكرة السيد عبد الكريم حساني القيادي المعروق قي لجنة الإتصالات إبان الثورة التحريية ومن أعلام مدينة بسكرة الشاعر أبو القاسم الخمار والفنان الكبير عبد الحميد عبابسة الذي برز في الموسيقى الصحراوية الشجية ومما يجب ذكره أن مدينة بسكرة مشهورة ببعض المأكولات التقليدية التي ذاع صيتها فيالجزائر والعالم العربي وهي شخشوخة البساكرة المصنوعة بالتريد واللحمو المرق ويوضع قوق شخشوخة التريد المرق بالقرعة والبيض والفلفل الحار وهي لذيذة ومن أطباق بسكرة شخشوخة مروكي وهي من التريد أيضاومرق التشيشة، وهناك طبق آخر يدعى الدوبارة وهي تتكون من الحمص مع مرق ويوضع فيها زيت الزيتون ولها نكهة خاصة وتأكل عادة في فصل الشتاء البارد.

***

وادي السوف

إشتهرت مدينة وا دي سوف بألف قبة الموجودة فوق أسطح المنازل التقليدية مما عطاها طابعا مميزا ويشتهر السوفيون بالتجارة حتى أصبحوا مضرب المثل في هذا المجال ومن أشهر تجار مدينة وادي سوف الثري جلالي مهري صاحب مصنع بيبسي كولا وفنادق أكور المشهورة بشراكة مع شركة فرنسية للفنادق تدعى أكور هي التي تسير فندق سوفيتال وفندق ميركور .

وازدهرتالتجارة والصناعة في وادي سوف بفضل نشاط رجال أعمال سوفيين الذين إستثمروا في صناعة العطورومنها مصنع ورود، ومصنع الطباعة وإنتاج الورق

والتغليف وتطور المنتوج الفلاحي بفضل قروض الدعم الفلاحي فأصبحت منطقة وادي سوف لها شأن في ميدان إنتاج التمور والطواطم والخضروات ولكن لاتصل مستوى إنتاج ولاية بسكرة في ميدان الإنتاج الفلاحي فهناك بون شاسع بينهما .

***

ندرومة

تعتبر مدينة ندرومة من أعرق المدن الجزائرية وقد ذاع صيتها في العصر الإسلامي لأن رفيق الدرب في تأسيس دولة الموحدين المهدي بن تومرت وهو عبد المومن بن علي يعود أصله من ندرومة وإعتمد المهدي بن تومرت على عبد المؤمن الأكومي في الدعوة الموحدية إنطلاقا من بجاية التي كانت المحطة الأولي في الدعوة الموحدية حيث دعيا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ونشأفي مدينة ندرومة عتمتء أجلاء ذاع ضيتهم من هم السيد العالم الجليل محمد بن رحال الذي عاش في القرن التاسع عشر وتعلم اللغة القرنسية في المدارس الفرنسية وتلقى تعليما عربيا في المدارس العربية وشارك في الكتابة السياسية والفكرية وهو كان في نفس المستوى الذي كان عليه السيد محمد بن شنب من المدية ولكن محمد بن رحال إمتاز بالدفاع عن حقوق الجزائريين المهضومة في المنتصف الأخير من القرن التاسع عشر بينما إتجه محمد بن شنب نحوالبحث العلمي لاغير إلتزم محمد بن رحال باللباس التقليدي مثلمافعل بن شنب. وتعتبر عائرة بن رحال من أعيان مدينة ندرومة وبرز منهم مترجمون وفقهاء ومحامون منهم المحامي الكبير رضوان رحال الموجود اليوم في وهران والجنرال السابق للبحرية الجزائرية الجنرال بن رحال وبحكم قرب مدينة ندرومة من الحدود المغربية فأهلها لهو ذوق كبير بالتراث الموسيقي الأندلسي فهي تشبه في عاداتها وتقالدها أهالي مدينة فاس المغربية وكذلك تلمسان وكثير من العائلات الندرومية منالأشراف الأدارسة منهم عائلة زرهوني نسبة لمولاي إدريس زرهون بالقرب من مكناس ولكن الأدارسة يعودون بأصلهم الأول إلى أشراف الرسول الكريم. ويعود نسب رئيس الجمهورية الجزائرية الحالي السيد عبدالعزيز بوتفليقة إليمدينة ندرومة العامرة. فرغم صغر المدينة مقارنة مع تلمسان فإنها أنجبت ثخبة مثقفة يحسب لها حسابها في الجزائر المستقلة وبرزت هذه المدينة الوديعة في ميدان تاموسيقى الأندلسية ومن أعلامها في هذا المضمار الحاج عبد الغفور والسيدة بن رحال.

مدينة أزفون

إن تاريخ أزفون في العهد القديم تنقصه المعطيات التاريخية فهي قليلة لا تشفي الغليل ومع هذا فإن المدينة جرى تأسيسها على يد الفنيقيين وكانت بمثابة محطة بحرية صغيرة يستعملونها أثناء رحلاتهم البحرية فيحتمون بها الفنيقيون من هيجان البحر، أو التزود بالخشب الموجود بوفرة كبيرة في منطقة أزفون وكانت تدعى في العهد الفنيقي ريسيريرف، وعندما جاء الرومان إلى المنطقة شمال إفريقيا حلوا في مواقع الفنيقيين وبهتم بها الرومان وشيدوا الحصون والقنوات الحجرية وجلبوا المياه وحرفوا إسم المدينة فأصبح إسمها روزازوس.

في العهد الإسلامي أصبحت المدينة تنعت بإسم أزفون كما جاء ذكرها في رحلة إبن حوقل في القرن العاشر الميلادي الذي زار بلدان المغرب العربي وذكرها الجغرافي الأندلسي عبد الله البكري في القرن الحادي عشر الميلادي في مؤلفه المشهور المسالك والممالك، وأورد السيد محمد أرزقي فراد[232] أن المنطقة الواقعة فيها إشتهرت بإسم زرحقاوة وهو إسم للعرش الذي يسكن المنطقة حسب رواية علي بن محمد بن فرحون المختص في نسب الأشراف .

أما المحتلون الفرنسيون فحذفوا الإسم العربوا أزفون ونعتوها بإسم ميناء قيدون نسبة إلى الأميرال الفرنسي قيدون الحاكم الفرنسي للجزائر 1871، وبعد نيل الجزائر إستقلالها إستعادت المدينة إسمها القديم أزفون وهي كلمة أمازيغية مشتقة من أسفون ومعناها الرياح الباردة وتقابلها كلمة أسفاي في الأوراس[233] وهناك من يرى أن إسم أزفون ينسب الإسم لصنف من السمك لانقوست

وتوالى على حكم أزفون الحماديون الذين جعلوا بجاية عاصمة سياسية للحكم الحمادي في 1068 في عهد السلطان ناصر بن علناس ثم جاء بعدهم الموحدون والحفصيون والزيانيون، وكانت هناك روابط قوية بين أزفون وبجاية حيث أن طلبة أزفون كانوا يرتادون مدينة بجاية لطلب العلم في مدارسها العامرة.

ويقال والله أعلم أن سيدي أحمد بن يوسف الولي الصالح دفين مليانة جاء من بجاية إلى أزفون فإستقر بها ردحا من الزمن في قرية تيفزوين، وتزوج هناك وترك

(232)- أنظرمحمد أرزقي فراد، أزفون بتاريخ وثقافة، ص12، نشر دالر الأمل 2003

(233)- نفس المرجع ص12

ذرية صالحة سرعان ما عمرت قرى كثيرة في هذه المنطقة بالذات وبعد الإحتلال الفرنسي قام الفرنسيون بالزحف على أزفون فوجدوا التعليم العربي فيها على أحسن مايرام بفضل المرابطين أشراف المنطقة وكانت مدارس عامرة شهيرة في قرى عشوبة، وسيدي منصور-تيفريت-وآث سيدي يحيى-إبسكرين ثيميليلين-شرفة وتخرج من هذه المدارس أئمة وفقهاء ومن علماء مدارس أزفون أبو يعلى الزواوي من ثيفريتوالشمحمد سعيد بن زكري-والمدارس العربية الأصلية واجهت حملات التبشير التي فشلت في تحقيق أغراضها.

وأقام المعمرون في منطقة أزفون بعد مصادرة الأراضي من الجزائريين، وهناك عائلات يهودية إستقرت في أزفون واقامت متاجر وحوانيت منها عائلات حجاج، وإسحاق، ومخلوف، ويوسف، وجلكو، كانت لهؤلاء اليهود غلاقة ودية مع الأهالي وبعضهم ساعد الثوار إبان الثورة التحريرية وكان اليهود يميلون إلى حل الخلافات مع الأهالي بصفة سلمية مما ترك إنطباعا حسنا، ويساعدون البؤساء ماديا .

من علماء أزفون المصلح الشيخ ابو يعلى الزواوي ساهم في الحركة الإصلاحية بالجزائر، وكان يؤمن بفكرة جماعة المسلمين التي تعمل بما أنزل الله ودعى إلى[234] بعث التعليم العربي وإعتبر أن الرافضين لتعلم العربية بمرتدين وخارجين عن الإسلام[235].

ومن أعلام أزفون الحاج أسعيذ وهم شاعر ديني عاش في أواخر القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين وكان معاديا للإستعمار الفرنسي. ومن أقطاب أزفون الشيخ أعمر أمزيان وبعزيز بن عمر 1906-1977 والحاج بن يحيى والشيخ محند واعمر زهز بصلاحي من أنصار جمعية العلماء المسلمين ولكن سياسيا كان معاصرا لمصالي الحاج فعينه هذا الأخير ممثلا لحزب الشعب في منطقة أزفون بعد زيارة لها في عام 1946.

ومن أهلام المنطقة من قرية عشوبة بناحية أزفون العالم محمد أولحاج رحماني والكاتب المصلح الديني الشهير محمد الصالح الصديق وهو من قرية الصديق وهو من قرية الصديق وهو من قرية إبسكرين له مؤلفات عديدة وصحافي بارع من كتبه العقيد عميروش والشيخ الرزقي الشرفاوي ورحلة في أعماق الثورة.

ومن مشاهير أزفون في عالم الثقافة والفن منهم الصحافي المرموق الطاهر جاعوط وهو روائي كتب أربع روايات بالفرنسية مات مغتالا في جوان1993 ومن منطقة أزفون المطربة القبائلية الفنانة حنيفة وتركت للإذاعة 200 أغنية .

---

(234)- نفس المرجع ص 114

(235)- نفس المرجع ص 115

ومن أزفون المخرج السينمائي مصطفى بديع، والممثل محمد حلمي وأخوه سعيد حلمي. وهناك من يجعل رويشد الفنان الكوميدي من أزفون ولكن هو من مواليد مدينة الجزائر ولكن نسبه العائلي من أزفون لا غير.

ومن أزفون الممثل الهزلي الشهير محمد السعيد فلاق مواليد 1950 بقرية آث يلول بالقرب من أزفون، ومن أقطاب الموسقى في الجزائر الفنان محمد إيقربوشن بقرية اث ووشن بلدية أغريب بدائرة أزفون تربى في اقصبة مدينة الجزائر وهاجر إلى فرنسا ثم بريطانيا، وذاع صيته كموسيقار محترف، وقام بتاليف الأحان[236] موسيقية لعشرين فيلما لشركة جون ميرسيي. وبعد رجوعه إلى الجزائر في عام 1956 وضع اكثر من 165.

إبداعا بين الأصالة والمعاصرة. وقد ترجمتانا شخصيا قبل عامين خلت سيناريو فيلم محمد إيقربوشن من الفرنسية إلى العربية لحساب مؤسسة سيم الجزائرية لمخرج الفيلم بوعلام عيساوي.

كان إيقربوشن يحسن لغات عديدة منها الفرنسية والأنجليزية والألمانية والأسبانية. مات إيقربوشن في1966 وعمره 56 عاما. ومن أبناء أزفون صديقي الفنان أمحمد إسياخم صاحب اللوحات الزيتية الرائعة كان أبوه يملك حماما في غليزان لذلك[237] إنتقل امحمد إليها صغيرا في طفولته المبكرة. وقد تعرفت عليه في رياض الفتح خلال إنجاز مشروع ثقافي ضخم عملت فيه بصفتي مؤرخا وهو ساهم في المشروع كفنان رسام مشهور محترف، وعاش إسياخم في باريس حيث ينتسب بلى المدرسة الوطنية للفنون الجميلة مابين 55-1958 وعرض أعماله في عدة عواصم عالمية وبعد الإستقلال عاد إلى الجزائر مع كاتب ياسين وعمل أستاذا في مدرسة الهندسة المهمارية والفنون الجميلة. وفي 1980 حصل بايطاليا على الجائزة الأولى سامبادور الخاصة بفن الرسم والمخصصة بإيفريقيا لمنظمة اليونسكو. وشارك إسياخم في وضع ديكور لعدة أفلام منها فيلم المسلك. وتنتمي عائلة الحاج امحمد العنقاء إلى دائرة أزفون ولكن المطرب سالف ذكره ولد في القصبة سنة 1907. ونفس الأمر بالنسبة إلى بوجمعة العنقيس .ث سعيد فنسب عائلته يعود إلى منطقة أزفون، ولكن لون العنقاء والعنقيس في الموسيقى يمتاز بالرتابة والإيقاع الثقيل الذي لايعجبني رغم إن لهذين المطربين محبين كثيرين في ميدان لطرب الأندلسي فكل إنسان له ذوقه وميله في هذا المضمار بلا نزاع يذكر . وينسب إلى أزفون سعيد سعدي رئيس حزب التجمع من أجل الثقافة والديموقراطية ، ويوسف سعدي بطل معركة الجزائر ولكنه من مواليد القصبة.

(236)- نفس المرجع فراد ص 202-203

(237)- نفس المرجع فراد ص 204

فوضى العمران في المدن الجزائرية

التهيئة العمرانية و البناء في المدن الجزائرية تسير نحو الأسوء يوما بعد يوم ولا سيما في بعض المدن الكبيرة في شمال الوطن ولاسيما الأبنية الجديدة التي بناها المواطنون الخواص منذ الثمانينات إلى يومنا هذا، فالمباني الحديثة هذه شكلها حزين وغير جميل، وأين مصالح العمران في البلديات والولايات من كل هذه فلا رقيب ولا حسيب، والفيلات بشكلها المعروف مع حديقة لكل منها تكاد تنقرض من مدننا إلى إشعار آخر، وهناك مصالح عمران لا وجود فيها لمهندس معماري بمدن نائية وبلديات معزولة فإستغل المواطنون ولاسيما أصحاب النفوذ هذا النقص، فبنوا منازل ضخمة بلا أي طابع فني يذكرلأن مكتب الدرسات أو مصلحة لا سلطة له عليهم، فأصبح حال مدن الشمال(طاق على من طاق) وفوضى العمران هذه نلاحظها بشكل جلي في مدن الشمال الجزائري في الحميز وباب الزوار والبليدة والحطاطبة والمدية ووزرة وبوفاريك وحربيل وأولاد عيش وبني تامو وبئر توتة والشبلي والحلوية، والقالة وعنابة وقسنطينة والحروش وبجاية.

وهناك جهود السلطات لإنقاذ التهيئة العمرانية من الفوضى العارمة التي تمس بعض المدن ولا ننكر جهود وزارة السكن من أجل أن تكون العمارات المشيدة تخضع لمقاييس ومظاهر عمرانية جميلة كمشروع عدل حيث يحترم الطابع الفني مع مساحات خضراء منظمة تنظيما حسنا، ومع هذا يبقى تدخل الدولة ضعيفا في توجيه المواطنين في فرض النمط العمراني حسب منطقة ما ذات طابع مميز وتوجد مدن جزائرية في قمة التنظيم العمراني والتهيئة الراقية يمكن أن تكون مثالا وعبرة للمدن الأخرى وأخص بالذكر مدينة سيدي بلعباس، ومدينة مستغانم.

ويمكن ملاحظة ذلك بشكل جلي من خلال الصور الجوية التي التقطها العالم الفرنسي (يان) بالهيليكوبتر بأمر وموافقة رئيس الجمهورية الجزائرية حيث نلاحظ النسق العمراني الجميل للمدينتين السالف ذكرها مقارنة مع أشكال مدن أخرى التي شوه عمرانها بعد الإستقلال مع الأسف، فالمهندس الذي خطط جامع الكوثر قد أفسد الشكل فقاعة الصلاة صغيرة مع أن حجم المسجد كبير و الصومعات الأربعة ليس لها طابع جميل وهذا الجامع موجود في البليدة.

في تونس الشقيقة يوجد ديوان وطني لتهذيب البناء، وهناك مقاييس عمرانية يخضع لها المواطنون في بناء طابق أو طابقين و الفيلات لها جمالها وورنقها بينما في مدننا تكاد تفقد هذه الميزة كما سلف ذكره.

مدن الجنوب الجزائري مثل غرداية وتيميمون وأدرار وتمنراست وعين صالح وإليزي وبني عباس وتندوف لها طابع مميز في العمران علاوة على تلمسان وندرومة، ويمكن أن تسير على منهجها مدن الشمال لابد من إعطاء سلطة قوية فاعلة لمصلحة العمران كل بلدية جزائرية مع فرض الصرامة واللاتسامح في في تنظيم العمران مثلما فعلت الدولة في مسألة حزام الأمان.

ويمكن أن نطلع على تجربة المغرب الشقيق الذي أصبح رائدا في التهيئة العمرانية ذات فنية عالية، يمكن أن نقول أنه خرج من التخلف في هذا المضمار وأصبح من البلدان الراقية منافسا بلدانا غربية وأقولها بصراحة وفي هذا البلد بالذات هناك صلاحيات واسعة للوكالة الحضرية في فرض نمط عمراني بجمع بين العصرنة والأصالة مراعاة النسق العمراني المميز لكل منطقة وإن قانون مدينة الجزائر لم نطلع عليه بعد ولا ندري مراميه وهل هناك تنسيق بين وزير المدينة وزارة التهيئة العمرانية يا ترى، يبدو لي أنه لا حرج في طلب المشورة والإستفادة من تجارب الأشقاء ولا سيما المغرب الشقيق وتونس الذين لهم خبرة كبيرة تفيدنا في سياستنا العمرانية المنشودة علاوة على الاستفادة من برامج المنطقة العربية للمدن وتجارب الاتحاد الأوروبي وكندا والولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل وإسبانيا وفرنسا الذين قطعوا أشواطا كبيرة في التخطيط العمراني حيث أن تونس في مرحلة ما بعثت المهندسين و الخبراء إلى كندا للإطلاع على تسيير وتخطيط المدن الكندية عن كثب ثم طبقت نتائج البحث في الميدان بتونس وهكذا دواليك.

والمعضلة الجزائرية يمكن أن تحل فهي مسألة إرادة وعزم وضبط خطة مرحلية للوصول إلى شاطئ الأمان في هذا الميدان و السلام.

الخاتمة

إن المدن الجزائرية في الشمال والجنوب لها طابع مميز، ولكن عانت هذه المدن من الهدم المنظم على يد الإستعمار الفرنسي بعد إحتلال الجزائر في 1830 فخربت قصبة مدينة الجزائر وقصبة تلمسان وقصبة عنابة وقصبة وهران وقصبة مدينة المدية ولم ينجو من هذا الهدم سوى مدن الجنوب الجزائري مثل غرداية وتميمون وأدرار وغيرها. ومصيبة الإستعمار الفرنسي انه هدم مدننا ووضع على أنقاضها مدن أوربية بلا روح ولاطابع ونستثني من ذلك ماشيده جونار الحاكم الفرنسي في الجزائر في بداية القرن العشرين الذي كان له إعجاب بالطابع العمراني العربي الإسلامي فشيد في عهده مقر ولاية الجزائر ومركز البريد المركزي. والمدن المغربية لم تشهد نفس على يد الفرنسيين أثناء قيام نظام الحماية في المغرب الأقصى. ولم تعاني تونس الشقيقة بنفس المصير الذي وقعت فيه الجزائر لحسن الطالع. وبعد إستقلال الجزائر بسبب قلة الإطارات الجزائرية في ميدان العمران وعدم وجود مخطط واضح وإستراتيجية في ميدان العمران أدى ذلك إلى كارثة عمرانية من ناحية فوضى العمران وممازاد في هذا التدهور وزاد الطين بلة يكمن في الهجرة الجماعية للمعمرين بما فيهم الإداريون الفرنسيون واليهود الجزائريون نحو فرنسا في 1962 بسبب ضغط المنظمة السرية التي دفعتهم إلى مغادرة الجزائر، فتركوا فراغا كبيرا في مصالح العمران ببلديات المدن الكبرى مثل الجزائر ووهران، وقسنطينة والبليدة وعنابة وتلمسان والمدية، فوقعت سياسة الإرتجالية في التخطيط العمراني. وكانت هناك محاولات لإعادة بناء عمراني جميل في عهد الرئيس أحمد بن بلا، ولكن أجهضت هذه العملية بسبب إنقلاب بومدين وفي عهد هذا الرئيس الأخير حاول المهندس الفرنسي الذي عاش في الجزائر ودرس بل علم في مدرسة المهندسين في الجزائر وهو بويون سعى هذا المهندس إلى إعادة بعث الطابع الجزائري التقليدي في العمران عن طريق تصاميمه العمرانية للمركبات السياحية على النمط التقليدي الجزائري في العمران ولكن لم تتجاوز هذه العملية مع الأشف المركبات السياحية في تيبازة والأندلسيت في عين الترك بوهران وعنابة والقالة لاغير حسب علمي، حيث لم تشمل العملية المدن الجزائرية كلها لأنه لم لم يكن لدى الحكومة أطر ذات كفاءة للتحكم في العمران كما يجب لتقوم بتسيير مصالح العمران في بلديات المدن الجزائرية الكبرى والصغرى ولم تكن هناك أي إستراتيجية في هذا المجال أصلا مع إنتشار ظاهرة الرشوة وسطوة أصحاب الذين يبنون منازلهم كما يريدون بلا حسيب ولا رقيب. هذه المصيبة التي ألمت بنا وهي فوضى العمران لم تمس المغرب وتونس البلدان

الشقيقان لأن اليهود المغاربة والفرنسيين لم يغادروا المغرب بصفة كلية، وسهروا بعد الإستقلال على تسيير شؤون الإدارة والعمران لفترة تاريخية طويلة إلى أن أصبح المسيرون مغاربة تحت رعاية فرنسية، ونتيجة ذلك فيما بعد أننا لاحظنا تطور قاعدي كبير في جمال العمران بالمغرب بفضل دخول مكاتب دراسات أجنبية إلى المغرب وتونس لاسيما المكاتب الإيطالية والفرنسية مما أدى إلى تحسين وتطور كبير في الشكل العمراني للمدينة المغربية، وأدى ذلك إلى رواج منتوج العمران في السكن الترقوي والفنادق السياحية والمركبات التي تستقطب السواح الأجانب وهو بستثمار مفيد للغاية.

لابد أن يجري تغيير جذري في تسيير عمران المدن وكذا التهيئة العمرانية فهي مسألة منهج إلى حد الساعة المنهجية المتبعة في تسيير العمران لم تثمر ولم نحصل بعدعلى نتيجة مرضية ، وهذه هي الحقيقة المرة وحتى قانون المدينة لم ير النور بعد، ولا ندري كيف سيكون مصير عمران المدن في القرن الواحد والعشرين، فسلطة العمران لا حول ولاقوة لها أمام زحف أبنية المنازل الخاصة التي تشبه الأقفاص بلا أي جمال يذكر فالمنهج المتبع إلى حد الآن فاشل إلى إشعار آخر، فإن نجحت الدولة في فتح طرق جديدة وأنفاق جديدة وطرق سريعة فإنها لم تستطع إلى حد الآن في بسط نفوذها وتنفيذ القانون وإقراره في تنظيم العمران، حيث ليس لدينا منهج مضبوط في هذا الشأن مثلما فعل المغرب الشقيق في هذا الشأن وأصبح بمثابة عبرة. وليسا عيبا أن نستفيد من تجارب الدول الشقيقة في تحديد منهج العمران في الجزائر لتغيير الوضع القائم، مع العمل على إرسال بعثات إلى أمريكا وكندا للإطلاع على تنظيم العمران هناك مثلما فعل المغرب الشقيق الذي أرسل بعثة الى أمريكا من المعماريين وخبراء وزارة السكن للإستفادة من المنهج الأمريكي في تسيير العمران في أمريكا دامت ستة أشهر... لابد أن نغير سياسة العمران تغييرا جذريا ونسير على منهج ناجح عوض التقوقع على نمط فاشل مثلما هو الأمر الآن ولكن المبادرة الأخيرة لمجموع دهلي لبناء Médina land المركب العمراني والسياحي أرض المدينة يعد مفخرة لجزائر القرن الواحد والعشرون وسيغير وجه ساحل مدينة الجزائر في مسافة 20 كلم وعلى كل حال هنيئا لهذا الإنجاز العظيم للسيد رحيم رجل الأعمال الجزائري رئيس مجموعة دهلي للإستثمار فهو مساهمة في تغيير نمط العمران مدينة الجزائر والسلام.

المصادر والمراجع

* محمد حجر ومحمد الأخضر طبع الإمارات العربية 5

* عبد الرحمن بن خلدون العبرية تاريخ العرب والبربر ج 4.3

* أبى الحسن الوزان وصف إفريقيا ترجمة إلى العربية ج 2.1

* العبدري الرحلة المغربية تحقيق محمد الفاسي الرباط 1968.

* عبد القادر حليمي (مدينة الجزائر: نشأتها وتطورها، قبل 1830م) الجزائر 1972م.

* الدكتور أبو القاسم سعد الله (تاريخ الجزائر الثقافي) الجزء الأول والثاني "الشركة الوطنية" للنشر والتوزيع، الجزائر 1981: دراسات وأبحاث المدن الثلاث: المدية، مليانة، الجزائر بمناسبة عيدها الألفي، مجموعة مقالات بأقلام مختصة، إعداد ودراسة عبد الرحمن الجيلالي الجزائر- المؤسسة الوطنية للكتاب.

* محمد كواسي (جزائر الأمس، الجزائر الخالدة) المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

نشر الشيخ/ أحمد توفيق المدني (كتاب الجزائر) الجزائر 1984 طبعة جديدة.

* الدكتور: أرجمنوكوران (السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي- تونس 1974، نقله عن التركية، الدكتور، عبد الجليل التميمي 1827- 1847).

* هاينريش فون مالتسان: ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا تعريب د.دودو. نشر المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر

* وليم سبنسور: الجزائر في عهد رياس البحر تعريب عبد القادر زبادية 1980.

* الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان: تعريب د.دودو نشر المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر.

* سيمون بفايفر: مذكرات التي تدعى لمحة تاريخية عن الجزائر تعريب د.دودو

* مذكرات شارل قنصل أمريكا في الجزائر: تعريب. اسماعيل العربي الكورلوي كردياك: الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون المجابهة الجدلية 1492م 1640م تعريب د.عب الجليل التميمي تونس 1683- القصبة: الهندسة المعمارية وتعمير المدن: تأليف مجموعة من الأساتذة والفنانين الجزائريين رياض الفتح 1984- 1985، الجزائر

* المجلة التاريخية المغربية: ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر.

* عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ج3 ار الثقافة بيروت الطبعة الرابعة 1980.

1990 ديوان المطبوعات الجامعية.

* محمد الحاج صادوق مليانة ديوان المطبوعات الجامعية 1990.

* الجزائر: نايت- مولود قاسم بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830 ج1. نشر دار البعث قسنطينة.

* يحيى بوعزيز: مدينة وهران، نشر وزارة الثقافة، 1988، مركز الدراسات التاريخي

- Haedo, topographiae historia générale de Argel, 1612, traduction Berbugger et Monneau dans revue africaine, tomel 14-15 Alger Devouls, AM Notes historique sur les mosquées d'Alger; tomel 4-5

- Rozet, voyage dans la régence d'Alger -Alger 1833.

- G.Yver, Encyclopédie de l'Islam -Paris.

- Charles Andre Julien, histoire de l'Algerie contemporaine Paris 1968

- Demaslatrie-relations et comerce de l'Afrique septentoile avec les nations chrétiennes du moyen-age, (Paris 1866).

- Le docteur Shaw, voyage dans la régence d'Alger, traduis de l'anglais par J.MAC Cathy, Edition Bouslama, Tunis.

Mounir Bouchenaki, Tipaza, site de patrimoine mondial ENAG Alger

- Gsell Atlas archéologique de l'Algérie Bonne feuille 9146 - 253

Voir Ravoisie Exploration scientifique de l'Algérie in beaux arts p21

présence punique en pays numide» p 224-225 et voir aussi Chabot j.a 1916

- Leglay Monum tip p 434

Id Ibid p 434

- Alia ben Younes «La présence punique en pays numide »

notes au sujet d'un nouveau topique romain des environs de Constantine

Id Ibid p235.

J.Bosco In B a n° 3692 fig p 93 situation de tikbab.

- Leglay (Saturne Africain) in monu 2 p 303

de saint le» B.A.C.1899pp rapport sur les découvertes faites en Algerie, séance du 15 janvier 1901 B.A.C.1901 p:cl2. voir Gsell «le chanps de steles

- G. Doublet Musée d'Alger n° 890 p 64 pl 3 - 2

- EL -BAKRI : Déscription de l'Afrique septentrionale, traduction :

- Dr Slane 2eme édition Alger 1913, p: 157.

محتويات الكتاب

طبع هذا الكتاب في ديسمبر 2007
بمطابع **دار القصبة للنشر**
حي سعيد حمدين، رقم 6، 16012، الجزائر.
الهاتف : 11 / 10 79 54 021 الفاكس : 77 72 54 021
الموقع الإلكتروني : www.casbaheditions.net
البريد الإلكتروني : casbah@casbaheditions.net
الجزائر، 2007.

أحمد سليماني

تاريخ المدن الجزائرية

عندما فكرت في الكتابة عن مدينة الجزائر والمدن الأخرى كان يحذوني دافع نفسي، فعزمت على الأمر لأن كتابنا المعاصرين لم يراعوا تاريخها، ولا حضارتها ولا ثقافتها خلال العصور الماضية وأستثني بعض الأعمال التاريخية التي تخص المدن وهي محدودة نسبيا.

في عهد الجزائر المستقلة فإن المؤرخين والكتاب الجزائريين أهملوا ميدان تاريخ المدن الجزائرية ولم يحض هذا الميدان بما يستحق من الاهتمام والرعاية، فلم يجندوا أقلامهم للكتابة عن تاريخ مدينة الجزائر وتاريخ مدينة تلمسان وتاريخ قسنطينة وتاريخ مدينة ندرومة وتاريخ مدينة تيميمون وتاريخ مدينة المدية، الخ. مما يعد تقصيرا؛ هذا مع العلم أن كل مدينة جزائرية لها حضارتها وأمجادها التي تستحق التدوين.

أحمد سليماني، حاصل على ليسانس تاريخ من جامعة الجزائر ودكتوراه من جامعة نيس الفرنسية.

أستاذ التاريخ بجامعة الجزائر منذ بداية الثمانينيات.

له العديد من المؤلفات منها: النظام السياسي الجزائري في العصر العثماني، العلاقات القرطاجية اللوبية القديمة، تاريخ مدينة الجزائر، ودراسات أخرى قيد الطبع.





دار القصبة للنشر